الإمارات العربية المتحدة
وزارة التربية والتعليم

النُّصوصُ القصصيَّةُ

الصّف الثّاني عشرَ

الطّبعة الأولى (التّجريبيّة) 1438-1439هـ / 2017-2018م

حقوق الطبع محفوظة لوزارة التربية والتعليم بدولة الإمارات العربية المتحدة

إدارة مناهج الصّفوف العليا

مركز اتصال وزارة التربية والتعليم
اقتراح - استفسار - شكوى

80051115
04-2176855
ccc.moe@moe.gov.ae
www.moe.gov.ae

صاحب السّمو الشّيخ خليفة بن زايد آل نهيان
رئيس دولة الإمارات العربيّة المتّحدة، حفظه الله

"يجب التزوُّد بالعلوم الحديثة والمعارفِ الواسعة، والإقبال عليها
بروح عالية ورغبة صادقة؛ حتى تتمكّن دولة الإمارات خلال
الألفيّة الثّالثة من تحقيق نقلة حضاريّة واسعة."

من أقوال صاحب السّمو الشّيخ خليفة بن زايد آل نهيان

دلالات ألوان علم
دولة الإمارات العربيّة المتّحدة

استلهمت ألوان العلم من البيت الشهير للشاعر صفيّ الدّين الحلّي:

بيضٌ صَنائِعُنا خُضْرٌ مَرابعُنا
سودٌ وَقائِعُنا حُمْرٌ مَواضينا

- يرمز إلى عمل الخير والعطاء، ومنهج الدّولة لدعم الأمن والسّلام في العالم.
- يرمز إلى النّماء والازدهار والبيئة الخضراء، والنّهضة الحضاريّة في الدّولة.
- يرمز إلى قوّة أبناء الدّولة ومنعتهم وشدّتهم، ورفض الظّلم والتّطرّف.
- يرمز إلى تضحيات الجيل السّابق لتأسيس الاتّحاد، وتضحيات شهداء الوطن لحماية منجزاته ومكتسباته.

رؤية دولة الإمارات العربية المتحدة 2021

1. متحدون في المسؤولية
- الإماراتيّ الواثق المسؤول.
- الأسر المتماسكة المزدهرة.
- الصّلات الاجتماعيّة القويّة والحيويّة.
- ثقافة غنيّة ونابضة.

2. متحدون في المصير
- المضيّ على خطى الآباء المؤسّسين.
- أمن وسلامة الوطن.
- تعزيز مكانة الإمارات في السّاحة الدّوليّة.

3. متحدون في المعرفة
- الطّاقات الكامنة لرأس المال البشريّ المواطن.
- اقتصاد متنوّع مستدام.
- اقتصاد معرفيّ عالي الإنتاجيّة.

4. متحدون في الرخاء
- حياة صحيّة مديدة.
- نظام تعليميّ من الطراز الأوّل.
- أسلوب حياة متكامِل.
- حماية البيئة.

تطبيق الديوان
عزيزي الطالب
للحصول على النسخة الرقمية من الكتاب قم بزيارة الرابط أدناه
www.elib.moe.gov.ae/MoElib/getting-started
Get it from Microsoft
Download on the App Store
GET IT ON Google Play

رسالةٌ إلى الطالب

«يجبُ أنْ يكونَ الكتابُ فأسًا للبحرِ المتَجَمِّدِ فينا»

(كافكا)

عَزيزي الطّالب،

هذا كِتابٌ صُمِّمَ ليكون رفيقًا لك وصديقًا؛ ستجد فيه النصوص المقرَّرة في كتاب الأنشطة اللغويّة، ونصوصًا أخرى رديفة. وهو دعوةٌ منّا لتكون القراءةُ طَقسًا من طقوس حياتك اليوميّة، تجد لها متّسعًا من الوقت، فتخلو فيه بكتابٍ تقرؤه بحريّة، وتبحر في عوالمه بهدوء وسلام.

إنّ التّحرّر من نمطِ الحياةِ المقيّدةِ بالدروسِ المقرّرة والاختباراتِ إلى الحياة المنفتحة على الثقافة والمعرفة بكلِّ أشكالِها وألوانِها هو الّذي سيمنحُك أدواتِ نجاح راسِخةً وممتدّة ومتناميةً وهو الّذي سينير بصيرتَك لترى الحياةَ أكبَرَ بكثير من مجرّد مدرسة وصفٍّ ودرس. إنّنا نحثّك على أن تجعل للقراءة في هذا الكتاب وكتبٍ أخرى وقتًا تقتطعه من يومك، ولو كان قصيرًا، ونشجّعك على أنْ تجعلَ لقراءاتك في هذا الكتاب والكتب الأخرى صدى في حياتِك، فتتحدّث عنها مع أصدقائك وعائلتك، وتكتبُ عنها على صفحاتك الشخصيةِ في مواقِع التواصل الاجتماعيّ؛ فكلُّ هذا سيُسهمُ إسهامًا ملموسًا في بناءِ شخصيّتك، وتعزيز ثقتِك بنفسِك، وتزويدك بمفاتيح النجاح الدائم المستمر.

عَزيزي الطّالب،

إنّ القراءة، وقراءة الأدب على وجه الخصوص، تساعد المرء على أن يكونَ أكثر فهمًا للحياة والناس، وأوسع أفقًا، وإنّ هذا النوع من القراءة هو الّذي يجعل الإنسان أكثر تواضعًا وتسامحًا وذكاءً. إنّ كلّ قصة أو رواية تقرؤها هي بمثابة بوابة تُفتح لك لتُبْصِرَ الحياة بتفاصيلها الصغيرة، تلك الّتي قد لا ننتبه لها ونحن نمارس واجباتنا اليوميّة، ونغدو ونروح مع الغادين والرائحين. إنّ هذه البوّابة هي الّتي تجعلك تستقرّ في قلوب الكثيرين من الناس، أولئك الذين تُكتبُ عنهم القصصُ، وتحكي حكاياتِهم الرواياتُ، فتعرف ما لم تكن تعرف، وتدرك ما لم يكن خطر لك على بال.

عَزيزي الطّالب،

إنّ قراءة الأدب تشبه الدخول في مرآة سحريّة كبيرة، تكشف لك وجوهًا لا نهاية لها للحياة، لفعل الزمان في الإنسان، وللإنسان في ضعفه وقوّته، في صدقه وكذبه، في عزّه وذلّه، في أنانيّته وظلمه، في رقّته وقسوته في أحزانه وأفراحه، وآلامه وأحلامه. وكلما انفتح كتابٌ بين يديْ قارئٍ في مكانٍ ما، في زمانٍ ما، استطالت مرآةٌ سحريةٌ أمامه ليرى ما لم يكن يرُى، ويكشِفَ ما كان سيبقى محجوبًا للأبد لولا لحظة تبصُّرٍ قادته إلى أن يُمسِك بين يديه قصة أو روايةً ستجعلُه بعد أن يقلبَ الصّفْحة الأخيرة فيها يزداد يقينًا أنّ الخلود لا يكون إلّا للخير والحق والجمال.

نرجو لك رحلةً ممتعةً ومفيدةً مع اللغةِ العربية.

الفهرس

- القِصَّةُ القصيرةُ 11

* القِصَّةُ القصيرةُ 15
  ◊ نظرةٌ خارجَ النّافذةِ – ليندا فون كيزر 17
  ◊ علامةُ تعجّبٍ – فاطمة الكعبي 21
  ◊ رأيْتُ النّخلَ – رضوى عاشور 23
  ◊ الحِرِبَاءُ – أُنْطُوانُ تشيخُوفُ 29
  ◊ مَا لَنْ يأتي عَبرَ النَّافِذةِ – جوخَةُ الحارثيُّ 34
  ◊ طفلٌ وكلبٌ، ذاتَ ليلٍ – آماليا رندايك 37
  ◊ السَّماور – سعيدُ فائقٌ 42
  » قصصٌ رديفةٌ 47
  ◊ البدينُ والنّحيفُ – أنطوان تشيخوف 49
  ◊ بيتٌ – ابتسام المعلّا 51
  ◊ الجرح الخفي – كارولي كسفلودي 55
  ◊ الحلم الأخير – هانس كريستيان أندرسن 63
  ◊ الشيخان 69
  ◊ الصقر – غوستاف هلستروم 77
  ◊ الطفل الجاسوس 81
  ◊ الفلاحون في (باريس) – ألفونسو دوديه 89
  ◊ بثلاثمائة ألف فرنك! – ألفونسو دوديه 93
  ◊ بغلة القاضي – ألفونسو دوديه 97

ملاحظةٌ:

النّصوصُ المعالجةُ في كتابِ (التّطبيقات اللّغويّة) تجدُ عناوينَها مظلّلةً باللّونِ الرّماديِّ.

◊ حلم عصفور المطر – د. ليلى الصقر 113
◊ زوجها الّذي هرب – آرثر موريسون 123
◊ سر المعلم كورني 131
◊ عنزة السيد (سيجان) 137
◊ أسطورة الرجل ذي المخ الذهبي – ألفونسو دوديه 145
◊ وداعا يا كورديرا – ليوبولدو آلاس 149
◊ كلمات 155
◊ منزل للبيع 159
◊ ينبوع الشباب – ناثانيل هوثورن 165

القِصَّةُ القصيرةُ

«القِصّة"مشتقة من الفعل «قَصَّ»، الّذي يأتي بمعنى التَّتبّع، يقال: قصَّ فلانٌ أثرَ فلان: أي تتبّعه. ومنه قوله تعالى: (وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١١﴾). ويأتي أيضًا بمعنى الإخبار والرواية، يقال: قَصّ عليه الخبر: أي حدّثه، وقَصّ القِصّة: أي حكاها. فالقِصّة: هي الحكاية الّتي تُحكى.

أمّا «القِصّة"في الاصطلاح فلها تعريفات كثيرة، لكنّ معظم هذه التعريفات يؤكد على أنّ القِصّة سرد متخيّل قصير نسبيًّا، يهدف إلى إحداث تأثير معين، وفي أغلب الأحوال تركز القِصّة القصيرة على شخصية واحدة في موقف واحد، في لحظة واحدة، في مكان بعينه. وقد اختصر بعضهم تعريف القِصّة بقوله «فَنٌّ أدبيٌّ نثريٌّ يتناول بالسرد حدثًا وقع، أوْ يمكن أن يقع».

وأهم ما يمكن أن يقال عن القِصّة (والرواية كذلك) إنّها فنٌّ غايته الإمتاع في المقام الأول، فليس من أهداف القِصّة (أو الرواية) أن تقدم معلومات للقارئ بصورة مباشرة، وليس من أهدافها أنْ تُعلّم أو تعظ. إنّ القِصّة فن، والفن لا يتخذ من الخطاب المباشر وسيلة أو طريقة للتعبير والوصول إلى وجدان القارئ.

إنّ القِصّة تستحث القارئ على التفكير والتأمل، وعلى أن ينظر إلى الحياة من زوايا مختلفة، ومن خلال تفاصيل صغيرة جدًّا قد لا ينتبه إليها، لكنها تشكل حياة الناس وتؤثر فيهم، لذلك نقول: إن القِصّة الناجحة هي الّتي تجعل القراء يفكرون، ويشعرون.

وهناك عناصر أساسية تقوم عليها القِصّة (أو الرواية)، والكاتب الناجح هو الّذي يشكل من هذه العناصر بناء فنيًّا متجانسًا متماسكًا، يؤثر في القارئ، ويوصل إليه فكرة ما بشكل غير مباشر، ومن أهم عناصر القِصّة:

1. **الحدث**: عادة ما تقوم القِصّة القصيرة على حدث مفرد؛ فالقِصّة تجري في زمان محدد،

ومكان محدد، وتتناول موقفًا محددًا، أو شريحة من الحياة بغية تسليط الضوء عليها.

2. **الشخصيات**: عنصر الشخصية يعد دعامة أساسية من دعامات القِصّة، فلا يمكن أنْ تُبنى قصة من دون وجود شخصية تحرك الأحداث وتتأثر بها، والشخصية قد تكون إنسانًا أو حيوانًا أو كائنًا متخيلًّا.

3. **الإطار الزماني والمكاني**: يحدد هذا العنصر زمن وقوع الأحداث ومكانها، والكاتب المتمكن يوظف عنصر الزمان والمكان توظيفًا يناسب جوّ القِصّة، والفكرة.

4. **الراوي ووجهة النظر**: الراوي هو الّذي يروي القِصّة، وهو ليس الكاتب، بل الكاتب يختار وجهة نظر معينة تُروى من خلالها القِصّة، ويرويها راوٍ قد يكون شخصية من شخصيات القِصّة، وقد يكون راويًا خارجيًّا. ووجهة النظر الّتي ينطلق منها الراوي تتقاطع مع فكرة الرواية، لأنها تعبّر عنها.

5. **الحبكة**: الطريقة الّتي يجمع بها الكاتب أحداث قصّته أو روايته ليصنع منها عملًا فنيًّا، يجذب القارئ، ويشدّه في اتجاه النّصّ من بدايته حتّى نهايته، وقد يظهر خط بسيط للحبكة في بعض القصص، فعلى الرغم من قصر القِصّة، وضيق المساحة المتاحة للكاتب ليتحرك فيها، إلّا أنّ بعض القصص يظهر فيها تصاعد للأحداث، ووصولها إلى نقطة توتر عليا، ثُمَّ انحدار نحو النهاية.

6. **التشويق**: هو العنصر الّذي يشدّ القارئ نحو القِصّة وعالمها، وغالبًا ما يكون مرتبطًا بشيء تريده الشخصية الرئيسة، أو مشكلة تواجهها. بعض القصص قد تتحرر من البنية التقليدية الّتي تعتمد على التشويق وتأزم الموقف، خاصة تلك الّتي تركز على مشهد وحيد مضغوط، أو الّتي تُبقي القارئ داخل دائرة تفكير الشخصية وتأملاتها وأسئلتها، ولذلك يصنف بعضهم القصص إلى «قصة شخصية"و«قصة حبكة أو حدث». أمّا الثانية، في الغالب، هي الّتي قد تحوي عنصر التشويق القائم على توتر الأحداث ووصولها إلى نقطة تأزّم عُليا.

7. **الفكـرة أو الموضـوع**: وهي الرسالة المبطنة في القِصّة، والتي يريد الكاتب من القارئ أن يصل إليها.

8. **اللغـة**: اللغة ترتبط بحجم القِصّة، ويجب أن تكون مكثفة تعتمد التلميح بدل التصريح؛ فلا مجال للوصف المسهب فيها، وغالبًا ما يتراوح عدد كلماتها بين خمسمئة إلى عشرة آلاف كلمة، وقد تستخدم الحوار الّذي يجب أن يناسب الشخصية، مما يفتح الباب للعبارات العامية والشعبية.

ويمكننا أن نجمل القول في القصة فنقول: إنّ القصة لا تتناول -خلافًا للرواية- شخصية كاملة بكل ما يحيط بها من حوادث وظروف وملابسات، وإنما تكتفي بتصوير جانب واحد من جوانب حياة الفرد. ولا تتعدد الشخصيات في القصة القصيرة. ومن الضروري أن تتوافر وحدة الفعل والزّمان والمكان؛ فيجب أن يكون المكان محدودًا، وأن يكون الزمان قصيرًا. وأن ينتقي القاصّ -عكس الرّوائيّ- حدثًا من الحياة اليومية، ويحاول أن يجعل منه موقفًا فنّيًا، يوضح به حقيقة من الحقائق.

ولم تعد بنية القصة القصيرة وعناصرها كما كانت وقت ظهورها، فقد اختفت بعض الشروط واختفت بعض العناصر، حتى تكاد كل قصة قصيرة لها شكلها الخاص.ولقد تعددت موضوعاتها وأغراضها ومجالاتها وتباينت في مدى ارتباطها بالواقع أو ابتعادها عنه.

إنّ الإلحاح السابق على ملحظ التركيز في القصة القصيرة، سواءً أكان في البنية الفنية أم في اللغة، يسوقنا إلى الحديث عن أهم خصائص القصة القصيرة، الّتي يمكن حصرها، بشكل عام، في ثلاث خصائص:

1. **الوحـدة**: وقد أكّد عليها كبار الكتاب والتزموا بها، والمقصود بالوحدة هنا: الوحدة العضوية الّتي تؤدي إلى وحدة الانطباع، والتأكيد على أن تحمل القصة فكرة واحدة، وتركز على شخصية واحدة في الغالب، وأن تبنى بناءً محكمًا يولد في القارئ انطباعًا واحدًا.

2. **التكثيـف**: وهـو مطلـب جوهـري لنجـاح القصـة فنيًـا، ولذلـك قـال عنهـا يوسـف إدريـس «القصـة القصيـرة رصاصة"انظـر كيـف تصيـب الرصاصـة الهـدف، فهـي ليسـت حجـرًا ولا كرة، بـل رصاصـة تنطلـق لتصيـب الهـدف بسـرعة ودقـة تامتيـن. ولذلـك فـإن كل كلمـة محسـوبة فـي القصـة، وكل جملـة لهـا دورهـا، وليـس هنـاك مـكان للاسترسـال فـي الـكلام لمجـرد أنـه كلام جميـل أعجـب الكاتـب. والتكثيـف يختلـف باختـلاف القصـة، وطولهـا، وبنيتهـا الفنيـة.

3. **الدراميـة**: ويقصـد بهـا التوتـر الّـذي يجعـل القـارئ يتابـع القـراءة، ويرغـب فـي الوصـول إلـى النهايـة، حتـى لـو خلـت القصـة مـن الصـراع، واعتمـدت علـى أفـكار الشـخصية الداخليـة فـإنّ الكاتـب الناجـح يسـتطيع أن يشـدّ خيـط القصـة، ويجـذب القـارئ إلـى عالمهـا. وهنـاك تقنيات كثيـرة تسـاعد الكتـاب علـى تصعيـد درجـة التوتـر فـي القصـة، كالبدايـة المثيـرة للتسـاؤل، أو الشـخصية المحيّـرة أو المحتـارة، أو الحـوار الداخلـي، أو حركـة الزمـان أو المفارقـات، وغيرهـا كثيـر.

وكمـا قـال النقّـاد إنّ القصـة تأخـذ مـن المسـرح دراميّتـه، ومـن الشـعر توتّـره. إنّ القصـة القصيـرة تفتـح نافـذة صغيـرة للقـارئ ليطـل منهـا علـى مشـهد مـن مشـاهد الحيـاة لـم يكـن قـد فَطِـن إليـه مـن قبـل، وكلمـا زادت النوافـذ أتيـح لهـذا القـارئ أن تتوسـع نظرتـه للحيـاة، وتـزداد عمقًـا ومعرفـة. إنّ قـارئ الأدب هـو إنسـان أكثـر تسـامحًا وتقبـلًا للحيـاة بـكل تناقضاتهـا.

القِصَّةُ القصيرةُ

قبل أن تشرع في القراءة، حاول أن تفكر في العنوان.

نظرةٌ خارجَ النّافذةِ *
ليندا فون كيزر

منذُ سنواتٍ عديدةٍ حدثَتْ حادثةُ سيّارةٍ للسّيّدِ (شفارز) وزوجتِهِ، نتجَتْ عنْ هذهِ الحادثةِ وفاةُ زوجتِهِ، كما أُصيبَ هوَ إصابةً خطيرةً، ومنْ ذلكَ الحينِ وهوَ يجلسُ في كُرسيٍّ متحرّكٍ، لا يستطيعُ الحركةَ، وهُوَ يعيشُ الآنَ معَ ابنِهِ الطّفلِ الوحيدِ في شقّةٍ بالدّورِ الأرضيِّ في مدينةٍ صغيرةٍ وفقيرةٍ، وقدِ ازدادَتْ هذهِ المدينةُ فقرًا بعدَ الحربِ[1].

كيف توضح هذه الفقرة العنوان؟.

لقدْ استيقظَ السّيّدُ (شفارز) هذا الصّباحَ مبكّرًا بعدَ ليلةٍ سيّئةٍ؛ لمْ يستطعْ فيها النّومَ؛ وذلك منْ شدّةِ الأرقِ والأحلامِ السّيّئةِ، ثمَّ تحرّكَ بكرسيِّهِ المتحرّكِ تجاهَ المطبخِ، حيثُ أعدَّ لنفسِهِ فنجانًا منَ القهوةِ، وذهبَ بكرسيّهِ المتحرّكِ تجاهَ النّافذةِ المُطلّةِ على الشّارعِ؛ كي يراقبَ حركةَ المارّةِ في الشّارعِ.

لقدِ اعتادَ أنْ يرى النّاسَ مسرعينَ مهرولينَ إلى أعمالِهِمْ، كما اعتادَ أنْ يرى ربّاتِ البيوتِ وهنَّ يتسوّقْنَ، ويشترينَ الخبزَ منَ المخبزِ، كذلكَ العصافيرَ الّتي راحَتْ تصوصُ بأصواتٍ عاليةٍ مبتعدةً عنِ القططِ الّتي كانَتْ تتربّصُ بها بغيةَ اقتناصِها وافتراسِها، ثمّ يجيءُ في الشّارعِ مسرعًا كلبٌ وقدْ وضعَ الجريدةَ في فمِهِ؛ لكي يعطيَها لسّيّدِهِ، كذلك رأى حمامةً وهيَ بجوارِ العصافيرِ تأنسُ بصياحِها وضجيجِها.

حاول أن ترسم صورة عن عاملة النظافة: أسرتها. بيتها، هل لديها أطفال؟ عمرها، صحتها...

على الجهةِ الأخرى منَ المنزلِ كانَ هناكَ منزلٌ بهِ العديدُ منَ المكاتبِ، وأمامَهُ رصيفٌ، تأتي كلَّ يومٍ عاملةُ نظافةٍ تقومُ بتنظيفِ هذا الشّارعِ، وكذلكَ الرّصيفِ. كانَتْ هذهِ العاملةُ ترتدي دومًا ملابسَ خضراءَ، سواءٌ أكانَتْ في الشّتاءِ أمْ في الصّيفِ، لقدْ كانَتِ العاملةُ تنظّفُ كلَّ بلاطةٍ على حِدةٍ بإتقانٍ وإمعانٍ، وكأنَّها تقومُ بتنظيفِ غرفةِ معيشةٍ في بيتِ شخصٍ نبيلٍ، كانَتْ بلاطاتُ الشّارعِ منَ الجرانيتِ، وكانَتْ ذاتَ ألوانٍ مختلفةٍ؛ فواحدةٌ لونُها أسودُ، تليها

1) الحرب العالمية الثانية.

* من المجموعة القصصية "العالم من خلال قلوبهم"، للكاتبة ليندا فون كيزر، ترجمة أشرف أحمد، المركز القومي للترجمة.

أخرى ذاتُ لونٍ أحمرَ، ثمَّ أخرى ذاتُ لونٍ أحمرَ متقاطعٍ معَ اللّونِ الأسودِ.

وهكذا حتّى نهايةِ المنزلِ الّذي يحتوي على المكاتبِ. في البدايةِ كانَتْ بلاطاتُ الشّارعِ متساويةً وملساءَ، ولكنْ معَ مرورِ الزّمنِ أصبحَتْ خشنةً وغيرَ متساويةٍ، واعتقد السّيّدُ (شفارز) أنَّه ربَّما كثرةُ النّظافةِ الّتي قامَتْ بها عاملةُ النّظافةِ، قدْ أدَّتْ إلى هذا؛ إذْ إنّها كانَتْ تنظّفُ كلَّ حجرٍ على حِدَةٍ، كما كانَتْ تعرفُ كلَّ حجرٍ، وكأنّها على علاقةٍ حميمةٍ بكلٍّ منها. لقدْ رأى السّيّدُ (شفارز) بلاطاتِ الشّارعِ بأعينِ عاملةِ النّظافةِ، الّتي راحَ يتابعُ كلَّ تحرّكاتِها في الشّارعِ دون أن تشعرَ به.

كانتِ البلاطاتُ مستديرةً وكبيرةً، وكانَ على عاملةِ النّظافةِ أنْ تنظّفُها بحركةٍ دائريّةٍ، حتّى تجمعَ القمامةَ مِنْ حولِها، ثمَّ تغرفُها بجاروفِها، لقدِ استغرقَ كلُّ ذلكَ منَ العاملةِ ساعةً ونصفَ السّاعةِ كلَّ صباحٍ. ثمَّ ترحلُ العاملةُ حاملةً جاروفًا وجردلَ المياهِ ومقشّةً وخرقةً باليةً لتنظّفَ بها القاذوراتِ. بعد ذلكَ يتحرّكُ السّيّدُ (شفارز) داخلَ مسكنِهِ، فيوقظُ ابنَهُ كي يُعِدَّ لَهُ الإفطارَ، ويذهبَ إلى المدرسةِ.

ما المعنى والقيمة اللذين أعطتهما عاملة النظافة لحياة السيد شفارز؟

هكذا كانَ البرنامجُ اليوميُّ للسّيّدِ (شفارز) منذُ عامينِ. وفي ذاتِ صباحٍ نظرَ السّيّدُ (شفارز) خارجَ النّافذةِ كعادتِهِ، ولكنّه لمْ يرَ عاملةَ النّظافةِ، ممّا أصابَهُ بالذّهولِ؛ لقدِ اعتادَ السّيّدُ (شفارز) أنْ يرى هذهِ السّيّدةَ كلَّ صباحٍ، سواءٌ أكانَ ذلكَ شتاءً أمْ صيفًا، لقدْ أعطَتْ حياتَهُ معنًى وقيمةً، كانَ يشعرُ بهما دونَ غيرِهِ.

وبدلًا من هذهِ السّيّدةِ النّشيطةِ جاءَ عاملُ النّظافةِ الّذي كان ينظّفُ المجلسَ المحليَّ، وسكبَ الماءَ في الشّارعِ مرّةً واحدةً، ومرّرَ عليه المسّاحةَ، وفي خلالِ اثنتي عشرةَ دقيقةً انتهى مِنْ نظافةِ الشّارعِ، ولمْ يعجبْ هذا العاملُ المهملُ السّيّدَ (شفارز)، ولم تأتِ عاملةُ النّظافةِ في الغدِ، وكذلكَ لمْ تأتِ بعدَ غدٍ.

ما الّذي يصوّره لك اهتمام السيد شفارز بعاملة النظافة؟ هل الأمر يستحق؟.

وراحَ السّيّدُ (شفارز) يفكّرُ: ماذا عساهُ أنْ يكونَ قدْ حدثَ معَ هذهِ السّيّدةِ؟ هلْ تركَتِ العملَ، ولن تعودَ مرّةً أخرى؟ هل طُرِدَتْ من العملِ؛ لأنّها كانَتْ تؤدّيهِ بإتقانٍ زائدٍ على الحدِّ؟ عندَ ذلكَ رجا ابنَهُ أن يسألَ عن هذهِ السّيّدةِ.

فذهبَ الطّفلُ إلى بوّابِ العِمارةِ المُقابلةِ ذاتِ المكاتبِ الكثيرةِ، فأخبرَهُ البوّابُ بأنَّ العاملةَ مريضةٌ، وأعطاهُ عنوانَها. عندَ ذلكَ قرّرَ السّيّدُ (شفارز) أنْ يرسلَ لها ابنَهُ؛ لكي يخبرَها بأنّه يفتقدُها في عملِها، وأنّه يُقدّرُ عملَها تقديرًا كبيرًا، ثمَّ اشترى السيّدُ (شفارز) عسلًا وقربةً للتّدفئةِ وبعضًا من الكعكِ وَعُلبَ شايٍ طبّيٍّ، وأعطاها جميعًا لابنِهِ، كي يهديَها إلى عاملةِ النّظافةِ في بيتِها، كما أنّهُ لم ينسَ أنْ يصنعَ بطاقةً داخلَ هذهِ الهديةِ، مكتوبًا عليها اسمُهُ وتمنّياتُهُ لها بالشّفاءِ.

ذهبَ الابنُ بالهديّةِ إلى منزلٍ سكنيٍّ بالدّورِ الخامسِ؛ مقرِّ سكنِ عاملةِ النّظافةِ، فكانَتْ راقدةً على سريرِها، فاقدةً كلَّ رغبةٍ في الحياةِ أو العملِ، تُعاني السّعالَ وارتفاعَ درجةِ الحرارةِ، كذلكَ كانَتْ تُعاني من صعوبةِ التّنفّسِ وضيقٍ في الصّدرِ.

إنّها لمْ تشترِ طعامًا منذُ عدّةِ أيّامٍ، ولمْ يكنْ لها أقاربُ كي يشتروا لها طعامًا، حتّى طرقَ الصّبيُّ البابَ، وأحضرَ لها الهديّةَ، ولم تكنْ تعرفُ ممّنْ هذه الهديّةُ، اعتقدَتْ أنّها في حلمٍ، ثمَّ فتحَتْ الكرتونةَ، ورأَتِ البطاقةَ الخاصّةَ بالسّيّدِ شفارز، والّذي كانَ مكتوبًا عليها "السّيّدةُ ذاتُ الرّداءِ الأخضرِ! إنّني أحدُ المُعجبينَ الصّامتينَ، إنّني أراكِ كلَّ يومٍ تعملينَ بنشاطٍ، وأعجبُ بإتقانِكِ العملَ واعتنائِكِ بالأحجارِ، إنّني مُحِبٌّ لها، خصوصًا الجرانيتَ الأحمرَ، وكذلِكَ الأسودَ، وكذلكَ الأحجارَ المشطوفةَ في الأجنابِ، حتّى وإنْ كانَتْ غيرَ مُريحةٍ في أثناءِ السّيرِ عليها، بالرّغمِ من أنّني لا أستطيعُ السّيرَ منذُ عدّةِ أعوامٍ، ولكنّني أرى جيّدًا، حيثُ أسكنُ في الجهةِ الأخرى منَ الشّارعِ. إنّ هذه الأحجارّ تفتقدُكِ مثلي تمامًا، أرجو أنْ تشفَي بسرعةٍ، وتعودي إلى عملِكِ بسرعةٍ، إنَّ عاملَ المجلسِ المحليّ لمْ يَقُمْ بعملِهِ بحبٍّ وإتقانٍ مثلِكِ. معَ

تمنّياتي لكِ بالشّفاءِ العاجلِ."

عندَما قرأتِ العاملةُ الرّسالةَ فرحَتْ بها، وغمرَها شعورٌ مُريحٌ، وراحَتْ تقولُ لنفسِها: مَنْ كانَ يعتقدُ هذا؟ مَنْ كانَ يفكّرُ أنَّ هناكَ أناسًا يُقدّرونَ عملي، ويحترمونَهُ؟! ونهضَتْ من سريرِها، ووضعَتِ الماءَ على (البوتوجاز) كي تصنعَ منه ماءً ساخنًا في قربةِ التّدفئةِ، وكذلك وضعَتْ منه في فنجانٍ كبيرٍ بعضًا منَ الشّاي الطّبّيِّ، ووضعَتْ بهِ ملعقةً منَ العسلِ، وراحَتْ تشربُ الشّايَ، وتستنشقُ نكهتَهُ، وَتُحدّثُ نفسَها قائلةً: إنّني أرقدُ هُنا مريضةً فاقدةَ الرّغبةِ في الحياةِ!! بينَما يوجدُ أناسٌ بجواري يحبّونني، ويقدّرونَ ما أقومُ بهِ من عملٍ، إنّ هذهِ الحياةَ تستحقُّ أنْ أحياها، إنّني لا بُدَّ أنْ أُشفى، كي أعودَ إلى عملي وأصدقائي!!.

ما الّذي فكرت به وأنت تقرأ الفقرة الأخيرة من القصة؟.

علامةُ تعجّبٍ
فاطمة الكعبي

الوقتُ بدا لي كسلحفاةٍ تحبو بكسلٍ، وأنا لم أكفَّ عنِ التّثاؤبِ لحظةً، رغمَ ركَلاتِ جنيني وهوَ يعلنُ تذمّرَهُ، وضَعتُ يدي على بطني، وأنا أتمنّى لو باستطاعتي الاستلقاءُ على ظهري حتّى يحينَ موعدي في صرفِ الدّواءِ.

نظراتُ العجوزِ ذاتِ البرقعِ الأخضرِ اللّامعِ تستفزُّني، يبدو أنّ منظري -هكذا - كاشفةً عن وجهي لا يروقُ لها كثيرًا، خاصّةً وبطني تفصحُ عن كوني متزوّجةً، أدرْتُ وجهي عنها. وما إنْ فعلْتُ حتّى قفزَتْ من مقعدِها بخفّةٍ لا تناسبُ عمرَها، وجلسَتْ بجواري.

منذُ ربعِ ساعةٍ وأنا أنتظرُ دوري.

هكذا، بلا مقدّماتٍ بدأَتِ الحديثَ، وهيَ تحشرُ جسدَها في فراغٍ صغيرٍ بجانبي على الكرسي الخشبيِّ، ثمَّ أردفَتْ تشتمُ إدارةَ المستشفى، وتبدي رأيَها في نظامِ الأرقامِ الجديدِ في الانتظارِ الّذي تراه يؤخّرُ النّاسَ كثيرًا. ساءني رأيُها، وأنا أتخيّلُ نفسي أقفُ لدى شبّاكِ الصّيدليّةِ وسْطَ أكوامٍ منَ النّساءِ بانتظارِ حفنةِ فيتاميناتٍ.

بالعكسِ، أنا أرى أنّ هذا النّظامَ أفضلُ بكثيرٍ، على الأقلِّ لمن مثلِكِ ومثلي ممّنْ لا يقوَيْنَ على الوقوفِ والزّحامِ كثيرًا.

تُبدي تبرّمَها كتعليقٍ، يبدو أنّ طفلي لم يستسغْها مثلي؛ فقدْ عاودَ رفسي ما إنْ سمعَ صوتَها الحادَّ، وهيَ تسألُني أسئلةً كثيرةً، وتزجّني في أحاديثَ فارغةٍ. اكتفيْتُ بردودٍ مقتضبةٍ حتّى بدأتْ تشعرُ أنّ الحديثَ معَ امرأةٍ مكوّرةٍ مثلي بالكادِ تلتقطُ أنفاسَها لن يكونَ ممتعًا، فصمتَتْ عنّي، واكتفَتْ بمراقبةِ النّاسِ المارّينَ من أمامِنا. معَ بعضِ تعليقاتٍ لا تخلو في أغلبِها من تهكُّمٍ.

ـ لو كانَ أبوكَ معَنا!

حدّثْتُ جنيني، وأنا أرى عددًا منَ الرّجالِ يرافقونَ زوجاتِهمْ في فحوصاتِ الحملِ، شعرْتُ بوَحْدةٍ قاسيةٍ تشبهُ اليُتْمَ، وتمنّيْتُ لو يرافقُني مرَّةً في هذه الفحوصاتِ الشّهريّةِ؛ يدخلُ معي إلى غرفةِ الكشفِ، يشاهدُ ابنَه المتكوّمَ في بطني، أو -حتّى- ينتظرُني عندَ

البـابِ بشـغفٍ، ويسـألُني بلهفـةِ الـزّوجِ وحـرصِ الأبِ.

ـ لديكِ السّائقُ... يوصلُكِ أينما تريدينَ.

كانَتِ الصّحيفةُ حائطًا بينَنا، تطالعُني بوقاحةٍ وهيَ بينَ يديهِ.

ـ أنتَ زوجي، وليسَ السّائقُ.

يتأفّـفُ، وتأفّفـاتُ العجـوزِ ونظراتُهـا الّتـي تنهـشُ المـارّةَ تزيـدُ مـن ضيقـي، كمـا تشـعرُني تعليقاتُهـا اللّاذعـةِ بالضّجـرِ.

ـ لا وقتَ لديَّ..

أنـا الّتـي لـديّ مـنَ الوقـتِ تسـعةُ أشـهرٍ أحمـلُ فيهـا ابنَـكَ بيـنَ أحشـائي، لا يهمُّـكَ خلالَهـا سـوى سـؤالٍ واحـدٍ:

ـ ولدٌ أم بنتٌ؟

يداهمُنـي الأسـى كلّمـا حرثْـتُ ذاكرتـي فـي مواقـفَ لا جـدوى منهـا، أحـاولُ إقصـاءَهُ عـن تفكيـري وأنـا أعـاودُ تقليـبَ الورقـةِ الّتـي تحمـلُ رقمـي، وأقارنُهـا بالرّقْـمِ الّـذي كانَ يضـيءُ الشّاشـةَ السّـوداءَ بجانـبِ الصّيدليّـةِ، ولمّـا همْـتُ بالنّهـوضِ أعادتْنـي العجـوزُ بيدِهـا وهـي تشـيرُ:

ـ انظري!

نظـرْتُ إلـى حيـثُ أشـارَتْ، فرأيْـتُ امـرأةً تسـيرُ برفقـةِ زوجِهـا، شـعرْتُ بالغيـرةِ، ولـم أسـتطعْ إبعـادَ نظـري عنهمـا، والعجـوزُ تتمتـمُ بكلمـاتٍ متداخلـةٍ لـم أفهمْهـا، ولكنّـي استشـعرْتُ ضيقَهـا، ظلَّـتْ نظراتُنـا معلقـةً بهمـا حتّـى اختفيـا، فلتَـتْ مـن بيـنِ شـفتَيْ تنهيـدةٌ طويلـةٌ، بينَمـا نفثَـتِ العجـوزُ غيظَهـا فـي برقعِهـا، وعلّقَـتْ عليهمـا بتهكّـمٍ:

ـ (وينْ احنا)؟ في (باريس)!

شـنقتني عبارتُهـا، فحدّقْـتُ فـي تغضّنـاتِ وجهِهـا بدهشـةٍ، قبـلَ أنْ أغادرَهـا بعجـلٍ دونَ أدنـى تعليقٍ.

رأيْتُ النّخلَ*

رضوى عاشور

طالَ الشِّتاءُ فلمْ أَعُدْ قادرةً على الانتظارِ، فلبستُ معطفي القديمَ، وربطْتُ رأسي بمنديلي الصّوفيِّ، ونزلْتُ إلى الشّوارعِ أقطعُها، وأتوقّفُ عندَ الشَّجرِ، أنظرُ، وأتحقّقُ، وعندَما تفشلُ عَينايَ في رؤيةِ شيءٍ على الفروعِ الجافّةِ، أَمدُّ يدي، أجسُّ، وأتحسّسُ، وأحيانًا كانَتْ يدايَ تتوقّفانِ، ويخفق قلبي، ثُمَّ أكتشفُ أنَّ ما وَجَدْتُ ليسَ هو المنشودَ، بلْ مُجرّدَ عقدةٍ على فرعٍ جافٍّ، ولكنّني كُنْتُ واثقةً أنّني سأجدُها، أقصدُ الكرويّاتِ الصّلبةَ الدّقيقةَ الّتي يخدعُكَ لونُها في البدايةِ فتظنُّها لا شيءَ، ولكنّكَ لوْ دَقّقْتَ النّظرَ وجدتَها كرويّةً، وَرمادَها ليسَ رماديًّا، ولا جفافَها جفافًا، وعليكَ أنْ تتابعَها، وتنتظرَها تكبرُ، وتتفتّحُ، وتكشفُ لكَ عنْ أخضرِها الكامنِ.

كُنْتُ أبحثُ عنها عندَما رآني ذلكَ الزّميلُ، فقالَ:

ـ فوزيّةُ، ماذا تفعلينَ في الشّارعِ في هذا البردِ الشّديدِ، كلُّ النّاسِ تلزمُ بيوتَها؟

قُلْتُ:

ـ أبحثُ عن البراعمِ!

فهتفَ:

ـ واللّهِ إنّكِ مجنونةٌ يا فوزيّةُ!

كانَ يمزحُ، أذكرُ بوضوحٍ أنَّ صوتَهُ كانَ ضاحكًا، وأنَّ النّظرةَ في عينيهِ كانَتْ دافئةً وودودةً.

وفي نهايةِ يومٍ قضيْتُهُ أبحثُ، عُدْتُ إلى بيتي خائبةً، أتساءَلُ إلى متى؟ ساعتَها تذكّرْتُ زهرةَ الصّبّارِ الّتي حَمَلَتْها لي عمّتي فاطمةُ من البلدِ، وكنْتُ قد وضعتُها بجوارِ البابِ، ونسيتُها. وعندَما تذكَّرْتُ، قُلْتُ لنفسي: لابُدَّ أنّها ماتَتْ، فأنا لمْ أَسْقِها منذُ عدّةِ شهورٍ، ولكنّني قُمْتُ لأراها. كانَ طينُها قد جفَّ، وتشقّقَ، وأصبحَ في لونِ البُنِّ الأشقرِ، وعودُها يبسَ، واصفرَّ، رغمَ أنّهُ نما، وطالَ، وكانَتْ أوراقُها ذاتُ الحوافِّ الإبريّةِ على حالِها ناهضةً، تتفرّعُ من السّاقِ عريضةً، وتتفتّحُ إلى الأسفلِ رفيعةً وَمُدبّبةً. كانَتْ صبّارةُ عمّتي تستوي

* من مجموعتِها القصصيّةِ "رأيْتُ النّخل"، دار الشروق، مصر.

على سوقِها خضراءَ، رَوَيْتُها.

أَحْبَبْتُ الزّرعَ، وصرْتُ أزرعُ في آنيةٍ مِنْ فخّارٍ، في علبةٍ فارغةٍ، في كوبٍ، في أيِّ شيءٍ يصلحُ للزّرعِ، أملؤُهُ بالطّينِ، وأُثبِّتُ في العُمقِ اللّازمِ نواةَ ثمرةٍ، أوْ فرعًا أخضرَ، وأروي.

أيّامَها، لَمْ يَقُلْ لي أحدٌ إنّني مجنونةٌ، ولكنّهُمْ قالوها بعدَ ذلكَ، يومَ حملوا لي خبرَ وفاةِ ابنِ عمّي:

ـ ماتَ ابنُ عمِّكِ يا فوزيّةُ.

ـ ماتَ؟

فلمّا أكّدوا الخبرَ طلَبْتُ منهم أنْ ينتظروا كي أَصحبَهُمْ لتقديمِ واجبِ العزاءِ. رأَوْني أُقَرفِصُ أمامَهُمْ، وأملأُ علبةً فارغةً بالطّينِ، وأرشقُ فيهِ عودَ ريحانٍ، وأُثبّتُهُ بالضّغطِ المُتكرّرِ بِقَبضتيّ على الطّينِ حتّى يُمسِكَ بالفرعِ تمامًا، ويحتضنَهُ، ويتماسَكَ، ثُمَّ غمرتُهُ بالماءِ، وَقُلْتُ:

ـ الآنَ بإمكانِنا أنْ نذهبَ.

رأَيْتُهُمْ يضربونَ كفًّا بكفٍّ، وسمعتُهُمْ يقولونَ: "جنَّتْ فوزيّةُ، وَعَوضُنا على اللّهِ"، ولَمْ أفهمْ لماذا قالوا ذلكَ؟ واستغرَبْتُ أكثرَ عندَما سمعْتُ أحدَهُمْ يهمسُ: "فوزيّةُ تُقلِّدُ الأغنياءَ الّذينَ يُزيّنونَ بيوتَهُمْ بالنّباتاتِ!"، استغرَبْتُ؛ لأنّهُ مِنْ قريتِنا، وَيعرفُ، فنحنُ فلّاحونَ، صحيحٌ أنَّ النِّساءَ في عائلتِنا الصّعيديّةِ لا يخرُجْنَ إلى الحقولِ للفلاحةِ، ولكنَّ الفلاحةَ هي حياتُهُنَّ الّتي يفتَحْنَ عيونَهُنَّ عليها، وَيغمضْنَ ساعةَ الموتِ عيونَهُنَّ عليها أيضًا. وأنا أذكرُ أنَّ بيتَنا في القريةِ كانَتْ على سطحِهِ نعناعةٌ، وفي قاعِهِ صبّارةٌ، وَبِبابِهِ نخلةٌ. وأذكرُ أنَّ أبي -رحمَهُ اللّهُ- كانَ يقولُ: إنَّ النّخلةَ شَجرةٌ مُباركةٌ، أنعمَ اللّهُ بها على عِبادِهِ، وَكرّمَها بِذِكرِها في القُرآنِ، وإنَّ النّبيَّ - صلواتُ اللّهِ عليهِ- قالَ: "أكرِموا عَمّاتِكُمُ النَّخلَ"[1]، وإنّهُ سمّى النّخلَ عَمّاتِنا؛ لأنّها خُلِقَتْ مِنْ فضلةِ طينةِ آدمَ، وأنّها تُشبِهُ الإنسانَ، خُلِقَتْ مِنْ ذَكرٍ وَأُنثى، طويلةً مُستقيمةَ القَدِّ، وَجمارُها على رأسِها، كعقلِ الإنسانِ في رأسِهِ، إنْ أَصابَهُ سوءٌ هلكَ.

كانَ أبي يوصي أَخَويَّ بالنّخلِ، كما كانَتْ أُمّي توصيني كُلَّ فجرٍ، وهي تُلقي تعليماتِها

1) ورد الحديثُ بعبارةِ "أكرِموا عَمَّتَكُم النَّخلةَ"، وهو حديثٌ ضعيفٌ. (انظر "زاد المعاد"/الجزء الربع/ 4/366).

اليوميّةِ بِكَنْسِ الدّارِ، وإطعامِ الدّجاجِ، وأنْ أسقي النّعناعةَ، وعندَما كُنْتُ أنسى -كُنْتُ دائمًا على عجلةٍ مِنْ أمري، أؤدّي تلكَ الواجباتِ قبلَ الذّهابِ إلى المدرسةِ- كانَتْ تغضبُ، ويعلو صوتُها موبِّخَةً: "حرامٌ عليكِ يا بُنيّتي، هذا فألٌ سيّئٌ، رَبُّنا يمدُّ في عُمرِ أبيكِ، وَيُبقي الدّارَ عمارًا"، ولكنَّ اللّهَ لمْ يمدَّ في عُمرِهِ، ولا في عُمرِها. حتّى أَخَوايَ ذّهبا، فأصبَحْتُ أنا - بعدَ أنْ أَقَمْتُ في القاهرةِ- كالمقطوعةِ مِنْ شجرةٍ، وَبدا أنّني نسيتُ النّعناعةَ والصّبّارةَ والنّخلةَ، وَكُلَّ شيءٍ.

ثُمَّ جاءَتْ عمّتي فاطمةُ لزيارتي، وَضمَّتْني إلى صدرِها، وبكَتْ على خرابِ بيتِنا الّذي انطفأَتْ نارُهُ، وَجفَّتْ صَبّارتُهُ، ثُمَّ كَفكَفَتْ دمعَها، وَتربَّعَتْ على البساطِ الأسيوطيِّ، وَفتحَت السّلّةَ الّتي حَمَلَتْها معها للزّيارةِ. قالَتْ: "أَحضَرْتُ لَكِ رغفانًا خَبَزْتُها، وَتمرًا مِنْ نخلةِ أبيكِ، وَكَسَرْتُ لكِ فرعًا مِنَ الصّبّارةِ الّتي في دارِنا"، ومدَّتْ عمّتي لي يدَها بالصّبّارةِ، وهي تقولُ، والدّموعُ مازالَتْ في عَينيها: "الصّبّارةُ الّتي في دارِنا كَسَرَتْها لي أُمّي مِنْ صَبّارتِها يومَ تَزوّجْتُ، وانتقَلْتُ إلى بيتِ زوجي، هذِهِ إذنْ صبّارةُ جَدَّتِكِ، وجدّةِ جَدَّتِكِ، رَبُّنا يُبارِكُ فيكِ يا فوزيّةُ، يا بُنيّتي، ويحفظُ لكِ الدّارَ عمارًا".

ذَكّرَتْني عمّتي، ولمّا تذكَّرْتُ زَرَعْتُ، فقالَ النّاسُ عنّي: مجنونةٌ.

في العملِ أيضًا، يتهامسونَ وراءَ ظَهري، وذاتَ مرّةٍ، قالَتْ لي زميلتي:

ـ انظري يا فوزيّةُ إلى يديكِ.

فَفَهِمْتُ أنّها تُشيرُ إلى الخطوطِ السّوداءِ تحتَ الأظافرِ، فَقُلْتُ: "هذِهِ ليسَتْ وساخةً، إنّهُ طينٌ مُتخلّفٌ مِنَ الزّرعِ الّذي أزرعُهُ".

قالَتْ لي، وهي تُرَبِّتُ على كَتفي: "لا يليقُ، لا يليقُ أبدًا، وأنتِ موظّفةٌ!".

لا أفهمُ ما الّذي يسيءُ زُملائي عندَما أزرعُ. المكانُ الّذي نعملُ فيهِ مُعتمٌ وقديمٌ، تساقطَ طلاءُ جُدرانِهِ، وَنسجَ العنكبوتُ خيوطَهُ في الزّوايا، وَعشّشَتْ فيهِ الحشراتُ، وأنا واثقةٌ أنّ الفئرانَ لها جحورٌ فيهِ تتركُها في المساءِ واللّيلِ، وتسرحُ بينَ المكاتبِ بلا ضابطٍ، وَكُلَّ يومٍ أحمدُ اللّهَ أنّها لمْ تقرضْ بعدُ أيًّا مِنْ أوراقِ الملفّاتِ الّتي في عُهدتي: الملفّاتُ الرّماديّةُ القديمةُ المصفوفةُ على رفوفٍ خشبيّةٍ مُتآكلةٍ، يصعبُ معرفةُ لونِها الأصليِّ، وحتّى المساحةُ

المُستطيلةُ الّتي أمامَ المبنى، والّتي نُشيرُ إليها بـ "الحديقةِ"يُغطّيها طفحُ المجاري، فلا نستطيعُ دخولَ المبنى أو الخروجَ مِنْهُ إلّا بالسّيرِ الحَذِرِ على خمسةِ أحجارٍ مُتجاورةٍ تُشكِّلُ جسرًا إلى عتبةِ البابِ.

لَمْ أُصَرْ معَ زُملائي، وعندَما وجدْتُ الوضعَ على ما هو عليهِ زَرعْتُ ثلاثَ شجراتٍ من الياسمينِ الهنديِّ، وَتعهّدْتُها، فلمّا نَمَتْ، وتكاثفَتْ أوراقُها حَمَلْتُها إلى المكتبِ، ووضَعْتُها مُتجاورةً في الشُّرفةِ الوحيدةِ الّتي بالمَبنى، ولكنَّ زُملائي لمْ يلتفتوا لجمالِ الياسمينِ حتّى عندَما أزهرَ، معَ أنّهُمْ التفتوا للطّينِ تحتَ أظافري.

في عَملي، لا يفهمونني، ولا في الحيِّ أيضًا. سَمعتُهُمْ بِأُذُني يقولونَ: "فوزيّةُ المجنونةُ الّتي تُلقي بِنَفسِها على نوى التّمرِ كأنّهُ جُنيهاتُ الذّهبِ، وَهُمْ يستغربونَ سلوكي، فالواحدُ منهم يأكلُ البلحةَ، ويلفظُ النّواةَ، يبصقُها مِنْ فمِهِ فتسقطُ بعيدًا، أوْ يبصقُها في يَدِهِ، أوْ يرميها بعدَ ذلكَ بطولِ ذراعِهِ فتسقطُ أبعدَ.. أركضُ لألتقطَها، وَأُخبِّئَها في جيبي العميقةِ، وعندَما أرجعُ إلى البيتِ أضعُها في قطنةٍ مُبلّلةٍ أربعةَ أوْ خمسةَ أيّامٍ، وأتعهّدُها كُلَّ يومٍ، وأُتابعُها وهي تنتفخُ، وتلينُ حتّى ألمسَ بيدي طراوتَها، فأعرفَ أنّ الوقتَ قد حانَ، وبعدَ ذلكَ أدفنُها في الطّينِ، وأغمرُها بالماءِ،.. وأنتظرُ.

كُنْتُ أتمنّى أنْ يكونَ بيتي فسيحًا تُحيطُ بِهِ أرضي، فأزرعُها، وَيُحزنُني أنّهُ يتكوّنُ مِنْ حجرةٍ واحدةٍ، وأنَّ شُرفتَهُ الوحيدةَ ضيّقةٌ إلى هذا الحدِّ، ولا تتّسعُ لكلِّ ما أزرعُ.

في الماضي كُنْتُ أضعُ أُصُصَ الزّرعِ على سورِ الشُّرفةِ، ولكنّني عدَلْتُ عن ذلكَ؛ لأنّ الصِّغارَ العابثينَ كانوا يرمونَها بالحجارةِ. أوّلُ مرّةٍ وجدْتُ أَصيصَ زَرْعٍ مُحطّمًا، والعودُ المزروعُ فيه مكسورًا، ذابلَ الأوراقِ، فكّرْتُ فيهم، ولكنّني قُلْتُ لنفسي: "إنَّ بعضَ الظّنِّ إثمٌ"، فلمّا تكرّرَ الأمرُ تأكّدْتُ، وتأكّدْتُ أكثرَ عندَما أخذَ الصِّغارُ يُضايقونني وأنا عائدةٌ إلى البيتِ، أحملُ صفيحةً أوْ صفيحتينِ من تلكَ الصّفائحِ الكبيرةِ الّتي تُستخدمُ في حفظِ الجبنِ الأبيضِ، أو الزّيتونِ- كانَ العَمُّ متولّي البقّالُ يُعطيها لي لكي أزرعَ فيها - وعندَما وجدَ أنّني لا أشتري مِنْهُ الصّابونَ المُعطّرَ والجبنَ المستوردَ المُغلّفَ بأوراقٍ فضيّةٍ وذهبيّةٍ غضبَ، واستاءَ، ولمْ يَعُدْ يُعطيني الصّفائحَ، ذلكَ رغمَ تأكيدي لَهُ أنّني لا أشتري هذِهِ الأشياءَ، لا مِنْهُ، ولا مِنْ سواهُ؛ لأنّها غاليةٌ، وراتبي قليلٌ، وعندَما كانَ العمُّ متولّي يُعطيني الصّفائِحَ كانَ الأولادُ يمشونَ ورائي، ويزفّونَني، ويقولونَ: المجنونةُ... راجعةُ، وماسكةٌ في يدِها صفيحٌ،

(عقـل مـا فيـش، مَـخ مـا فيـش)، (مُـخ فالصـو، وعقـل صفيـح).

كانَ سـلوكُهُمْ يُحزنُنـي، فأشـعرُ بغصّـةٍ في حلقي، ورغبـةٍ في البُـكاءِ، إلّا أنّنـي لَـمْ أَكُـنْ أبكـي، بَـلْ أنحنـي، وألتقـطُ أوّلَ حجـرٍ في الطّريـقِ، وَأُلقيـهِ عليهـم.

وفـي مَـرّةٍ مِـنَ المـرّاتِ ظهـرَتْ لـي أُمُّ سُـليمانَ المـرأةُ البدينـةُ ذاتُ السِّـنِّ الذّهبـيِّ، واعترضَتْ طريقـي، فَقُلْـتُ لهـا مُعتذرةً:

ـ أنـا آسـفةٌ يـا أُمَّ سُـليمانَ، لَـمْ أقصـد الإسـاءةَ، لكـنَّ سُـليمانَ والأولادَ الآخريـنَ سَـبّوني، وأيضًـا يـا أُمَّ سُـليمانَ بالأمـسِ كسـروا آنيـةَ الـزّرعِ الّتـي وضَعْتُهـا عنـدَ مدخـلِ البيـتِ.

فاجأَتْني ضحكتُها، ولكنّني واصَلْتُ:

ـ أنـتِ أُمَّ سُـليمانَ تقوميـنَ برعايـةِ سُـليمانَ وَحمايتِـهِ أليـسَ كذلـكَ؟ اعتبريـني أنـا أيضًـا أُمًّـا، أنـا أُمُّ الـزّرعِ!

لَعَّبَتْ أُمُّ سُليمانَ حاجِبَيْها، وأخرجَتْ صوتًا مُتحشرجًا مِنْ حلقِها، وقالَتْ:

ـ "مُبروك عليكِ "زرع"يا "أُمّ زرع"تعيشي، وتجيبي!".

وأدارَتْ ظَهرَهـا، وَتركَتْنـي، وهـي تواصِـلُ ضحكاتِهـا العاليـةَ المُخيفـةَ، وَلَـمْ أَجِـدْ مَـنْ أشـكو لَـهُ سـوى "أبويا"الّـذي يعمـلُ أجيـرًا فـي المشـتلِ، ويسـكنُ فـي كـوخٍ خَشـبيٍّ فـي مـكانِ عملِـهِ.

فـي بدايـةِ تعارُفِنـا كُنْـتُ أُناديـهِ بـ "عَـم محمّـد"، وهـو يُناديـني "السّـتّ فوزيّـة"، ولمّـا تآلَفْنـا، صِـرتُ أُسَـمّيهِ "أبويـا محمّـد"، وهـو يُسـمّيني "أُمّ أحمد"نسـبةً إلـى أبـي -رحمَـهُ اللّـهُ- الّـذي كانَ اسـمُهُ "أحمـد".

عندَمـا تضيـقُ بـيَ الدُّنيـا أذهـبُ إليـهِ، وأشـكو، وفـي هـذهِ المـرّةِ شَـكَوْتُ لَـهُ أُمَّ سُـليمانَ، فنصحَنـي أَنْ أَسُـبّها كمـا سَـبّتني.

قُلْـتُ لَـهُ سـأُحاوِلُ، وَعُـدْتُ إلـى بيتـي، ولكنّنـي لَـمْ أَكُـنْ واثقـةً أنّنـي سأسـتطيعُ؛ لأنَّ هـذِهِ المـرأةَ كانَـتْ تُخيفُنـي، إلـى حـدِّ أنّنـي أراهـا فـي أحلامـي تضحـكُ، فتبـدو أسـنانُها طويلـةً، وَمُخيفـةً، وعلـى الأخـصِّ ذلـكَ السِّـنُّ الذَّهبـيُّ اللّامِـعُ، أراهـا تضحـكُ فيكـونُ الحُلـمُ كابوسًـا.

ومعَ ذلكَ فليسَت كُلُّ أحلامي كوابيسَ، عندَما أصفو أرى في الأحلامِ الحقولَ، فتكونُ الأحلامُ جميلةً كالحقولِ،... ومُلوّنةً.

عندَما يكونُ الحقلُ قمحًا أراهُ كالذّهبِ الخالصِ تميلُ بِهِ السّنابلُ، وتنحني، وتموجُ في بَحرٍ مِنْ زَعفرانٍ.

وعندَما يكونُ الحُقلُ ذُرةً، أرى الكيزانَ وقد استوَتْ على عيدانِها، وَسرَتْ في شَواشيها حُمرةٌ خمريّةٌ، فيبدو الحقلُ وهوَ الأخضرُ بُنيًّا أحمرَ كماءِ النِّيلِ في الشّهرِ التّاسعِ، مُثقَلًا بالطّمي قبلَ الفيضانِ.

وعندَما يكونُ الحقلُ حديقةَ بُرتقالٍ، أرى الشّجراتِ صغيرةً وَمُدوّرةً وَمُحمّلةً بالثِّمارِ، ويكونُ البُرتقالُ على أخضرِ الغصونِ بُرتقاليًّا، والشّمسُ كمثلِهِ في الزَّرقاءِ العاليةِ.

مرّةً واحدةً رأيْتُ النّخلَ غابةً في السّحرِ، ولمْ تَكُنِ الشّمسُ قد أشرقَتْ بعدُ، ولكنّها كانَتْ على وَشكٍ، فتخضَّبَ الأُفقُ البنفسجيُّ بلونِ الحِنّاءِ. رأيْتُ النّخلَ مُستقيمَ القَدِّ، شاهِقَ الطّولِ، وَعميمًا، ورأَيْتُ وجوهَ أهلي فيهِ، أبي، وَأُمّي، وَعمّتي، وابنَ عمّي. كانَتْ وجوهُهُمْ خضراءَ شاحبةً بلونِ السّعفِ، ولكنّني لمْ أتحقّقْ إنْ كانوا يقفونَ خلفَ الجذوعِ أَمْ كانَت الجذوعُ خلفَهُمْ.

وَسَمِعْتُ صوتًا رَخيمًا وَدافئًا كأنّهُ صوتُ مُقرئٍ يتلو الآياتِ قبلَ أذانِ الفجرِ، أوْ ساعةَ السَّحَرِ، فَقُلْتُ لِنَفسي: "أنتِ يا فوزيّةُ على الأعتابِ، فَتَهيّئي"، ولكنّني صَحوتُ، وَفتحتُ عَينيَّ فَلَمْ أَجِدْ سوى الصّورةِ المُعَلَّقةِ على الجدارِ القديمِ، فعرَفتُ أنّهُ كانَ حُلمًا، فانسكبَتْ مِنْ عيني دمعةٌ ثُمَّ استجمَعْتُ نفسي، وَقُمْتُ.

اليومَ جاءَتْني امرأةٌ تسكنُ في الشّارعِ نفسِهِ، وقالَتْ: رأيْتُ أُصصَ الزّرعِ في الشُّرفةِ، إنّها جميلةٌ، وَسَأَلَتْني على استحياءٍ أنْ أُعَلِّمَها، فَأَرَيتُها كيفَ، وأهديتُها عودَ نعناعٍ كُنْتُ زرَعْتُهُ، ثُمَّ جلَسْنا، وَتحدَّثْنا.

بم يوحي لك العنوان؟

الحِربَاءُ
أَنْطُوانُ تشيخُوفُ

عَبرَ مَيدانِ السُّوقِ يسيرُ مفتِّشُ الشُّرطةِ أَتْشومِيلوفُ في مِعطفٍ جديدٍ، ويحملُ في يدِهِ لُفَافَةً، ومِنْ خلفهِ يسيرُ شرطيٌّ أحمرُ الشَّعْرِ، ومعه غِربالٌ مملوءٌ لحافَّتهِ بِثمارِ عِنبِ الثَّعلبِ المُصادَرةِ. والسُّكونُ مُخيِّمٌ، ولا أحدَ في السُّوقِ، وتطلُّ أبوابُ المَتاجرِ المَفتوحةُ على العَالمِ بنظرةٍ كَابِيَةٍ كالأشْداقِ الجَائعةِ. ولا يوجدُ بجوارهَا حتَّى الشَّحاذونَ. وفجأةً يَسمعُ أَتْشومِيلوفُ صوتًا يقولُ:

آهْ، إذنْ فأنتَ تَعَضُّ أيُّهَا المتوحّشُ.. أمسكوهُ يا أولادُ! العضُّ الآنَ ممنوعٌ! أمسكْ! آهْ!..

ارصد في هذه الفقرة المبالغات في الوصف.

ويتردَّدُ عَويلُ كَلبٍ. ويلتفتُ أَتْشومِيلوفُ فيرى كَلبًا يركُضُ مِنْ مَخزنِ الحَطبِ التَّابعِ للتَّاجرِ بتشوجين وهو يقفزُ على ثلاثِ أرجلٍ ويتلفَّتُ. ويطاردهُ شخصٌ في قميصٍ من الشِّيتِ المُنَشَّى وصُدَيريٍّ مفتوحٍ. يركضُ وراءَ الكلبِ، ثمَّ يسقطُ على الأرضِ مادًّا جِذعَهُ إلى الأمامِ، ويقبضُ على ساقَي الكلبِ الخلفيَّتينِ، ويتردَّدُ من جديدٍ عَويلُ الكلبِ وصيحتُهُ: "امسكوهُ". وتطلُّ مِنَ المتاجرِ سُحَنٌ ناعسةٌ، وسرعانَ ما يتجمَّعُ النَّاسُ بالقربِ من مخزنِ الحَطبِ، وكأنَّ الأرضَ انشقَّتْ عنهمْ. ويقولُ الشُّرطِيُّ:

يبدو هنا اضطرابٌ يا صاحبَ المعالي!

ارصد المبالغات في هذه الفقرة.

ويستديرُ أَتْشومِيلوفُ نصفَ دورةٍ إلى اليسارِ متَّجهًا إلى الجمعِ، ويرى بجوارِ بوَّابةِ المخزنِ مباشرةً الشَّخصَ المذكورَ في الصُّديريِّ المفتوحِ، وهوَ يرفعُ يدهُ اليمنى؛ ليرى الجمعُ إصبعَهُ المُدماةَ. وكأنَّما كتب على سَحْنَتهِ: "سوفَ أُريكَ أيُّها المتوحّشُ"، وأُصبعُهُ نفسُها تشبهُ علامةَ النَّصرِ. ويتعرَّفُ أَتْشومِيلوفُ في هذا الرَّجُلِ الصَّائغَ خَريوكينَ. وفي وسطِ الجمعِ يجلسُ المُتسبِّبُ في هذهِ الضَّجَّةِ-جروُ صيدٍ أبيضُ ذو أنفٍ حادٍّ وبُقعةٌ صفراءُ على ظهرهِ، مادًّا ساقيهِ

الأماميَّتينِ، وجسدُهُ كلُّهُ يرتعِشُ، وفي عَينَيهِ الدَّامعتَينِ نظرةُ حزنٍ ورعبٍ.

ويسألُ أَتْشومِيلوفُ وهو يقتحمُ الحشدَ:

بأيَّةِ مناسبةٍ أنتمْ هنا؟ لماذا هنا؟ وأنتَ لماذا إصبعُكَ؟.. منِ الَّذي صاحَ؟

ويشرعُ خَريوكينُ في الكلامِ وهوَ يَتَنَحْنَحُ في قَبضتِهِ:

أين تجد المبالغة في كلام خريوكين؟

كنتُ سائرًا يا صاحبَ المعالي لا أمُسُّ أحدًا.. بخصوصِ الحَطبِ معَ ميتري ميتريتش.. وفجأةً إذا بهذا الوغدِ، ودونَ أيِّ سببٍ ينهشُ إصبعي.. أرجو المعذرةَ، فأنا رجلٌ، يعني، من العامليـنَ.. وعملي دقيقٌ.. فليدفعوا لي؛ لأنِّي ربَّما لا أستطيعُ أنْ أحرِّكَ هذهِ الإصبعَ أسبوعًا.. ولا يوجدُ في القانونِ يا صاحبَ المعالي ما يَنصُّ على أنْ يتحمَّل الإنسانُ هذهِ المخلوقاتِ.. فلو أنَّ كلَّ واحدٍ أخذَ يعضُّ، فالأفضلُ ألَّا يعيشَ الإنسانُ على ظهرِ الأرضِ.

فيقولُ أَتْشومِيلوفُ بصرامةٍ وهوَ يسعلُ ويحرِّكُ حاجبَيهِ:

أين تجد المبالغة في حركات أتشوميلوف وكلامه؟

هَمْ! حسنًا..حسنًا.. كلبُ مَنْ هذا؟ أنا لن أدعَ ذلكَ هكذا! سأريكمْ كيفَ تُطلقونَ كلابَكم! آنَ أنْ أنتبهَ إلى أولئكَ السَّادةِ الَّذينَ لا يُريدونَ أن يمتثلوا للقوانينِ! عندَما يدفعُ الغرامةَ سيعرفُ ما معنى الكلابِ وغيرِها من الدَّوابِّ الضَّالَّةِ! سأريهِ العفاريتَ الزُّرقَ!

ويُخاطبُ الشُّرطيَّ يلديرينَ:

اعرفْ كلبَ مَنْ هذا، واكتبْ محضرًا! أمَّا الكلبُ فينبغي إعدامُهُ فورًا! لا بُدَّ أنَّهُ مسعورٌ.. إنَّني أسألُكمْ: كلبُ منْ هذا؟

ويقولُ شخصٌ من الجَمعِ:

ما دلائلُ ارتباكِ أتشوميلوفُ؟ وما دلائل تلوّن موقفه؟

يبدو أنَّهُ كلبُ الجنرالِ جيجالوفُ!

الجنرالُ جيجالوفُ؟ هَمْ!! انزعْ عنِّي المِعطفَ يا يلديرين.. أُفٍّ، يا لَلحرِّ!

يبدو أنَّ المطرَ سيسقطُ.. شيءٌ واحدٌ لا أفهمهُ، كيف استطاعَ أنْ يَعضَّكَ-يقولُ مخاطبًا خريوكينَ-أمِنَ المعقولِ أنَّهُ يطالُ إصبعكَ؟ إنَّهُ صغيرٌ! أمَّا أنتَ فانظرْ ما طولُكَ! يبدو أنَّكَ جرحتَ إصبعَكَ بمسمارٍ، وخطرتْ لكَ فكرةُ أنْ تحصلَ على تعويضٍ.. أنتمْ هكذا.. أعرفُكمْ أيُّها الشَّياطينُ!

مَنْ قائلُ هذهِ العبارةِ؟

يا صاحبَ المعالي، كانَ يلسعُهُ بالسّيجارةِ في بوزِهِ ليضحَكَ عليهِ، فلمْ يُكذِّبِ الكلبُ خبرًا وعضَّهُ.. إنَّهُ شخصٌ مشاكسٌ يا صاحبَ المعالي!

أنتَ لم ترَ شيئًا، فلماذا تكذبُ؟ إنَّ معاليَهُ سيِّدٌ ذكيٌّ، ويعرفُ مَنِ الكذَّابُ، ومَنِ الشَّريفُ النَّقيُّ الضَّميرِ أمامَ اللّهِ.. وإذا كنتُ أكذبُ فليحكُمِ القاضي.. فلديهِ مكتوبٌ في القوانينِ.. الجميعُ الآنَ سواسيةٌ.. وأنا لي أخٌ في الدَّركِ إذا أردتَ أنْ تعلمَ..

ممنوعٌ الكلامُ!

ويقولُ الشُّرطيُّ بنبرةِ تأمُّلٍ عميقٍ:

كلَّا، هذا ليسَ كلبَ الجنرالِ. ليسَ لدَى الجنرالِ كلابٌ كهذهِ.. كلابُهُ أكثرُها سلوقيَّةٌ..

هل أنتَ متأكِّدٌ؟

متأكِّدٌ يا صاحبَ المعالي..

أين تجد المبالغات في كلام أتشيمولوف؟ ماذا يعكس ذلك؟

أنا نفسي أعرفُ ذلكَ.. كلابُ الجنرالِ غاليةٌ، أصيلةٌ، أمَّا هذا.. فالشَّيطانُ يعلمُ ما هوَ! لا شَعرَ، ولا هيئةَ.. مجرَّدُ حقارةٍ لا غيرَ. أهذا كلبٌ يُقتنى؟! أينَ عقولُكمْ؟ لو أنَّ كلبًا كهذا ظهر في بطرسبرجِ أو موسكو، أتعلمونَ ماذا كانَ يحدثُ؟ ما كانَ أحدٌ لِيلتفتَ إلى القانونِ، بلْ على الفورِ.. ولا كلمةَ! هس! أنتَ يا خريوكينُ قد تضرَّرتَ، ولا تدعِ الأمرَ يمرُّ هكذا.. ينبغي أنْ نؤدِّبَهمْ.. آنَ الأوانُ!

ويقولُ الشُّرطيُّ وهوَ يفكِّرُ بصوتٍ مسموعٍ:

وربَّما كانَ كلبَ الجنرالِ.. فليسَ مكتوبًا على سَحنتِهِ.. رأيتُ منْ مدَّةٍ كلبًا مثلَهُ في فِناءِ منزلِهِ.

ويقولُ صوتٌ منَ الحشدِ.

واضحٌ!.. كلبُ الجنرالِ.

الكلام هنا كله مبالغات، ارصدها.

هَمَّ! ألبسْنِي المِعطَفَ يا يلديرينَ.. يبدو أن النَّسيمَ يَهُبُّ.. لقدْ بردتُ.. احملْهُ إلى الجنرالِ، واسألْ هناكَ.. قلْ لهمْ أيضًا ألَّا يُخرجوهُ إلى الشَّارعِ.. فهوَ كلبٌ غالٍ، وإذا أخذَ كلُّ خنزيرٍ يلسعُهُ بالسّيجارةِ في وجههِ فمنَ السَّهلِ إتلافُهُ.. الكلبُ حيوانٌ مهمٌّ.. وأنتَ أيُّها المذنبُ أنزلْ ذراعَكَ! كفاكَ إبرازًا لإصبعِكَ الحمقاءِ! أنتَ المُذنبُ!

ها هوَ ذا طبَّاخُ الجنرالِ قادِمٌ، فلْنسألْهُ.. إي، يا بروخورُ..تعالَ هنا يا عزيزي.. انظرْ..انظرْ إلى الكلبِ..أهوَ كلبُكمْ؟

يا سلام! لمْ يكنْ لدينَا أبدًا كلابٌ مثلُهُ! فيقولُ أَتْشومِيلوفُ:

ليسَ هناكَ داعٍ للسُّؤالِ.. هذا كلبٌ ضالٌّ! لا داعيَ للكلامِ كثيرًا.. إذا قلتُ إنَّهُ ضالٌّ فهو ضالٌّ.. ينبغي إعدامُهُ وكَفى.

واستطردَ الطَّبَّاخُ:

ليسَ كلبَنا.. إنَّهُ كلبُ شقيقِ الجنرالِ الَّذي وصلَ منْ مدَّةٍ. جنرالُنا لا يحبُّ كلابَ الصَّيدِ. أمَّا أخوهُ فيحبُّها.

ويسألُ أَتْشومِيلوفُ، ويفيضُ وجهُهُ بابتسامةِ تأثُّرٍ:

هل تتخيل المشهد هنا؟ ما الّذي يجعلك تفكر فيه؟

أحقًّا وصلَ شقيقُ الجنرالِ؟ فلاديميرُ إيفانتش؟ آهٍ يا ربِّي! وأنا لا أعلمُ! هلْ جاءَ للزِّيارةِ؟

للزِّيارةِ..

آهٍ يـا ربِّي..أوحشَـهُ شـقيقُهُ.. وأنـا لا أعلـمُ؟ إذنْ فهـذا كلبُـهُ؟.. سـعيدٌ جـدًّا.. خُـذْهُ.. يـا لـهُ مـنْ كلـبٍ! شـقيٍّ.. هبـشَ هـذا مـنْ إِصْبَعِـهِ.. هـا.. هـا.. هـا..

مالكَ ترتعِشُ؟ أَوّهْ إنَّهُ غاضبٌ هذا الماكِرُ.. يا لكَ من صغيرٍ!

ويدعـو بروخـورُ الكلـبَ، ويمضـي معَـهُ مبتعـدًا عـن مخـزنِ الحَطَـبِ.. ويُقهقـهُ الجَمْـعُ سُـخريةً بخريوكيـن.

ويقولُ لهُ أَتْشومِيلوفُ متوعِّدًا:

مهلًا، سوفَ أفرغُ لكَ!

ويمضي في طريقِهِ عبرَ ميدانِ السُّوقِ متدثِّرًا بالمِعطَفِ.

مَا لَنْ يأتي عَبرَ النَّافِذةِ
جوخَةُ الحارثيُّ

ما الّذي لن يأتي عبرَ النّافذةِ في رأيك؟

عَصْرُ هذا اليومِ، كَعَصْرِ كُلِّ يومٍ، مُستلقيةٌ أنا على سَريري وحولي دفاترُ تلميذاتي، في الرَّفِّ على يميني النَّظَّارةُ والقلمُ الأحمرُ وكوبُ الشَّاي السَّادةُ، أرتَاحُ مِنَ التَّصحيحِ، وأَرمي رأسي على الوِسَادةِ، وأحَدِّقُ في السَّقْفِ.

ما دلالةُ إشارةِ بطلةِ القِصَّةِ إلى الزَّمنِ بقولِها: إنَّه كعصرِ كُلِّ يومٍ؟

مِنْ نافِذَتي الكَبيرةِ والوحيدةِ تدخلُ شمسُ الأصيلِ مُتكسِّرَةً بأشكالٍ مُربَّعَةٍ، وتدخُلُ -ككُلِّ عَصْرٍ- أصواتُ احتكاكِ عَجلاتِ الدَّراجَةِ الثَّلاثِ (بالأنترلوك) في الحوشِ، وصِياحُ أَخي الصَّغيرِ فَرحًا بِقَفَزاتِ الدَّراجَةِ الجديدةِ، وبينَ الفينَةِ والأُخرى تدخُلُ تَحذيراتُ أُمِّي لَهُ مِنْ نافِذتي أَيْضًا: "ملابسَكَ.. يديكَ.. ركبتَكَ.. انتبهْ.. لا تَتَّسِخْ.. لا تّدْعَسِ التَّمْرَ.. لا تَنْقَلِبْ.."تَدْخُلُ أصْواتٌ أُخرى غامضةٌ، متقطِّعةٌ، خافتَةٌ، مَشروخةٌ، لا تأتي منَ النَّافِذَةِ. تتحرَّكُ السِّتَارةُ بِنَسائمَ بليلةٍ، فَأُقلِّبُ الدَّفاتِرَ بكَسلٍ، وَتُنبتُ تدويراتُ الحروفِ في عَينَيَّ خُطوطًا مُضجرةً، غيرَ أنَّها قريبةٌ قُربَ الأُلفةِ.

ما مَصْدَرُ الأصواتِ الأُخْرَى الَّتي ذكرتْهَا بطلةُ القِصَّة؟

يدخلُ مِنَ النّافذةِ صوتُ أُمِّي وهي تُدندِنُ أُغنيةً قديمةً، يتقطّعُ الصوّتُ فأخمِّنُ أَنَّها مُنحنيةٌ على صَواني التَّمرِ، تصفُّ الرُّطَبَ للشَّمْسِ، وتدخلُ اليابسَ المخزنَ، تصلُ بعضُ حروفِ الأغنيةِ مطحونةً، فأتصوَّرُ تمرةً في فَمِ أُمِّي تُخالِطُ الحروفَ، أرشفُ الشّايَ الّذي بردَ الآنَ، أُفَكِّرُ في تلميذتي "سلوى "الّتي ماتَ أخوها الرّضيعُ ملدوغًا مِنْ يومينِ، أَتخيّلُ انحناءَةَ رَقبتِها المُطوّقةِ بتعويذةٍ وهي تُطْرِقُ واجمةً، أمنحُها علامةً مرتفعةً.. "فوووب.. فووووب..". يبدو أَنَّ أخي أكملَ عدّةَ دوراتٍ حولَ حَوْشِ بيتِنا الواسعِ، وَيُحاولُ الآنَ إيهامَ أُمِّي بأَنَّهُ سيمرُّ على صَواني التَّمْرِ بدرَّاجَتِهِ، "انتبهْ.. يا ولدُ!.."أضحكُ في سِرّي لهذِهِ المُناوَرَةِ اليوميّةِ، وأَهُمُّ بالخُروجِ مَعَهُما بدلَ التَّململِ في غُرفتي، أحمِلُ كوبَ الشّايِ الفارغَ، وأقفلُ البابَ بالمفتاحِ خَوْفًا مِنْ هجومِ أخي المُباغتِ، أَسيرُ في المَمرِّ الفاصلِ بينَ غُرفتي والصّالةِ المُطلّةِ على الحوشِ، أَقرأُ -رغمًا عنّي- الحكمةَ الّتي عَلَّقَتْها أُمِّي في المَمَرِّ: "احذرِ الكريمَ إذا أَهَنْتَهُ، واحذرِ

كيفَ تَصِفُ العَلاقَةَ الأسريَّةَ الَّتي كانتْ سائدَةً في بيتِ بطلةِ القصَّةِ؟

اللّئيـمَ إذا أَكْرَمْتَـهُ" كُلَّمـاتٌ قَرَأْتُهـا.. تَخَيَّلْـتُ البشـرَ يقفـونَ فـي طابورَيْـنِ: كُرَمـاءَ وَلئـامٍ، فأيـنَ سـيقفُ الأطفـالُ حينَهـا؟

المَمَـرُّ طويـلٌ، دائمًـا أقـولُ لأُمّـي: إنّـي لا أفهـمُ تصميـمَ بَيْتِنـا الغَريـبَ، فـي آخـرِ الممـرِّ كانَ بـابُ غُرفـةِ أُختـي مَفتوحًـا على غيـرِ العـادةِ، ألقيْـتُ نظـرةً سـريعةً على الدّاخـلِ مُحاوِلـةً ألّا أتوقَّـفَ، غيـرَ أَنَّ أُختـي كانَـتْ بمواجهتـي تمامًـا، وأشـارَتْ مُباشـرةً إلى كـوبِ الشّـايِ، قَلَبْتُـهُ فـي الصَّحْـنِ لأُريَهـا أَنَّـهُ فـارِغٌ، فَظَلَّـتْ تُشـيرُ إليـهِ وهـي تزحـفُ باتّجاهـي، صِحْـتُ فيهـا: "إِنَّـهُ فـارِغٌ.. فـارِغٌ"، اقتربَتْ من البـاب حَيْثُ أَقِـفُ، فَأَوْمَـأْتُ لَهـا برأسـي، وَذَهبْـتُ إلـى المطبـخِ لأملأَهُ بالشّـايِ، حيـنَ لَمَحَتْنـي عائـدةً كَـوَّرَتْ جَسَـدَها بسـرعةٍ، مَـدَّتْ رقبتَهـا وَظَهْرَهـا إلـى الأَمـامِ، وَهـي تَسـتندُ بكفّيهـا حَتّـى تمكَّنَـتْ مِـنَ الجلوسِ، فضحكَـتْ بصـوتٍ خَشـنٍ، وَمَـدَّتْ إِليَّ يَدَيْهـا المُرتجفتَيـنِ، ناوَلْتُهـا الكـوبَ فرفَعتْـهُ بحركـةٍ خرقـاءَ إلـى فَمِهـا، أصابِعُهـا جافَّـةٌ يـكادُ جلدُهـا يَتَقَشَّـرُ، وأظافرُهـا طويلـةٌ شـاحبةٌ، أزاحَـتِ الكـوبَ، وأخـذَتْ تنظُـر إليَّ وهـي تُهمهـمُ بصـوتٍ مَشـروخٍ: "آآآ.."،تَذكَّـرْتُ أنَّ الشّـايَ بـلا سُـكَّرٍ، فـي المطبـخِ وَأنـا أُقَلِّبُـهُ بالملعقـةِ تَذَكَّـرْتُ أَنَّهـا تَصغرُنـي بسـنتينِ فقـط، عُـدتُ إليهـا فجثَـوْتُ على رُكبتـي بمواجهَتِهـا، أَسـقيتُها إيّـاهُ، فَضَحكَـتْ، ظَلَّـتْ أَسـنانُها ترتطـمُ بحافّـةِ الكـوبِ، وحيـنَ سـالَ بَعْضُـهُ مِـنْ جَانِبَـيْ فَمِهـا مَسَـحْتُهُ بِكُمِّـي، فاهتـزَّ جَسَـدُها فـي حركـةٍ لا إراديّـةٍ، ومالَـتْ بجذعِهـا إلـى اليميـنِ حتّـى انبطحَـتْ، وانطلـقَ لِسـانُها بالأَصـواتِ السّـعيدةِ: "تـع.. تع..تـع.. تـع.."، أرقـدْتُ رأسَـها فـي حِجـري، قدماهـا الصّغيرتـانِ انخرطَتا في موجـةٍ تشـنّجيّةٍ، تقلَّصَـتْ عَضلاتُ وَجْهِها ولـم تُزحـزِحْ عَيْنَيْهـا البُنّيّتيـنِ عَـنْ وَجهـي، مَسَّـدْتُ شـعرَها المحلـوقَ فتسـاقَطَتِ القِشْـرةُ على رُكبتـي، إصبعـي مَـرَّ على خَدِّهـا الشّـديدِ النُّعومـةِ، وَجهُهـا جَديـدٌ، جَديـدٌ تمامًـا، خَدّاهـا قَـدْ شـحبَا، وَعيناهـا تَغَيَّـرَتْ نظرتُهُمـا، وأحاطَتْهُمـا الهـالاتُ الدّاكنـةُ، لقـد كَبُـرَتْ، مُنْـذُ سِـنينَ لـم أتفـرّسْ فيهـا، مُنْـذُ سِـنينَ أَتجنَّـبُ الدُّخـولَ فـي الغُرفـةِ الّتـي فـي آخـرِ الممـرِّ، أَقِـفُ على البـاب هاتفـةً: "صبـاحَ الخيـرِ رجـاءُ"أَوْ "مسـاءَ الخيـرِ رجـاءُ"، دونَ أَنْ أنظُـرَ، لَعَلَّهـا فـي أحيـانٍ كَثيـرةٍ لَـمْ تَكُـنْ بالغُرفَـةِ، لعـلَّ أُمّـي تُحَمِّمُهـا فـي المسـبحِ أَوْ تُقعدُهـا أمـامَ التِّلفـازِ فـي الصَّالَـةِ، لَـمْ أَرَ رجـاءَ منـذُ سـنواتٍ، وَوَجْهُهـا جَديـدٌ،

ما الّذي يشيرُ إليه قولُ الشخصيةِ "محاولةً ألا أتوقفَ؟"

عَلامَ يَدُلُّ إدْراكُ بطَلَةِ القِصَّةِ أنَّ ملامِحَ أُخْتِها قدْ تَغَيَّرتْ كثيرًا؟

تغيَّـرَتْ مَلامِحُـه، وَجِسْـمُها طـالَ وَنَحُـفَ، نظـرَتْ إِلـيَّ رجـاءُ بِتَمَعُّـنٍ، لَـمْ تُزَحْـزِحْ عَيْنَيْهـا، سَـكَتَتْ، مَـدَّتْ ذراعَيْهـا المرتجفتيـنِ لِتُطَـوِّقَ رَقبتـي، فَبكيْـتُ، لَـمْ يَكُـنْ عَصْـرُ هـذا اليـومِ كَعَصْـرِ كُلِّ يَـوْمٍ.

طفلٌ وكلبٌ، ذاتَ ليلٍ

آماليا رندايك*

• بعدَ أنْ تقرأَ تعريفَ "النّغمةِ في القصّةِ القصيرةِ"في كتابِ الأنشـطةِ، اقرأْ قصّةَ "طفلٌ وكلبٌ ذاتَ ليلٍ"للكاتبةِ آماليا رندايك، قراءةً أولى، ثمَّ اقرأْها قراءةً ثانيةً، وسجِّلْ على هامشَي النّصِّ الانطباعاتِ والمشاعرَ الّتي خلقَتْها الكلماتُ والجملُ والصّورُ المظلّلةُ بالرّماديِّ. من مجموعِها يمكنُ لكَ أنْ تسـتنتجَ النّغمةَ السّـائدةَ في القصّةِ. وهلْ هيَ ثابتةٌ أمْ متغيّرةٌ، و يمكنُكَ أنْ تتبعَ خطَّها، وانعطافاتِها.

تراجعتِ الشّمسُ بأَشعّتِها الذّهبيّةِ وخبَت. تمكّنَ ضَوءُ مصابيحِ الشّارعِ الخافتُ بصعوبةٍ مـنْ أنْ يكبـحَ الظّـلامَ والضّبـابَ، اللّذيـنِ غزَيـا كلَّ معسـكرِ المَنجـمِ. وكانَـتْ مجموعـةٌ مـن الرّجـالِ مُكونـةً مـن دقّاقـي الرّكائـزِ؛ ميكانيكييـنَ أو عُمّـالٍ، وزارعِـي ألغـامٍ، عائـدةً إلـى بيوتِهـا، خـلالَ رحلةٍ بطيئـةٍ صامتـةٍ؛ لصعوبـةِ التّنفّـسِ بسـببِ الهـواءِ والفتيـلِ؛ لأنّ منجـمَ (شـكيكا ماتـا) كانَ يقـعُ علـى ارتفـاعِ أكثـرَ مـن ألفيـنِ وخمسـمئةِ مترٍ فـوقَ سـطحِ البحـرِ.

أصبحـتِ المجموعـةُ مجـاورةً (لبنكروفـت) السّـكنيّةِ، وبـدَأَتْ تتفـرّقُ وَفْـقَ اتّجاهـاتِ شـوارعِ عمّـالِ المعسـكرِ المختلفـةِ. وكانَ يمكـنُ رؤيـةُ أضـواءِ البيـوتِ منسـابةً مـن النّوافـذِ والأبـوابِ نصـفِ المفتوحـةِ. اسـتمرَّ العامـلُ جـوانُ لابـرا، الّـذي كانَ ميكانيكيًّـا قويًّـا وصديقًـا مخلصًـا، فـي السّـيرِ عبـرَ واحـدٍ مـن شَـوارعَ عديـدةٍ ضيّقـةٍ، ماتـزالُ تتـردّدُ فيهَـا أصـداءُ صفّـاراتٍ حـادّةٍ و(سـارينات) مناطـقِ العمـلِ.

وسـرعانَ مـا تلاشَـتِ التّجعُّـداتُ مـن وجـهِ لابـرا الشّـابِّ، الّـذِي تَغضَّـنَ بتجعّـداتٍ عميقـةٍ مثـلِ عُـروقِ المَعْـدنِ الْخَـامِ، وَمـلَأَتْ عَيْنَيْـهِ دُفقـةٌ ورقّـةٌ، بعـدَ أَنْ تَقَبّـلَ بحَفَـاوةٍ اسـتقبالَ أُسْـرَتِهِ الْمُحِبّـةِ، فَقَـدْ كانَ جُـوانُ الصّغِيـرُ يقـفُ علـى بـابِ البيـتِ كَمـا اعْتـادَ أَنْ يفْعَـلَ كُلَّ يَـومٍ مِـنْ فَتْـرةِ المْسَـاءِ.

كانَ ولـدًا، عُمْـرُهُ تسـعُ سَـنَواتٍ، بِعَينيـنِ حَيّتَيْـنِ فُضُوليَّتَيـنِ، قويًّـا تمامًـا بالنّسـبَةِ لِعُمْـرِهِ، وبقَدمَيـنِ محبَّتيـنِ للمشـيِ. لـمْ يمثّـلِ المنجَـمُ أيّـةَ أسـرارٍ لـهُ؛ فقـد كانَ يعـرِفُ كلَّ بوصـةٍ منـهُ، وكلَّ مـا غَمـضَ مـن أمـرِه. كمـا كانَ طفـلًا كثيـرَ الـكلامِ، ولـمْ تكُـنْ ثرثرتُـهُ تُقاطَـعُ إلّا بالابتسـامِ. الآنَ راحَ الطفـلُ يراقـبُ بفضـولٍ، وبوجهـهِ الضّاغِـطِ علـى بوابـةِ الحديقـةِ الحديديَّـةِ أمريكيًّـا شـماليًّا طويـلًا جِـدًّا يمشـي وراءَ أبيـهِ. همـسَ لأبيـهِ خائفًـا: "أبـي، هنـاكَ جرينجـو يتبعُـكَ، إنّـهُ قـادِمٌ إلـى

* آماليا رندايك: كاتبة من التشيلي.

بيتِنـا!".

كانَ الشَّـارِعُ مهجـورًا، وكانَ جـوانُ الصّغيـرُ مسـتثارًا بحضـورِ بـلاكَ، كلـبِ الرّاعـي الضّخـمِ، الّـذي يتبـعُ سيّدَهُ السّـيّدَ ديفيـزَ. كانَ بـلاكُ واحِـدًا مـن أشـياءَ قليلـةٍ قُـدِّرَ لهـا أن تلـجَ إلى مشـاعر ديفيـزَ، كرفيـقٍ فريـدٍ لوجـودٍ متوحّـدٍ على أرضٍ أجنبيّـةٍ.

"تقـدّمْ، مـن فضلِكَ، يـا سـيِّدُ ديفيـزُ. مـاذا يمكننِـي أنْ أفعـلَ مـن أجلِكَ؟"قـالَ عامـلُ المنجـمِ جـوانُ لابـرا باحتـرامٍ نازِعًـا خوذتَـهُ المعدنيّـةَ، وفاتحًـا بـابَ بوّابـةِ البيـتِ الصّغيـرِ، بعـدَ أنْ تمكّـنَ بصعوبـةٍ مـن إخفـاءِ دهشَـتِهِ لرؤيـةِ أحـدِ مُـلّاكِ الشّـركةِ عنـدَ بابِـه.

"سـوفَ أكـونُ مختصِـرًا، يـا سـيّدُ لابـرا. إنّنـي أحتـاجُ معروفًـا كبيـرًا منـكَ؛ لأنّنـي يجـبُ أنْ أغـادرَ حـالًا إلـى أنتوفاجاسـتا، وأنْ أتـركَ فـي كـرمِ ضيافتِـكَ لعـدّةِ أيـامٍ صديقـي العزيـزَ بـلاك. سـتكونُ رؤومًـا لأنّـكَ فـي "كالما"نظّمْـتَ جماعـةً لحمايـةِ الحيوانـاتِ، وكلُّ فـردٍ يعـرفُ ذلـك"- قـال مسـتر ديفيـز، وهـو ينظـرُ إلـى كلبِـه.

"هـذا حسـنٌ. يـا سـيّدُ ديفيـزُ، وأشـكرُكَ على ثقتِـكَ بي. سـيكونُ الكلـبُ سـعيدًا هنا، وسـأتأكّدُ دائمًـا مـن أنّـهُ لا يعانـي، ولسـوفَ يعتنـي بـه ابنِـي فـي غيابـي، جـوانُ الصّغيرُ"-هكـذَا وعـدَ لابـرا السّـيِّدَ، وهـوَ يُعَـدّلُ مـن وضعِ جاكتتِـهِ، شـاعِرًا برضًـا داخلِـيٍّ غريـبٍ.

"سـأترُكهُ بيـنَ يديـكَ، وأشـكُرُكَ كثيـرًا. أراكَ قريبًـا يـا سـيّدُ لابـرا، سـأعودُ سـريعًا جـدًّا. بـلاك.. آهِ، لقـدْ نسِـيتُ، سـأتركُ هنـا مخصّصاتِـهِ مـن لحـومٍ معلّبـةٍ.إنّهـا طعامُـهُ المُفَضّـلُ".

بـدَا السّـيّدُ وكلبُـهُ حزينَيـنِ. تمسَّـحَ بـلاك فـي بنطَـالِ سـيّدِهِ، وانحنـى ديفيـز ليُرَبِّـتَ على رأسِ الكلـبِ بخطمـهِ البـارزِ، ثـم غـادرَ الـدّارَ، فبـدأَ الكلـبُ يتبعُـهُ، لكـنّ ذراعَـي جـوانَ الصّغيـرَ قيّدتـاهُ كسلسـلتينِ. نبـحَ بـلاك مُتَرَنّحًـا، وهـو يتنشّـقُ الهـواءَ، وكانَ لسـانهُ الأحمـرُ المبتـلُّ متدليًـا مـن فمـهِ، وهـوَ يلهـثُ قلِقًـا. أغلـقَ الولـدُ البوّابـةَ. وقـفَ بـلاكُ منتصبًـا، شـاعرًا بالوَحـدةِ. كانَ فِـراؤهُ المُتَألّـقُ حولَـه، واحتمالُـهُ الرّزيـنُ لمـا يحـدثُ، كلُّهـا دلائـلُ على أصـلٍ كريـمٍ؛ فقـدْ كان كلبًـا ثمينًـا، فـازَ فـي عـددٍ مـن عـروضِ الـكلابِ بفضـلِ هـذا الأصـلِ.

بـدأَ الولـدُ يتحَـدّثُ مـعَ الكلـبِ كأخٍ أصغـرَ، ولفتـرةٍ طويلـةٍ راقـبَ كلٌّ منهمـا الآخـرَ، دونَ أن تطـرَفَ أعينُهمـا. كانـتْ حَمْلَقَـةُ الكلـبِ رزينـةً، بينَمـا انعكـسَ وجـهُ الولـدِ على عينيـهِ مثـلَ نقـاطٍ

مضيئةٍ بالغةِ الصِّغَرِ. ربّتَ الوَلَدُ بخفَّةٍ على ظهرِ الكلبِ، الّذي كان يتنشّقُ الهواءَ، ومجيبًا أخيرًا بحركةٍ ممانعةٍ من ذيلهِ.

استمرّ جوانُ الصّغيرُ في حوارِهِ الذّاتيّ معَ بلاكَ. بدأَ كلٌّ منهما يَغْرَمُ بالآخرِ. ثمّ تفتّحَ يومٌ جديدٌ حينَ جاءَ الفجرُ عبرَ الظّلامِ وساعاتِ ضبابِ اللّيلِ، وبزَغَ كالمُعتادِ من بينِ رابيتينِ ضخمَتينِ تكوّنانِ بركانَي (سان بيدرو) و(سان بابلو)، فبدا كلُّ شيءٍ مبتلًّا باللّونِ الأزرقِ.

صحا بلاكُ على صوتِ أوّلِ صافرةٍ في فِناءِ منزلِ العُمّالِ، وراقبَ حركةَ عُمّالِ المناجمِ، وبدا كما لو أنّ شيئًا عظيمًا قدِ استيقظَ في قلبهِ أيضًا، فردّ على هذهِ الانطباعاتِ بنُباحٍ بدا كانْفجاراتٍ. وكانَ أوّلُ ما فعلهُ جوانُ الصّغيرُ، في عالمهِ المدهشِ، هو أنْ خرجَ ليرى صديقَهُ الجديدَ. وخلالَ الأيامِ التاليةِ، ذهبَا سويّةً إلى كلِّ مكانٍ؛ تحدّيا الرّياحَ، ركضًا عبرَ زمامِ أرضٍ شديدةِ الرّياحِ، كانَ هوَ الطّريقَ إلى كالاما، مخترقَينِ دونَ تعبٍ، الاتّساعَ الهائلَ للهواءِ الضّئيلِ.

لعِبا معًا، غاصا في حفرةِ بقايا رماديّةِ اللّون لمنجمِ رصاصٍ، كانَتْ دونَ شكلٍ، كتلةٌ مهيبةٌ من أرضٍ معدنيّةٍ. كما حاولا أنْ يجمعا الانعكاساتِ المتألّقةَ للأخضرِ المزرقِّ والأصفرِ، الّتي تصنعُ ألوانًا براقةً في ضوءِ الشّمسِ.

وهكذا، أمضيا ساعاتٍ طويلةً حتّى ربطَتِ اللّيالي بينَ جوانَ الصّغيرِ وبلاكَ بروابطِ صداقةٍ، سرعانَ ما أصبحَتْ أقوى وأقوى. لكنّ سحبَ قلقٍ متناميةً ظلّلتْ سعادةَ الولدِ الحيّةَ القصيرةَ، فقد كانَ يخشى اليومَ الّذي سينتهي فيهِ وجودُهُما معًا، لأنه كانَ متأكدًا أنَّ السّيّدَ ديفيز سيعودُ ثانيةً.

"بابا، ألا يمكِنُكَ أنْ تطلُبَ منَ السّيّدِ أنْ يعطيَنا بلاك؟ ولماذا لايمكنُكَ شراؤُه؟"

"لا، ياصغيري جوانُ، إنَّ الكلبَ لنْ يكونَ لنا أبدًا. إنّهُ كلبٌ ممتازٌ، يساوي وزنَه ذهبًا. إنّهُ كلبُ رجلٍ غنيٍّ، يحبُّ الجرينجو أن يمشوا معَ كلابٍ مثلِ هذا الكلبِ، كما أنّهم يقدّمونهم في عروضِ الكلابِ"- أجابَ العاملُ بابتسامةٍ مريرةٍ. "حينَ أكبُرُ سأشتريهِ"، أجابَ جوانُ الصّغيرُ بإصرارٍ، ثمَّ ارتفعَ صوتُهُ موضّحًا لأبيهِ ما يريدُ: "أنا لا أريدُهمْ أنْ يأخذوهُ! إنّهُ صديقي!".

ذاتَ يومٍ، خلالَ عودتِهما من نزهتِهما، سائرَيْنِ على ضفافِ نهرِ (لوا)، بدأتْ تهبُّ رياحٌ جبليّةٌ كريهةٌ، حتّى ابتلّا من رذاذِ ضبابٍ رقيقٍ. وحينَ وصلا إلى بابِ البيتِ توقّفا، كما لو كانَ ذلكَ بسببٍ من خوفٍ أو فزعٍ.

"السّيّدُ ديفيز"لقدْ عادَ. حاولَ الولدُ الصّغيرُ أنْ يشرَحَ ما يعنيهِ الكلبُ، لكنّ الكلماتِ غاصَتْ في قلبهِ، وظلَّ الظّمأُ في حلقهِ. لقد كانتْ لحظةً حزينَةً.

"إلى اللّقاءِ يا صديقي العزيزَ، وحظًّا سعيدًا"، تمتمَ الولدُ باكيًا، عاصرًا يديهِ بعصبيّةٍ.

شكَرهُ السّيّدُ ديفيز بإخلاصٍ. لكنّ الطّفلَ، كرجلٍ مهذّبٍ صغيرٍ، رفضَ أن يقبلَ أيّةَ مكافأةٍ.

بدا بلاكُ كارهًا المشيَ وراءَ مالكهِ الرسميِّ، وراحَ متلهّفًا يتفحّصُ أركانَ الطّريقِ، مودّعًا مجاورةَ العمّالِ السّكنيّةَ، في الطّريقِ إلى المعسكرِ الأمريكيِّ. كانَتْ قدِ انتهتِ الآنَ مواجَهةُ جوانَ الأولى معَ اليأسِ، بعدَ أنْ تفكّرَ مليًّا في حقيقةِ أنّه لا يمكنُ لهُ أبدًا أنْ يمتلكَ كلبًا ممتازًا، وفي ذاتِ الوقتِ استمرَّ بلاك في مسيرهِ. كانَ هناكَ انسجامٌ في المشاعرِ قد ترسّخَ بينهما.

لكنْ سرعانَ ما جاءتْ وَحدةُ اللّيلِ، حينَ تفكّرُ الأرواحُ في نفسِها حتّى آخرِ شظيّةٍ في الحياةِ ذاتِها، فإذا هي تكتشفُ عبثَ كلِّ شيءٍ. عندئذٍ انهارَتْ دفاعاتُ جوانَ الصّغيرِ وبدأَ يبكي. ولعلَّ شيئًا ما أثارَ دَفْقَ الاتّصالِ بينَ الولدِ والحيوانِ عبرَ الفضاءِ، لأنّهُ في اللّحظةِ نفسِها بدأَ الكلبُ يعوي في المعسكرِ الأمريكيِّ، حينَ توهّجتْ ذكرياتُ بلاكَ عبْرَ ذهنِ الولدِ، وكما لو كانتْ مدفوعةً بقوّةٍ سرّيّةٍ، فنبحَ الكلبُ بعُنفٍ ضَارٍ، سائلًا الريحَ أنْ تنقُلَ رسالَتهُ إلى الولدِ. بدا الأمرُ حفلًا موسيقيًا حزينًا، سرعانَ ما أصبحَ يصيبُ بالصّممِ من شدّةِ النُّباحِ.

كما بكى جوانُ الصّغيرُ طوالَ اللّيلِ، متوسّلًا بالنُّواحِ، الّذي سرعانَ ما أصبحَ حفلًا موسيقيًّا غريبًا، سادَ شوارعَ مدينةِ المناجمِ السّاكنةِ.

كانَ السّيّدُ ديفيزُ مذهولًا من تصرُّفِ بلاكَ. ماذا يمكنُ لرجلٍ أنْ يفعلَ حينَ يواجهُ كلبًا يبكي؟ تملّكَتْ عقلَ الجرينجو حقيقةٌ جديدةٌ مفادُها أنّ بلاكَ لمْ يعُدْ يخصُّهُ بعدَ الآنَ؛ لقدْ

فقدَ حبَّهُ.

لم يتمكّنْ لابرا أنْ يُريحَ ولَدَهُ الصّغيرَ الباكيَ المحمومَ؛ لأنّه ماذا يمكنُ لرجلٍ أنْ يفعلَ حينَ يواجهُ ولدًا يبكي؟ أرادَ لابرا أنْ يرى ثانيةً ابتسامةَ ابنهِ السّريعةَ الواثقةَ، وأحسَّ بضرورةِ أنْ يستردَّ تلك الابتسامةَ. كم مرةٍ سابقةٍ لسعَهُ الفقرُ! لكنّه لم يستطعْ أنْ يحتملَ هذه المرّةَ. يجبُ أن يحدثَ شيءٌ غيرُ عاديٍّ في مدينةِ المناجمِ في هذا اللّيلِ الصّعبِ.

وكما لو أنّ الزّمنَ قدْ جعلَ منْ كلِّ الرّجالِ إخوةً، رمى لابرا عباءتَهُ على كتفيهِ، أخذَ كشّافَ الضّوءِ، ومضى إلى المجاورةِ السكنيّةِ العُليا؛ ليرى إذا كان ممكنًا أنْ تتحقَّقَ معجزةٌ. نعم، يجبُ أنْ يكونَ شجاعًا وجسورًا. لقدْ كان دائمًا عاملًا خجولًا صامتًا، لكنَّه الآنَ يجبُ أنْ يطلبَ إلى أحدِ ملّاكِ الشّركةِ بلاكَ العظيمَ، الجميلَ، الفائزَ بالجوائزِ. استنشقَ بعُمقٍ هواءَ اللّيلِ الباردِ، وارتعشَ وهوَ يفكرُ في جرأتهِ الخاصّةِ، ثمّ مضى صاعدًا باتّجاهِ المعسكرِ الأمريكيِّ.

فجأةً، توهّجتْ على ضَوءِ الفانوسِ عينانِ بنّيّتانِ فسفوريّتانِ، فجفلَ لابرا. ولكنْ أوقفَتْهُ رائحةُ غليونِ تدخينٍ، ونباحٌ أليفٌ؛ ففي ذاتِ اللّحظةِ، كانَ السّيّدُ ديفيزُ قد خرجَ أيضًا كي يراه، وكانَ ماضيًا باتّجاهِ منطقةِ سكنِ العمّالِ!

لقدْ مسَّ شيءٌ ما قلبَي الرّجلينِ، فلم تعُد للكلماتِ ضرورةٌ.

"إنَّه لم يعُدْ يخصُّني بعدَ الآنَ"، تمتمَ السّيّدُ ديفيزُ، مُقدِّمًا طوقَ بلاكَ المعدنيَّ الثقيلَ إلى يدَي العاملِ.

أخذَ لابرا الكلبَ بيدَيهِ المرتعشتَينِ، وأطفأتِ ابتسامةٌ سعيدةٌ انقباضَهُ.

لم تكُنْ هناكَ (تشكّراتٌ) مفصّلةٌ، بلْ فقطْ مجرّدُ فهمٍ متبادلٍ صامتٍ. جرَّ بلاكَ الرّجلُ، وأجبرهُ على أنْ يستمرَّ متابعًا خُطاهُ باتّجاهِ مجاورةِ جوانَ الصّغيرِ.

في تلكَ اللّحظةِ المُعجِزةِ، لطّفَ دفءٌ جديدٌ ليلَ منطقةِ شوكي.

السَّماور
سعيدُ فائقٌ

من قراءة الفقرات الأربع الأولى كيف تصف حياة علي وأمه؟

رُفع أذانُ الفجرِ..انهضْ يا بُنَيَّ، ستتأخرُ عَنْ عملِكَ.

أخيـرًا، وَجَـدَ علـيٌّ عمـلًا. منـذُ أسـبوعٍ وهـو يذهـبُ إلـى المصنـعِ. كانَـتْ أُمُّـهُ سـعيدةً وراضيـةً. أقامَـتْ صلاتَهـا، وأكملَـتْ دُعاءَهـا. دخلَـتْ والإيمـانُ باللّـهِ يغمرُهـا، إلـى غرفـةِ ابنِهـا الشَّـابِّ الطَّويـلِ والعريـضِ المنكبيـنِ الَّـذي كانَ غارقًـا فـي أحلامِـهُ بيـنَ ضجيـجِ المُحـرِّكاتِ والبطّاريّـاتِ الكهربائيَّـةِ وَمصابيـحِ الإنـارةِ وزيـوتِ المُحَـرِّكاتِ والدّيـزلِ. كانَ علـيٌّ غارِقًـا فـي العَـرَقِ مُتَـوَرِّدَ الوَجْنتيـنِ كأَنَّـهُ خـارجٌ للتـوّ مِـنَ المصنـعِ. كانَـتْ مدخنـةُ المصنـعِ الواقـعِ فـي "هاليجـي أوغلـو"[1] ترتفـعُ بوقـارٍ، وكأَنَّهـا سـتصيحُ كديـكٍ مغـرورٍ رافـعٍ رأسَـهُ ينتظـرُ طلـوعَ الصَّبـاحِ.

اسـتيقظَ علـيٌّ أخيـرًا. حضـنَ أُمُّـهُ. سـحبَ اللِّحـافَ لِيُغَطِّـي رأسَـهُ كمـا يفعـلُ كُلَّ صَبـاحٍ. دغدغَتْـهُ أُمُّـهُ مِـنْ قَدمَيْـهِ اللّتيـنِ بَقِيَتـا خـارجَ اللِّحـافِ.

ما الّذي أوحى لك به استخدام الاستفهام في هذه الفقرة؟

ضَحِكَـتْ كفتـاةٍ صغيـرةٍ بسـعادةٍ بعـدَ أَنْ وَثَـبَ ابنُهـا مِـنْ الفِـراشِ، ثُـمَّ عـادَ وسـقطَ عليـهِ. ليسـوا كثيريـن مَـنْ هُـمْ سـعداءُ فـي هـذا الحـيِّ. مـاذا تملِـكُ الأُمُّ سـوى ابنِهـا ومـاذا يملِـكُ الابـنُ سـوى أُمِّـهِ؟ دَخَلـت غرفـةَ الطَّعـامِ يحتضـنُ كُلُّ منهمـا الآخـرَ. تفـوحُ رائحـةُ الخبـزِ المحمّـصِ الزَّكيـةُ فـي الغرفـةِ.

ما معنى أن ينتج السماور سعادة الصباح؟

كانَ المـاءُ يغلـي فـي السَّـماور بشـدّةٍ! كان علـيٌّ يُشَـبِّهُ السَّـماورَ بمصنـعٍ يخلـو مِـنَ العَـذابِ والإضرابـاتِ والحـوادثِ، فهـو لا يُنْتِـجُ سـوى البُخـارِ ورائحـةِ الشَّـاي المعتَّـقِ وسـعادةِ الصَّبـاحِ. كان علـيٌّ يسـتمتعُ عنـدَ الصّبـاحِ بالسَّـماورِ وغلايـةِ بائـعِ السَّـحلبِ الّـذي يقـفُ أمـامَ بـابِ المصنـعِ. ثـم الأصـواتُ، بـوقُ مدرسـةِ "هليجـي أوغلو"العسـكريّةِ، وَصفّـارةُ المصنـعِ الّتـي تهـزُّ أرجـاءَ الخليـجِ، تُحيـي أُمنيـاتٍ، وتحبـطُ طموحـاتٍ أُخـرى. ذلـكَ يعنـي أَنَّ لِعَلـيٍّ روحًـا شـاعريةً، معَ أنَّ الأحاسـيسَ

1) أحدُ أحياءِ مدينةِ (إسطنبول) الصناعيَّةِ، ويقع على خليج القرن الذَّهبيِّ وسطَ المدينةِ.

المرهفةَ لعاملِ كهرباءٍ بضجيجِ المصنعِ، كإيلاجٍ باخرةٍ من عابراتِ المحيطِ في الخليجِ، إلّا أنّنا -عليّ ومحمد وحسن- هكذا، في قَلْبِ كُلٍّ مِنَّا يقبعُ أَسَدٌ.

قَبّلَ عليٌّ يَدَ أُمِّهُ، ثُمَّ لَعَقَ شَفتَيْهِ كأَنَّهُ أكلَ قطعةَ سُكَّرٍ. كانَتْ أُمُّهُ تَضْحَكُ، لقد اعتادَ التّصرُّف على هذا النّحوِ كُلَّما قَبَلَ أُمَّهُ. كان يوجدُ أصيصٌ وَريْحانٍ في حديقةِ البيتِ الصّغيرةِ. قَطَفَ عليٌّ بِضْعَ وَرقاتِ ريحانٍ، وَفَرَكَها بينَ كَفَّيْهِ وَغادرَ مُبتعدًا، وهو يستنشق رائحةَ الرَّيحانِ في كَفّيهِ. هواءُ الصَّباحِ كانَ بارِدًا قليلًا، والخليجُ كانَ غائمًا. التقى أصدقاءَهُ عندَ رصيفِ القواربِ، جميعهُم كانوا شُبانًا أَشِدَّاءِ. أبحرَ خمسةُ أشخاصٍ إلى "هاليجي أوغلو".

يُظهِرُ عَليٌّ في عَملِهِ كُلَّ جِدٍّ واستمتاعٍ وحماسٍ، لكنْ ليسَ رغبةً بإظهارِ تفوّقِهِ على زُملائهِ، فقد كانَ مُستقيمًا، ولا يحبُّ الاستعراضَ، مَعَ أَنَّهُ كان يُجيدُ عملَهُ إلى أقصى دَرجةٍ مِنْ المهنيّةِ، إذْ تعلَّمَ على يَدَيْ أَشْهَرِ الكهربائيّينَ الألمانِ في (إسطنول). كان يُحِبُّ عَليًّا كثيرًا، فأخلصَ في تعليمِهِ كُلَّ أسرارِ المهمةِ؛ ليصبحَ مِثْلَهُ مُعَلِّمًا بارعًا لا يُضاهيهِ أحدٌ.

عادَ في المساءِ إلى بيتِهِ سَعيدًا، مُطمئنًّا مِنْ تَقديمِهِ أَقصى جُهدِهِ في عملِهِ فريقًا واحدًا مع زُملائِه. وبعدَما حضنَ أُمُّهُ، اتجهَ نحوَ المقهى المقابلِ ليلتقيَ أصدقاءَهُ. ثُمَّ تدرَّجَ عائدًا إلى بيتِهِ. كانَتَ أُمُّهُ تُؤدي صلاةَ المغربِ. ربضَ أمامَ أُمِّهُ، وقالَ:

- سيغفِرُ ليَ اللّهُ يا أُمّي.

بعدَ الأَكْلِ، غَرِقَ عَليٌّ في قراءةِ روايةٍ بوليسيّةٍ. أُمُّهُ كانَتْ تحيكُ لهُ كنزةً صوفيّةً، ثُمَّ تمدَّدا وناما على فراشَيْنِ يفوحُ منهما عِطْرُ زَهرِ الخُزامى.

أيقظَت الأُمُّ عليًّا بينما كانَ أذانُ الفَجْرِ يُرْفَعُ. كانَتْ رائحةُ الخُبْزِ المُحَمَّصِ الزكيّةُ تفوحُ في الغرفةِ. كانَ الماءُ يغلي في السَّماورِ بشدّةٍ! كانَ عَليٌّ يُشَبِّهُ السّماورَ بمصنعٍ يخلو من العذابِ والإضراباتِ والحوادثِ، فهو لا ينتجُ سوى البُخارِ ورائحةِ الشَّاي المُعتَّقِ وسعادةِ الصَّباحِ.

جاءَ الموتُ لأُمِّ عَليٍّ كَسيِّدةٍ جارةٍ زائرةٍ تَضعُ على رَأْسها غطاءً كأَنَّها تستعدُّ للصّلاةِ. كانَتْ تُعِدُّ الشايَ كُلَّ صَباحٍ، وَتُمسي وهي تُعِدُّ طعامَ العشاءِ لابنِها، لكنَها كانَتْ تشعرُ بوخزٍ في قلبها، وَخَدَرٍ، وَتعرّقٍ في أنحاءِ جَسدِها المُتغضِّنِ عندما تصعدُ الدَّرَجَ مُسرِعةً قُبيلَ المَساءِ.

ذاتَ صَباحٍ، وقبلَ أنْ توقِظَ عليًّا، وَبينَما كانَتْ تُعِدُّ السَماوَرَ، شعَرتْ بدوارٍ، فَجلَسَتْ مُتهالكةً على كُرسيٍّ إلى جوارِها. ذلكَ الجلوسُ، كانَ جلوسَها الأخير.

استغربَ عليٌّ تَأَخُّرَ أُمِّهُ بإيقاظِهِ. وصلَ إلى مسامعِهِ صوتُ صَفّارَةِ المصنعِ الحادُّ. مُخترقًا بنعومةٍ زُجاجَ النّافذةِ المُغلقةِ. وثبَ مِنْ فراشِهِ، وقفَ أمامَ بابِ غُرفةِ الطَّعامِ، شاهدَ أُمُّهُ وقد أَحْنَتْ رأسَها على ذراعيها المُستندين على الطّاولةِ، ظَنَّها نائمةً. تقدَّمَ بهدوءٍ، أمسكَها مِنْ كَتِفيْها، ارتعدَ عندَما أحسَّ ببرودةٍ حالما لامسَتْ شَفتاهُ وجْنَتَها.

ما نفعلُهُ أمامَ الموتِ لا يختلفُ عَمّا يفعلُهُ ممثلٌ بارِعٌ، لكنْ ما بَدَرَ مِنْهُ كانَ حقيقيًّا.

عانقَها، وَحملَها إلى فراشِها، غطَّاها باللِّحافِ، وحاولَ تدفئةَ جَسَدِها الباردِ. تشبَّثَ بإعادةِ الحياةِ إلى هذا الجسدِ الباردِ، ثُمَّ انهارَ فجأةً على الفراشِ إلى جوارِها عاجزًا. لم يستطعِ البُكاءَ في ذلكَ اليومِ على الرّغمِ مِنْ رَغبتِهِ الجامحةِ في البُكاءِ. توقَّدَتْ عيناهُ دونَ دموعٍ، نظرَ إلى المِرآةِ، كانَ مُحيّاهُ كَوَجْهِ امرئٍ قضى ليلةً بيضاءَ إِثْرَ مُجابهتِهِ أعظمَ مُصيبةٍ في الحياةِ.

لِمَاذا لمْ يستطعْ عليٌّ البُكاءَ على أمِّه؟

شعرَ عليٌّ كأنَّ وَهنًا قد أصابَ جسدَهُ، وَكأنَّ الشَّيْبَ قد غطّى شَعْرَهُ، وألمًا شديدًا وانحناءةً في ظَهْرِهِ، وكأنَّهُ قد هَرِمَ كَشخصٍ تجاوزَ المئةَ مِنْ عُمرِهِ.

لِمَاذا، في رأيك، ذهبَ علِ إلى المصنعِ بعد إبلاغِ الج بوفاةِ أمِّه؟

ثُمَّ نَظَرَ إلى الجَسدِ الميتِ. لم تَكُنْ مُخيفةً، بَلْ على العكسِ، كانَتْ تبدو وَدودةً بِنَفْسِ مُحيّاها القديمِ الحَنونِ الرّقيقِ. أغمضَ عَيْنَي الميتةِ نصفَ المفتوحتينِ بإحدى يَدَيْهِ القويّتينِ. انطلقَ إلى الشَّارِعِ، أخبرَ جارَتَهُ المُسِنَّةَ،

هرعَـتِ الجـاراتُ إلـى البيـتِ راكِضـاتٍ، واتَّجـهَ إلـى المصنـعِ، وبينمـا كانَ علـى الطَّريـقِ فـي القـاربِ، بـدا وَكأنَّـهُ قـد اعتـادَ علـى رؤيـةِ المـوتِ.

لقـد اعتـادا علـى الالتحـافِ باللِّحـافِ نَفْسِـهِ إلـى جانـبِ بَعْضَيْهمـا. وَكمـا أَخـذَ المـوتُ أُمَّـهُ المُؤنسـةَ، أخـذَ أيضًـا كُلَّ مَشـاعرِها بالحنـانِ والعطـفِ. لكنَّـهُ، كانَ بـارِدًا قليـلًا، والمـوتُ ليـسَ مُخيفًـا كمـا نظـنُّ، لكنَّـهُ بـاردٌ قليـلًا...

ظـلَّ علـيٌّ أيامًـا عديـدةً، يتفقَّـدُ غُـرَفَ البيـتِ بـلا هَـدَفٍ. ظـلَّ يجلـسُ ليـلًا دون إضـاءةِ النُّـورِ، يُصغـي للَّيْـلِ، يُفَكِّـرُ بأُمِّـهِ، لكنَّـهُ لـم يسـتطعِ البُـكاءَ.

ذاتَ صَبـاحٍ، تَقابـلا وَجْهًـا لوجْـهٍ فـي غُرْفَـةِ الطَّعـامِ، كانَـتْ علـى نَفْـسِ مائـدةِ الطَّعـامِ مُشـرقةً هادئـةً. أشـعّةُ الشَّـمْسِ كانَـتْ تنعكـسُ عَـنْ كُلّ إنـاءٍ مَعدنـيٍّ. أمسـكَتْهُ مِـنَ زَنَديْـهِ، وَحَدَّقَـتْ فـي عَيْنَيْـهِ. انهـارَ علـى الكُرسـيِّ، وانهمَـرت الدُّمـوعُ مِـنْ عينَيْـهِ بشـدَّةٍ كالمطـرِ بصمـتٍ، ثُـمَّ غـادرَ ذلـكَ البيـتَ مـن غيـرِ رجعـةٍ.

بعدَ ذلكَ دخلَ إبريقُ السَّحلبِ إلى حَياةِ عَليٍّ.

هل ما زال السماور يصنع سعادة الصباح؟

الشِّـتاءُ فـي مُحيـطِ الخَليـجِ أَشَـدُّ وأكثـرُ ضَبابًـا مـن (إسـطنبول)المدينةِ. كانَ المُعلِّمـونَ والسَّـائقونَ واللَّحامـونَ وَ طُـلابُ المـدارسِ والعُمَّـالُ، وقـد أداروا ظهورَهُم لجـدارِ المصنـعِ الضَّخـمِ، يُمْسِـكونَ فَناجيـنَ السَّـحلبِ بأَكُفِّهِـم المُغطـاةِ بالقفَّـازاتِ الصُّوفيَّـةِ، وأنوفِهـم الرَّاشـحةُ، تنفـثُ هـواءً سـاخِنًا كالبخـارِ المُتصاعـدِ مِـنْ سـماورَ حزيـنٍ، يحتسـون جُرْعَـةً جُرعـةً سـحلبًا ذُرَّتْ عليـهِ أحـلامٌ بعيـدةٌ.

ذهبَ عليٌّ
إبلاغِ الجارةِ

قصصٌ رديفةٌ

البدينُ والنّحيفُ

أنطوان تشيخوف *

في محطّة سكّة حديد (نيقولاي) التقا صاحبان؛ أحدهما بدين والآخر نحيف. كان البدين قد تغدّى لتوّه في المحطّة، ولمعت شفتاه من الدهن، كما تلمع ثمار الكرز الناضجة. وفاحت منه رائحة الحلويات المعطّرة. أمّا النحيل فكان خارجًا لتوّه من عربة القطار محمّلًا بالحقائب والصُّرَر وعلب الكرتون. وفاحت منه رائحة القهوة الرّخيصة. ولاحت من وراء ظهره امرأة نحيفة طويلة الذقن.. زوجته، وتلميذ طويل بعين مزرورة.. ابنه. وهتف البدين عندما رأى النحيف:

ـ (بورفيري)! أهو أنت؟ يا عزيزي! كم مرّ من أعوام من أرك!

ودُهِش النّحيف:

ـ يا سلام! (ميشا)! يا صديق الطفولة! من أين جئت؟

وتبادل الصاحبان القبلات ثلاثًا، وحدّث كل منهما في الآخر بعينين مغرورقتين بالدموع، وكان كلاهما في حالة من الذهول اللذيذ.

وقال النحيف بعد القبلات:

ـ يا عزيزي! لم أتوقع أبدًا! يا لها من مفاجأة! هلاّ نظرت إليّ جيّدًا! جميل كما كنت! حبّوب كما كنت! آه يا إلهي! كيف أحوالك؟ أصبحت غنيًّا؟ تزوجت؟ أنا تزوجت كما ترى.. وهذه زوجتي (لويزا)، من عائلة (فانستباخ).. أما هذا فابني (نفانائيل)، تلميذ بالصف الثالث. يا (نفانيا). هذا صديق طفولتي، درسنا معًا في المدرسة.

وفكّر (نفانائيل) قليلًا، ثم نزع قبّعته.

ومضى النحيف يقول:

ـ درسنا معًا في المدرسة! أتذكر كيف كانوا يغيظونك؟ بلقب (هيروستراتوس) أحرقت بالسيجارة كتاب العهدة، وكانوا يغيظونني بلقب (افيانتوس) لأني كنت أحبّ النميمة. ها ها .. كم كنّا صغارًا! لا تخف يا (نفانيا).. اقترب منه.. وهذه زوجتي، من عائلة (فانستباخ).

وفكّر (نفانائيل) قليلًا، ثم اختبأ خلف ظهر أبيه.

* ترجمة أبوبكر يوسف، دار رادوغا، موسكو.

وسأل البدين وهو ينظر بإعجاب إلى صديقه:

ـ كيف حالك يا صديقي؟ أين تخدم؟ وماذا بلغت في الخدمة؟

اخدم يا عزيزي! بلغت محكّم هيئة [1] منذ سنة، وأحمل وسام (ستانسلاف). الراتب سيء، فليكن. زوجتي تعطي دروسًا في الموسيقى، وأنا أصنع علب سجائر من الخشب، علب ممتازة! أبيعها الواحدة بروبل. ومن يشتري عشر علب أو أكثر أقدم له خصمًا . ندبّر أمورنا كيفما كان. أتدري؟ كنت أخدم في الإدارة، وقد نقلت إلى هنا الآن كرئيس قسم في الوزارة نفسها. سوف أخدم هنا. وأنت، كيف؟ أظنك بلغت مستشار دولة؟ هه؟

فقال البدين:

ـ لا يا عزيزي، بل أعلى، لقد بلغت "المستشار السرّي" أحمل نجمتين.

وفجأة امتقع النحيف، وتجمّد، ولكن سرعان ما التوى فمه في جميع الاتجاهات ليصنع ابتسامة عريضة للغاية. وبدا وكأن الشرار قد تطاير من وجهه وعينيه. أما هو فانكمش وتحدّب وضاق، وانكمشت حقائبه وصرره وعلبه وتجعدت.. واستطال ذقن زوجته االطويل. وشدّ (نفانائيل) قامته وزرّر جميع أزرار سترته.

ـ إنني يا صاحب السعادة مسرور جدًّا! صديق الطفولة، يعني، وإذا به يصبح من السادة الأكابر! هئ هئ.

فامتعض البدين وقال:

ـ دعك من هذا! ما هذه النبرة؟ إننا أصدقاء الطفولة. فما معنى عبادة الألقاب هذه؟!

ـ العفو.. ماذا تقولون.. إنّ اهتمام سعادتكم الكريم هو كالبلسم الشافي.. هذا هو ابني (نفانائيل) يا صاحب السعادة.. وزوجتي (لويزا).

وأراد البدين أن يعارض بشيء ما، ولكن وجه النحيف كان يطفح بالتبجيل والتعبير المعسول والخنوع إلى درجة أثارت الغثيان في نفس المستشار السرّي. فأشاح بوجهه عن النحيف، ومدّ له يده مودّعًا.

وصافح النحيف ثلاث أصابع وانحنى بجسده كلّه، وضحك كالصيني: "هئ-هئ-هئ" وابتسمت الزوجة، ومسح (نفانائيل) الأرض بقدمه وسقطت منه القبعة. وكانوا ثلاثتهم في حالة من الذهول اللذيذ.

---

1) رتبة مدنية من الدرجة الثامنة في روسيا القيصرية.

بيتٌ

ابتسام المعلّا

عندما أُغْلِقَ الباب الخارجيّ بالمفتاح، كانت الساعة تقترب من الرابعة عصرًا، وكان رذاذٌ ناعمٌ قد بدأ في نثر لمعته على قبضة الباب وهيّج سيقان الرّيْحان المزروعة في المساحة الصغيرة غبر المُبلّطة بين السّور وباب المنزل الداخلي، ففاحت رائحتها وطغت على بقايا رائحة السّمك التي كانت تفعَم البيت الصغير.

على حبل الغسيل الذي كان يمتدّ بين شجرتيْ لوْز كان يتدلّى ثوبٌ برتقاليّ مشَجَّرٌ بالأخضر، وسروالٌ أبيضٌ، ومنشفةٌ صغيرةٌ قانية الحمرة، بدا أنّها كانت على وشك أن تجفّ لولا أنّ الرّذاذ عاد فرطَبها من جديد.

أبواب الغرف كانت مغلقة، لكن رائحة السمك المنبعثة من باب المطبخ المفتوح تسرّبت من تحت الأبواب وتداخلت مع الهواء.

الحمّام وحده نجا من رائحة السّمك وانفرد وحده برائحة الحنّاء الذي ظلّت بقاياه في الطّاسة الفضّية الصّغيرة التي استخدمتها صاحبتها لصبغ شعرها، ربّما قبل خروجها بساعات؛ إذ تبدو الملعقة المتروكة في الطّاسة وقد يبس عليها عجين الحنّاء دون أن تخبو الرائحة.

لولا الضوء المنبعث من إحدى الغرف الثلاث، وبالذات من ذلك الخيط أسفل الباب، ومن فتحة القفل لظلّ البيت غارقًا في ظلمة لا تُحتمَل، ولا يبدو أنّ الضوء كان منسيًّا؛ فثمة من تركه، ربما لتبديد وحشة البيت، ولكي لا تشعر تلك الغرفة وصالة الضيوف المطلة عليها بأيّ نوع من أنواع الغربة لخلوّ المكان. أمّا تلك الغرفة المضاءة فهي أكثر غرف البيت امتلاء بالحياة، ففيها سرير قديم كبير الحجم، بأرجل أسطوانية قصيرة، يأخذ نصف مساحتها تقريبًا، وهو مغطّى بملاءة ورديّة تطلّ من تحت غطاء صوفيّ سميك، يوحي مرآهُ بالدفء، بُنيُّ اللون ومزخرف بورود كبيرة متفتّحة، وقد انسدل جانبٌ منه على الأرض، وأطّلت تلك العلامة التي تقول: Made in China . أمّا المخدّتان اللتان لهما نفس لون الملاءة الوردية فتتوسط إحداهما بقعة كبيرة دبِقة، وبضع شعيرات بيضاء خالط لونها لون حنّاء قديم.

على الكوميدينو الملاصق للسرير من جهة اليمين تصطفّ علب وزجاجات أدوية، وبخّاخ صغير للرّبو، والريموت كنترول الخاص بالتلفزيون وزجاجة ماء مقلوب على رأسها كأس ذو حافّة ذهبية. أمّا الكوميدينو الأيسر فتتّكئ عليه ثلاث صور، إحداها بإطار فضيّ وفيها صورة شاب على يخلو من وسامة، يبدو في الرابعة أو الخامسة عشرة، يرتدي ملابس المدرسة،ويبتسم، وقد وضع إحدى يديه في جيبه، بينما احتضن الكرة باليد الأخرى.

الصورة الثانية إطارها أسود حائل اللون، وفيها تجلس امرأة تبدو في نهاية الأربعينات، ترتدي ثوبًا ذا ألوان صارخة، كان يطلّ من عباءتها المفتوحة، وحول رقبتها سلسلة عريضة من الذهب تتدلّى من وسطها دائرة ذات شذرات تشبه تلك التي في خلاخيل الأطفال. تنظر المرأة إلى الكاميرا مباشرة دون أن تُفْلِحَ تمامًا في السيطرة على خجلها وابتسامتها. إلى جوارها تمامًا يجلس رجل أكبر منها قليلا، يرتدي دشداشة بيضاء ويضع يديه في حضنه، وثمّة حَوَلٌ خفيف في عينيه يجعل من يرى الصّورة يشكّ في أنّ الرجل كان ينظر إلى الكاميرا لحظة التصوير. خلفهما مباشرة وفي منتصف الصورة تقريبا كان يقف شاب بدا نصفه العلوي فقط، يرتدي ملابس رياضة حمراء اللون، وقد خطّ وجهه شارب ناعم، وكانت ملامحه تشي بعدم رغبته في أن يكون في الصورة. أما الصورة الثالثة فإطارها ذهبيّ مزخرف وثقيل وفي أربعة أطفال، بنتق وثلاثة أولاد، يجلسون على خلفية بنفسجية ذات فقاعات متفاوتة الحجم، يضحكون للكاميرا، وقد انكشف فم أوسطهم عن سنّ مفقودة.

هناك في إحدى زوايا الغرفة المواجهة للسرير تنتصب طاولة من الخيزران عليها تلفزيون متوسط الحجم وراديو وغرامفون مغبرّ، كأنه موجود للزينة فحسب، ومسجّل متهالك يبدو أنّه استُخدِم لسنوات طويلة حتى تقشّرت الطبقة الفضيّة التي تغطّيه، تصطفّ بالقرب منه أشرطة كاسيت ذات أغلفة باهتة لعلي بن روغة وجابر جاسم وميحد حمد، وإلى جانبها طاولة أخرى أصغر حجمًا تتكدّس عليها قوارير صغيرة منوّعة من العطور التي تحتوي سوائل ثخينة، بعضها متخثّر بفعل الزمن. أعلى طاولة العطور تماما توجد مرآة مستطيلة بها شرخ صغير لكنه واضح. أمّا في الزاوية المقابلة فيقف مِشجب جديدن لا يتناسب وباقي الأثاث القديم في الغرفة، عُلّقَ عليه ثوب "مُخَوّر" جيبه مندلِع، وشيلة سوداء معقود أحد أطرافها على هيئة صُرّةٍ صغيرة، وقماشة أخرى كالشّال تكاد تنزلق من ضلع المشجب، بينما تُرِكَ الضلع الرابع خاليا.

على الحائط الأيمن يستند دولاب ملابس بثلاثة أبواب مغلقة، يقابله في الحائط الأيسر صندوق فضيّ منجَّم، يمكن أن يثير فضول كل من تقع عينه عليه، تستند عليه تكية قديمة بجانبها سجّادة صلاة ظاهر من أد طرفيها خيط مسبحة قديمة بخرزات خضراء ناعمة.

هناك لوحة ورقية كبيرة مثبّتة على الجدار بأشرطة لاصقة عند زواياها الأربع، وهي رسم بالألوان المائية لامرأة ورجل يقفان كحارسين، بينما يتوسطهما طفل يرتدي ثيابا مخططة، وطفلة في مثل طوله تقريبًا ، تضع يدها في يده، وترتدي فستانا أزرق اللون على شكل مثلث. إلى جوار الرجل تنتصب شجرة لها جذع سميك، لكنّ أوراقها على شكل سعف النخلة، وخلف العائلة الصغيرة تطلّ شمس هي مزيج من اللونين البرتقالي والأصفر، كبيرة جدًّا، ولها أشعة على هيئة خطوط صفراء عريضة تمتد إلى حدود الورقة، وهناك، عند أسفل الزاوية اليمنى يتوارى وراء الألوان توقيع باهت بالرصاص، مرسوم بأحرف مضحكة وغير متناسقة "مريم".

خارج سور ذلك البيت كانت ترتفع نداءات وضحكات صبية كانوا يلعبون الكرة، ويتصايحون "شبير" .."موهاميد" .. أرشد" . ثمّ فجأة، اهتزّ سكون البيت بصوت طرقات على الباب، بدأت متباعدة ثم تواصلت.

جاء صوت طفل من بعيد يقول إنّه رأى العجوز تخرج من البيت قبل فترة، وآخر يقول ربما تكون نائمة، لكنّ الصبيّ الذي كان يطرق الباب واصل الطرق بإلحاح وهو يصبح على رفاقه بأنهم لن يتمكنوا من مواصلة اللعب دون الكرة.

أجابه آخر: لماذا لا تتسلّق السور وتجلبها ما دامت المرأة ليست في البيت؟

لا. لا تفعل. قد تكون موجودة.

لا تكن جبانًا. اركب على ظهري.

سأجلب الدرج من بيتنا.

لا. إيّاكم أن تفعلوا. قد تصل في أيّ وقت، وستحدث مشكلة.

وفي البيت رنّ جرس الهاتف طويلا، ولم يرد أحد.

الجرح الخفي

كارولي كسفلودي*

في الصباح المبكر والطبيب الجراح مازال في فراشه، خابره خادمه بالهاتف قائلًا: إن هناك زائرًا مستعجلًا يلح على أن حالته خطرة، ولا يمكن تأخيره دقيقة واحدة، فسارع الطبيب إلى لبس ثيابه، ثم قرع الجرس مشيرًا إلى خادمه بإدخال المريض.

كان الداخل رجلًا يظهر عليه من أول وهلة أنه ينتمي إلى خير الطبقات الاجتماعية، كانت يده اليمنى معلقة في رباط عنقه، ووجهه الشاحب وتصرفاته العصبية تنم عن عذاب جسمي يقاسيه، ومع أنه كان يسيطر على قسمات وجهه كانت آهة من الألم تنطلق من بين شفتيه بين الحين والآخر.

ـ تفضل اجلس، ماذا أستطيع أن أفعل من أجلك؟

لم أذق النوم أسبوعًا كاملًا؛ إن يدي اليمنى ليست على ما يرام، ولا أعرف ما الّذي أصابها، قد يكون سرطانًا، أو مرضًا آخر رهيبًا، لم تزعجني في البداية، ولكن حالتها مؤخرًا ساءت كثيرًا، وأصبحت وكأنها تحترق، إنها تؤلمني ألمًا يشتد ساعة بعد ساعة حتى بلغ حدًّا لا يطاق؛ ولهذا أتيت لاستشارتك، إذا تحملته ساعة أخرى فإني صائر إلى الجنون لا محالة إني أطلب إليك أن تحرق موضع الألم، أو أن تقطعه، افعل أي شيء ترتئيه، فطمأنه الجراح بأنه قد لا يحتاج إلى عملية جراحية.

غير أن الزائر ألحّ: "لا، لا، يجب أن تجري عملية جراحية لأنني أتيت خصيصًا لقطع الموضع الممروض، ولن يسعفني شيء آخر"، ثم سحب يده من الرباط بمشقة زائدة، وتابع:

ـ أرجوك لا تندهش إذا لم تر على يدي أثر جرح ظاهر، إن قضيتي غير عادية أبدًا.

فأكد له الطبيب أنه ليس من الذين يدهشون في الأحوال غير الاعتيادية، ولكن بعد أن فحص يده جيدًا، أسقطها باستغراب كبير، لم ير فيها أي شيئًا بتاتًا، ولم يكن لونها متغيرًا. لقد كانت كأي يد عادية أخرى. ولكن، مع كل هذا، كان من الظاهر أن الرجل يقاسي ألمًا هائلًا،

* كاتب مجري (1890-1954).

والطريقة الّتي أمسك بها يده اليمنى بيده اليسرى عندما أسقطها الطبيب كانت برهانًا على هذه الحقيقة.

قال الطبيب: "أين يؤلمك؟"

فأشار المريض إلى بقعة مستديرة بين العرقين الكبيرين، ولكنه خطف يده بسرعة عندما لمس الطبيب موضعها بحذر بطرف إصبعه.

ـ هل هناك موضع ألمك؟

ـ نعم. إنه ألم شديد.

ـ هل تشعر بالضغط عندما أضع إصبعي عليها؟

فلم يستطع الرجل الكلام، ولكن الدموع الّتي اغرورقت بها عيناه أفصحت عن الجواب، فأخذ الطبيب مجهرًا، وفحصها مرة أخرى بعناية فائقة، ثم قاس حرارته، وفي النهاية هز رأسه، وقال:

ـ إن الجلد في حالة صحية تامة، والعروق طبيعية، ولا التهاب هناك ولا انتفاخ، إن يدك طبيعية كأية يد متعافية.

ـ أظن أن موضع الألم أكثر احمرارًا قليلًا.

ـ أين؟

فرسم المريض دائرة على ظهر يده في حجم الفلس وقال: "هنا".

فنظر الطبيب إلى الرجل، وجعل يتساءل لعل مريضة ذاك معتوه، ثم قال له: "عليك أن تمكث في المدينة، وسأحاول أن أفعل شيئًا لمساعدتك في الأيام القليلة القادمة".

ـ لا أستطيع الانتظار ليلة واحدة، ولا تفكر- يا حضرة الطبيب- بأني مختل أو أسير وهم من الأوهام، إن هذا الجرح الخفي يؤلمني وبشدة، وإني أطلب إليك أن تقطع هذا الموضع المستدير عميقًا حتى العظم.

ـ لن أفعل ذلك يا سيدي، لأنني لا أرى عطبًا في يدك.

فقال المريض:

ـ يظهر أنك تظنني من المجاذيب، أو أنني أخادعك... ثم أخرج من محفظته مبلغًا ضخمًا من المال ووضعه على المكتبة، وتابع كلامه: "هل أنت ترى أن قضيتي خطيرة، حتى أنني أدفع راضيًا مبلغ ألف من الدراهم لإجراء العملية، أرجوك أن تقوم بها...

ـ لو دفعت لي جميع أموال الدنيا لن أمس عضوًا صحيحًا، لأن ذلك مخالف لمبادئ المهنة، فسوف يدعوك الناس أحمق، ويتهمونني بأني غررت بك، واستفدت من ضعفك، أو سيفضحونني بأني لم أستطع تشخيص جرح لا وجود له".

ـ حسنًا يا سيدي، أرجو أن تسدي لي معروفًا غير هذا، أنا سأقوم بإجراء العملية بنفسي، مع أن يدي اليسرى أضعف من أن تقوم بعمل كهذا، فكل ما أطلبه إليك هو أن تعتني بالجرح بعد أن أقوم بالعملية.

فرأى الطبيب والدهشة تمتلكه أن الرجل كان جادًا فيما قاله، إذ رآه ينزع معطفه، ويرفع أكمام قميصه، وبعد هذا أخرج سكينه الصغيرة من جيبه، وقبل أن يستطيع الطبيب الاعتراض أحدث جرحًا عميقًا في يده.

فصاح الطبيب: "قف! إن كنت ترى أن العملية ضرورية فسأجريها أنا".

ثم أمسك بيده، وأشار عليه بأن يدير وجهه جانبًا، لأن المرء عادة يفزع من رؤية دمه، فقال الزائر: "كلا يا سيدي يتحتم على أن أقود يدك في إجراء العملية لكي تعرف أين وكيف تبضع اللحم".

تحمل الرجل العملية بشجاعة نادرة، فلم ترتعش يده قط، ولما قطعت البقعة المستديرة من على ظهر يده تنهد بارتياح وشعر بالفرج كأنما أزيح حمل ثقيل عن كاهله.

قال الطبيب: "ألا تشعر بأي ألم الآن؟"

فابتسم الزائر وقال: "مطلقًا، كأنها قد اجتثت من الجذور، وما الوجع الطفيف الّذي سببه التبضيع إلّا كنسمة هواء باردة بعد نار محرقة، دع الدم يسيل؛ إنه يريحني"

وبعد أن ضمد الطبيب الجرح لاح على الرجل أنه قانع وسعيد، لقد أصبح رجلًا آخر، فضغط بيسراه على يد الطبيب بامتنان وقال له: "إني في الحق مدين لك بشكر عظيم".

زار الطبيب مريضه في فندقه لعدة أيام بعد إجراء العملية، فعرف كيف يحترم هذا

الرجل الّذي يشغل منصبًا هامًّا في الأرياف، وهو ذو ثقافة عالية، وينتمي إلى عائلة من أبرز العائلات هناك.

وبعد أن شفي الجرح تمامًا رجع الرجل إلى بلدته في الريف، ولكن بعد ثلاثة أسابيع ظهر ثانية في عيادة الطبيب، ويده معلقة في الرباط حول عنقه، يشكو الألم نفسه في تلك البقعة نفسها الّتي أجريت عليها العملية، وكان وجهه شاحبًا كالشمع، والعرق البارد يلتمع على جبينه، فجلس ودون أن ينطق بكلمة واحدة مد يده اليمنى إلى الطبيب ليفحصها.

قال له وهو يئن: "إنك لم تتعمق في تبضيع البقعة، ولذلك عاد الألم ثانية، لا بل عاد أسوأ بكثير مما كان، إنني هالك لا محالة، لم أشأ في البداية أن أزعجك مرة أخرى، فتحملت الألم بصبر، ولكنني لم أعد أطيقه أبدًا، يجب أن تجري العملية ثانية".

فحص الطبيب مكان البقعة فوجد أنها قد اكتست بجلد ناعم جديد وتعافت تمامًا. ومع أن النبض كان عاديًّا، ولم تكن هناك أية حمى، كان الرجل يرتجف في كل عضو من أعضائه.

قال الطبيب: "غريب، إنني لم أسمع بشيء كهذا من قبل".

لم يكن بدّ من إجراء العملية ثانية، فقام بها الطبيب، وانتهت كالمرة السابقة، فتوقف الألم حالًا، وشعر المريض بالفرج، غير أنه لم يبتسم هذه المرة، شكر الطبيب وهو في حالة من أشد حالات البؤس والتعاسة، وعندما استأذن بالانصراف قال: "أرجو أن لا تستغرب إذا ما عدت إليك ثانية خلال شهر".

ـ يجب ألا تفكر فيها.

ـ أنا متأكد من أنني راجع إليك. إلى اللقاء.

بحث الطبيب في هذه الحالة مع عدد من زملائه، فأبدى كل منهم رأيًا مخالفًا للآخر، ولكن لم يستطع أحد منهم أن يقدم إيضاحًا مقنعًا.

مر شهر ولم يظهر المريض، وبعد انصرام أسابيع أخرى، لم يأت المريض، بل أتت منه رسالة، فتحها الطبيب فرحًا وهو يظن أن مريضه قد شفي. وراح يقرأ:

{سيدي الطبيب: أنا لا أريد أن أتركك في شك من أمر شقائي ومنشئه، وكذلك لا

يهمني أن أحمل سره معي إلى قبري، أنا في أشد الشوق إلى اطلاعك على تاريخ مرضي الهائل، لقد عاد علي ثلاث مرات في هذه الفترة، ولا أريد أن أقاومه بعد الآن. وها أنا أكتب إليك الآن بيدي اليمنى، ولكن بعد أن وضعت على مكان البقعة جمرة نار كترياق مسكن للنار الجهنمية الّتي تحترق فيها.

قبل أشهر ستة كنت أسعد رجل في الدنيا، كنت ثريًّا وقانعًا، أجد لذة في كل ما ينجذب إليه رجل في الخامسة والثلاثين من عمره؛ تزوجت قبل سنة، وكانت زوجتي فتاة لطيفة مثقفة وفي غاية الجمال، وكانت صديقة لكونتيسة لا يبعد قصرها كثيرًا عن أملاكي، مرّت علي ستة أشهر وأنا أهنأ ما يكون إنسان، وكل يوم يأتيني بسعادة أعظم من سابقه، كانت تسير مسافة أميال على الطريق لملاقاتي كلما اضطررت للنزول إلى المدينة، وما كانت لتمكث أكثر من بضع ساعات عند مربيتها الّتي كانت تتردد عليها أحيانًا، بل إن مجرد ظهور أحد غيري في أحلامها كان عندها جريمة لا تغتفر! وبالاختصار كانت طفلة جميلة بريئة.

غير أنني لا أدري ما الّذي ساقني إلى الاعتقاد بأن هذا إنما هو تظاهر منها. لقد بلغ الإنسان في الحماقة ما يجعله يسعى مفتشًا عن الشقاء وهو في أوج سعادته.

كانت لديها آلة خياطة صغيرة، تحتفظ بدرجها مغلقًا تمامًا، فأخذ هذا يعذبني، وقد لاحظت مرارًا أنها لا تترك المفتاح على الدرج، وأنها لا تتركه مفتوحًا أبدًا! فما هو هذا الشيء الّذي تخبئه عني بهذا الحرص الشديد؟ أخذت الغيرة تنهشني، لم أصدق عينيها البريئتين، ألا يجوز أن يكون كل ذلك خداعًا ومكرًا؟

وفي يوم من الأيام أتت صديقتها الكونتيسة، وأغرتها بالذهاب معها لتقضي ذلك اليوم في قصرها، ووعدتها بأني سألحق بهما بعد الظهر.

وما كادت العربة تتحرك من فناء الدار حتى ابتدأت في معالجة فتح ذلك الدرج، وإذا بأحد المفاتيح الّتي جربتها يفتحه في النهاية، وبعد أن بعثرت عدة أشياء نسوية من محفظة حريرية وجدت رزمة من الرسائل، يستطيع المرء إدراك ماهيتها من أول نظرة، كانت بالطبع رسائل غرامية مربوط بشريط قرنفلي.

لم أقف لأتروى بأنه ليس من الشرف أن أفتش عن أسرار زوجتي أيام الصبا! ولكن

الدافع الّذي حثني على الاستمرار هو أنها ربما كتبت تلك الرسائل بعد أن حملت اسمي... فككت الشريط وقرأتها بأكملها، الواحدة تلو الأخرى.

كانت تلك الساعة أرهب ساعة في حياتي.

لقد كشفت الرسائل عن أعظم خيانة اقترفها إنسان ضد إنسان! كان كاتبها أعز صديق لدي... أما لهجتها فقد كشفت عن ألفة حميمة عميقة، وعبرت عن أرق المشاعر والعواطف. كم كان يحثها على التكتم! ثم يشير عليها بماذا تفعل لكي تخدع زوجها وتتركه في غفلته! لقد كتبت الرسائل كلها بعد زواجنا، وكنت أظن بأنني سعيد! لا أريد أن أصف مشاعري. لقد شربت السم حتى آخر قطرة.

طويت الرسائل، وأرجعتها إلى مخبئها ثانية، ثم أغلقت الدرج.

كنت أعلم أنني إذا لم أذهب إلى القصر فسترجع في المساء، وهذا ما حصل بالفعل، قفزت من العربة بجذل، وخفت للقائي في الرواق بمنتهى الرقة، فتظاهرت كأنما لم يحدث أي شيء.

أعمتني الغيرة، وسيطر علي الغضب، فخنقتها، وسقطت قطرة دم على يدي، لم ألاحظها إلّا في الصباح.

ولما رجعت إلى البيت كانت الكونتيسة قد وصلت في الوقت نفسه، لقد أتت متأخرة فلم تلحق الجنازة؛ لأنني كنت قد رتبت هذا عن عمد وقصد، كانت متوترة الأعصاب، ومضطربة أشد الاضطراب، لقد كاد الهلع وصدمة الخبر أن يفقداها رشدها، فكانت تتكلم بصورة غريبة فلم أدرك ما الّذي تعنيه عندما حاولت أن تعزّيني، بل إنني لم أصغ إليها بانتباه؛ لأنني لم أكن في حاجة إلى تعزية، ثم أمسكت بيدي بين راحتيها، وقال أنها ترغب بأن تفضي إليّ بسر، راجية أن لا أحاول استغلاله في المستقبل.

قالت إنها كانت قد أودعت رزمة من الرسائل عند زوجتي المرحومة، وأنها لم تستطع أن تحتفظ بها في بيتها لطابعها الخاص، ولذلك رجتني أن أعيدها إليها، وعندما سمعت منها هذا شعرت بقشعريرة تسري في سلسلة ظهري، وبهدوء مصطنع سألتها: "ماذا تحوي هذه الرسائل؟" فارتعدت لهذا السؤال وقالت:

ـ كانت زوجتك أخلص وأشرف امرأة صادفتها في حياتي، إنها لم تسألني عن فحواها، بل أقسمت أنها لن تنظر فيها.

ـ أين كانت تحتفظ برسائلك؟

ـ قالت أنها تحتفظ بها في درج آلة الخياطة المغلق بالقفل، وهي مربوطة بشريط قرنفلي، ستعرفها للتو من شكلها، ثلاثون رسالة بالتمام.

أخذتها للغرفة حيث كانت آلة الخياطة موضوعة وفتحت الدرج، وأخذت رزمة الرسائل وناولتها إياها.

ـ هل هذه هي الرسائل؟

فمدت إليها يدها بلهفة فلم أجرؤ على رفع عيني إليها لئلا تقرأ فيهما شيئًا. ثم تركت الغرفة.

وبعد دفن زوجتي بأسبوع واحد حل ألم بالغ في تلك البقعة على يدي حيث سقطت نقطة الدم في تلك الليلة المخيفة، أما ما حدث بعد ذلك فأنت تعرفه.

إني أعلم تمامًا أن هذا ليس إيحاء ذاتيًا، ولكنني لا أستطيع أن أتخلص منه، إنه القصاص على تهوري وقسوتي، لن أحاول مقاومة الألم بعد الآن، إني سأنضم إليها عمّا قريب، وسأحاول أن أنال غفرانها، لا شك أنها ستغفر لي، وستحبني كما كانت تحبني وهي على قيد الحياة. إنني أشكر لك أيها الطبيب كل ما فعلته من أجلي.}

الحلم الأخير

هانس كريستيان أندرسن *

في أعلى منحدرات الشّاطئ في الغابة، وليس بعيدًا عن حافّة البحر، وقفت سنديانة عجوز في منتهى الكبر، كانت قد بلغت من العمر ثلاثمئة وخمسًا وستين سنة، ولكنّ عدد هذه السّنين الطّويلة لديها كان كعدد الأيّام لدينا، نحن نستيقظ في النّهار، وننام في أثناء اللّيل ونحلم، ولكنّ الأمر ليس كذلك مع الشَّجَرَة؛ فهي مضطرّة إلى البقاء مستيقظة طوال ثلاثة فصول من السَّنَة، ولا تحصل على قسطها من النَّوم إلّا عندما يحلّ فصل الشّتاء، فالشّتاء هو ليلها، ووقت راحتها بعد يومها الطّويل المتواصل: الرّبيع والصّيف والخريف. ففي أيّام الصّيف القائظة كثيرًا ما طارت (أفيميرا) الذُّبابَة الَّتي تحيا يومًا واحدًا، وراحت تحوم حول السِّنْدِيانَة الهرمة وتتمتّع بالحياة، وملؤها السَّعادة. وإذا ما استراحت هذه المخلوقة لحظة على وريقة من وريقاتها الغضّة العريضة هتفت بها السِّنْدِيانَة قائلة:

ـ "يالك من مخلوقة صغيرة مسكينة! حياتك كلّها ما هي إلّا يوم واحد. فياله ما أقصره! شيء مؤسف حقًّا."

وكانت المخلوقة الصَّغيرَة تجيب دومًا:

ـ "مؤسفٌ ماذا تعنين؟ إنّ كلّ ما هو حولي برّاق ودافئ وجميل إلى درجة عجيبة، وهذا ممّا يشيع الفرح في نفسي."

ـ "ولكن ليوم واحد فقط، ثمَّ ينقضي."

فكَّرت الذُّبابَة: "ينقضي! ماذا تعنين: ينقضي؟ هل لن ينقضي يومك أنت أيضًا؟"

ـ "كلّا، إنّني من المحتمل جدًّا أن أعيش آلاف الأيّام من أيّامك، وما يومي إلّا ثلاثة فصول كاملة من السَّنَة! وأيم الحقّ إنّه من الطّول بحيث يصعب عليك جدًّا حسبانه."

ـ "إذن أنا لا أفهمك، قد يكون لك الآلاف من أيّامي، ولكن أنا لي آلاف اللّحظات، يمكنني أن أفرح فيها وأسعد، هل سينتهي جمال العالم كلّه عندما تموتين؟"

فأجابت الشَّجَرَة:

* كاتب دانمركي (1805-1875).

ـ "كلّا بل إنّه سيدوم أكثر من هذا بكثير، إلى ما لا نهاية، تفوق عن تفكيري."

فقالت الذُّبابَة الصَّغيرَة:

ـ "حسنًا، إنّنا نعيش نفس الزّمان إذن، ولكنّنا نختلف في الحساب."ثُمَّ رقصت المخلوقة الصَّغيرَة وانسابت في الهواء جذلة بجناحيها الرَّقيقين الشَفافين المخمليَّين، طروبة في الأنسام العطرة المشبَّعة بعبير الورود البريّة، ونور السّيسبان وزهر العسل الآتية من أسيجة الجنائن المحمّلة بالعطر البريّ وزهر الرّبيع والنّعناع. كانت الرّائحة قويّة يكاد عطرها يسكر الذُّبابَة الصَّغيرَة. لقد كان اليوم طويلًا جميلًا مليئًا بالحبور والمسرّات الحلوة حتّى إنّ الذُّبابَة عندما أوشكتِ الشَّمْس على المغيب جعلت تحسّ بالتّعب من كلّ ما ذاقته فيه من سعادة ومتعة، وما عاد جناحاها يقويان على حملها؛ فانسابت بكلّ رقّة وبطء على أوراق العشب المتماوجة النّاعمة، وحرّكت رأسها الصّغير على قدر ما استطاعت، ثُمَّ نامت بسلام وعذوبة، وهكذا ماتت الذُّبابَة.

قالت السِّنْدِيانَة:

ـ "يا للمخلوقة الصَّغيرَة المسكينة! ويا لفظاعة حياتها الصَّغيرَة!"

وهكذا كان الرَّقْص يُعاد في كلّ يوم من أيّام الصّيف. وتطرح الأسئلة نفسها، وتعطى الأجوبة نفسها. ولقد جرى ذلك لأجيال عديدة متوالية في حياة (أفيميرا) وكلّ مخلوقة منها تشعر بالحبور نفسه، والسَّعادة نفسها.

ظلّت السِّنْدِيانَة مستيقظة طوال نهار الرّبيع صبحه، والصّيف ظهره، والخريف مسائه. ثُمَّ بدأ اللّيل يجرّ أذياله، ودنا وقت راحتها- لقد أقبل الشّتاء، وبدأت الزّوابع تنشد: "مساء الخير، مساء الخير"، وسقطت ورقة هنا، ووريقة هناك، وأخذت الرّياح تنشد لها، وتهدهدها كي تنام. فسمع لعساليجها الطّاعنة طقطقة من شدّة السّرور، لقد كانت ليلتها الخامسة والسّتين بعد الثّلاثمئة، ولكنّها الآن بموجب تقويم البشر، في القرن الرّابع من وجودها.

وقفت البلوطة هناك عارية من أوراقها؛ لتأخذ راحتها في أثناء الشّتاء الطّويل، ولتحلم أحلامًا كثيرة ملأى بالأحداث الّتي وقعت لها في مجرى حياتها، كانت أضخم وأحسن شجرة في الغابة، تعالت قمّتها وعظمت فوق جميع الأشجار الأخرى، وكانت ترى من بعيد من أقصى البحر حتّى أنّها كانت للملّاحين علمًا، ولم يدر بخلَدها يومًا كم من العيون

ترنو بشوق إليها، وفي سامق قمّتها بنت الحمامة البريّة عشّها بين الفروع، وشرع الوقوق في إحياء حفلته الصَّوتيّة المعتادة فتجاوبت أنغامه المحبوبة بين الأغصان. وفي الخريف عندما كانت الأوراق تبدو وكأنّها صفائح نحاس مطروقة، كانت العصافير العابرة تأتي لترتاح على أفنانها قبل أن تطير وتجتاز البحر، ولكن الآن والفصل شتاء والشَّجَرَة عارية، كان باستطاعة كلّ امرئ أن يرى كم كانت أغصانها ملتوية ومنحنية وهي تتفرّع وتمتدّ من جذعها. أتت العقبان والغربان بالتّناوب وجلست عليها، وتحدّثت عن الأوقات العسيرة الَّتي بدأت، وعن المشقّة في الحصول على الطّعام في الشّتاء.

كان عيد الميلاد قد قرب عندما حلمت الشَّجَرَة حلمًا. لا ريب أنّها كانت لديها نوع من الإحساس بأنّ وقت العيد قد حان. وبدا لها اليوم وكأنّه من أيام الصّيف الجميلة، دافئًا لطيفًا. كانت هامتها العظيمة متوّجة بأوراق خضراء يانعة، وأشعّة الشَّمْس تلعب بين الوريقات والأغصان، والهواء مثقل بعطر الأعشاب والنّوار. وطاردت فراشات ملوّنة بعضها بعضًا، ورقص ذباب الصّيف حولها كأنّما خلق العالم لهم وحدهم ليرقصوا فيه ويفرحوا. وبدا للشّجرة أنّ جميع الأحداث الَّتي وقعت لها في سني حياتها تمرّ أمامها في موكب طويل.

رأت فرسان العصور القديمة يجتازون الغابة مع النّساء النّبيلات ممتطين صهوات جيادهم الأصيلة، والرّيش يتماوج على قبّعاتهم، والصّقور جاثمة على معاصمهم.

وعلا صوت أبواق الصّيد، ونبحت الكلاب. رأت محاربين ينصبون خيامهم وهم في ثياب ملوّنة ودروع برّاقة، مع حراب وبلطات. ثمّ توقّدت نيران الحراسة، وغنّى الرّجال، وناموا تحت أغصانها المضيافة، ثمّ رأت العشّاق يلتقون قربها بهدوء وسعادة على ضوء القمر. ويحفرون الأحرف الأولى من أسمائهم في لحائها وجذعها الأخضر الحائل. وحدث مرّة، ولكن سنين انقضت منذ ذلك الحين، إنَّ بعض المسافرين المرحين علّقوا على أحد أغصانها آلات الطّرب وقيثارات، وبدا لها أنّها مازالت معلّقة هناك، وأنّها تسمع أنغامها الشّجيّة. وهدلت الحمامات البريّة كأنّها تريد أن تعبّر عن مشاعر الشَّجَرَة. وصاح الوقوق يعلمها كم بقي لها من أيّام الصّيف لتحياها، ثمّ شعرت كأنّما حياة جديدة أخذت تختلج في كلّ عرق من عروقها وجذعها وأوراقها، وتنساب صاعدة إلى فروعها الشّامخة. شعرت الشَّجَرَة أنّها أخذت تنبسط وتمتدّ بينما كانت قوّة الحياة الدّافقة تسري في جذورها تحت

التّراب، وفيما هي تعلو بقوّة متزايدة اتّسعت أغصانها العليا وامتلأت أكثر فأكثر، وبتناسق مع نموّها ازداد رضاها عن نفسها، ونشأ عندها شوق مُلِحٌّ في أن تتناهى في العلوّ حتّى تصل إلى الشَّمْس الدّافئة نفسها، وخُيِّل إليها أنَّ فروعها السّامقة فرّقت الغيوم حيث تراءت كأسراب عصافير راحلة أو كإوزّات كبيرة بيضاء تنساب تحتها. وبدا كأنّما كلّ وريقة من أوراقها لها عينان تبصران، وظهرت النّجوم في وضح النّهار كبيرة تتلألأ كأعين وادعة صافية، تعيد للأذهان نظرات الطّفولة البريئة، أو أعين العشّاق الّذين التقوا مرّة تحت أغصان البلّوطة الهرمة، كانت هذه اللّحظات للسِّنْدِيانَة لحظات سعادة ملأى بالفرح.

ولكن، مع كلّ هذا، شعرت الشَّجَرَة وهي في أوج سعادتها برغبة مُلِحَّة في أن تتمكَّن جميع الأشجار والعليقات والنّباتات والزّهور الّتي تحتها من أن تنمو وتتعالى مثلما نمت وتعالت؛ لترى هذا البهاء، وتختبر سعادة مُماثِلة، لم يكن في وسع البَلّوطة العظيمة المهيبة أن تتذوّق السَّعادة كاملة، وبقيّة النّباتات والأشجار عظيمها وحقيرها لا تشاركها فيها، وسرى هذا الشّعور بالحنوّ في جميع الأغصان والأوراق! تدفَّق دافئًا كأنَّه سرى في ألياف قلب بشريّ. واهتزّت هامة الشَّجَرَة هنا وهناك، ثمَّ هبّت عليها نفحة من عبير الصّعتر، وتبعتها رائحة زهر العسل والزّنابق الأكثر نفاذًا، وخيّل إليها أنّها سمعت أنغام الوقوق. وأخيرًا تحقّق ما تصبو إليه. رأت البلّوطة قمم أشجار الغابة الخضراء تشقّ الغيوم وهي تنمو شيئًا فشيئًا وتتعالى تحتها، وكذلك اندفعت النّباتات وأشجار العليق في العلوّ حتّى أنّ بعضها انشقّ عند الجذور متسارعًا في النّموّ. كانت شجرة السّندر أسرعها جميعًا، أطلقت جذعها الرّشيق إلى العلا كوميض البرق في خطّ منعرج، وانتشرت أغصانها حولها كأعلام خضراء شفّافة، كلّ ما في الغابة حتّى الخيزران البنيّ الأسيل ذو الرّيش النّاعم الدّقيق نما مع البقية، بينما حلّقت العصافير وهي تصدح بتغاريدها. وجلس جندب ينظّف جناحيه برجليه على وريقة عشب كانت تتطاير في الهواء كشريط أخضر طويل. وأخذت الخنافس تدندن والنّحل يطنّ، والعصافير تزقزق كلّ منها على طريقته. لقد كان الهواء مليئًا بأصوات الغناء والبهجة.

ثمّ راحت الشَّجَرَة تتساءل: "أين الزّهرة الزّرقاء الصَّغيرَة الّتي قرب الماء؟ وأين الأقاحي الصّفراء الحلوة؟ وصعتر الصّيف الجميل، أين هو؟ والسّوسن الّذي كسا الأرض بالنّورِ في السَّنَة المنصرمة؟ وشجرة التّفاح البريّة ونوارها الجميل، وكلّ ما تزهو به الغابة سنة إثر سنة؟"ولمّا رأت الكلّ حولها، صاحت البلّوطة بنغمة كلّها حبور: "ما أجمل هذا! أكاد لا

أصدّقه! هل في الحياة سعادة كهذه؟"لقد بدا لها أنّ الأمر يكاد يكون مستحيلًا.

وبينما الشَّجَرَة الهرمة تنمو وتعلو سامقة في الفضاء شعرت أنّ جذورها تفكّ عقالها من الأرض. وهتفت: "لعمري إنّ هذا حسن وبديع، لا قيود هناك تأسرني بعد الآن. إنّ بإمكاني أنْ أطير إلى أعلى الأعالي في النّور والمجد. وكلّ الّذين أحبّهم معي، الصّغار والكبار."

هذا كان حلم السِّنْدِيانَة الهرمة.

وبينما هي تحلم هبّت عاصفة شديدة عبر الأرض والبحر، وأخذت أمواج هائلة تكتسح الشّاطئ، وفي اللّحظة الّتي خيّل إليها في الحلم أنّها تفكّ إسارها من الأرض سمع صوت انسحاق وطرطقة في قلب الشَّجَرَة، وانقلعت جذورها من الأرض، وسقطت... وهكذا انقضت أعوامها الثّلاثمئة والخمسة والستون كيوم (أفيميرا) الوحيد.

وفي صباح العيد كانت العاصفة قد هدأت عند بزوغ الشَّمْس، ثمّ قرعت أجراس الفرح من كلّ صوب، وتعالى الدّخان من مواقد الأكواخ شاقًّا طريقه في السّماء الزّرقاء. هدأ البحر، ورفعت الأعلام، وعرضت على ظهر باخرة عظيمة كانت قد قاومت الزّوبعة في أثناء اللّيل إشارة فرح وابتهاج.

وهتف البحّارة: "لقد سقطت الشَّجَرَة!... سقطت السِّنْدِيانَة القديمة، وهي علامتنا البريّة على الشّاطئ! لا ريب أنّها اقتلعت في عاصفة اللّيلة الماضية. فمن ذا الّذي يستطيع أن يعيدها كما كانت؟ إنّه لأسف عظيم ألّا يتمكّن أحد من ذلك."

هذه كانت خطبة الرّثاء على الشَّجَرَة. خطبة قصيرة، لكنّها بليغة.

وبقيت السِّنْدِيانَة الهرمة ملقاة هناك على الشّاطئ تتراكم عليها الثّلوج كلّها.

الشيخان

رسالة، أيها الأب أزان؟

نعم يا سيدي... هذا خطاب قادم من (باريس).

لقد كان مزهوًّا فخورًا بأنها رسالة قادمة من (باريس)، هذا الأب أزان الطيب.. لا أنا. فإن هاتفًا في نفسي أخذ يحدثني قائلًا إن هذه ال(باريس)ية من أهل شارع سان جاك -وقد حكت على مائدتي ارتجالًا، دون سابق إنذار، ومنذ الصباح المبكر- ستضيّع عليّ نهاري. ولم يخب ظني. انظروا... هاهي ذي:

ـ "عليك أن تؤدي لي خدمة يا صاحبي. فستغلق طاحونتك يومًا واحدًا، وتحمل نفسك فورًا إلى (إيجوييـر)... إن (إيجوييـر) بلدة محترمة على بعد ثمانية أو عشرة أميال من عندك. أي إنها نزهة لك، عندما تصل، اسأل عن ملجأ الأيتام. وأول بيت بعد ذلك هو بيت منخفض ذو نوافذ رمادية وحديقة صغيرة وراءه. ادخل دون أن تطرق الباب، فالباب مفتوح دائمًا. وصِحْ - وأنت داخل - بأعلى صوتك: يومٌ سعيدٌ - أيها الناس الطيبون - إنني صديق موريس)، وإذ ذاك سترى شيخين، أوه! ولكنهما عجوزان، عجوزان، عتيقان جدًّا، يمدان لك أذرعهما وهما غارقان في مقعديهما الكبيرين، فعانقهما من قبلي، عانقهما عناقًا حارًّا من كل قلبك، كما لو كانا جديك. ثم ستتحدثون، سيكلمانك عني، لن يكلماك إلّا عني، وسيقصان عليك ألف عتاهة تسمعها دون أن تضحك.. إياك أن تضحك. أسامع أنت؟... إنهما جداي، كائنان سأظل صنيعتهما ما حييت، وهما لم يرياني منذ عشر سنين... عشر سنين، ذلك وقت طويل! ولكن ماذا تريد؟ أنا (باريس) ممسكة بي، وهما الشيخوخة قعدت بهما... إنهما شيخان هرمان لو حاولا أن يأتيا لزيارتي لتناثرا في الطريق... من حسن الحظ أنّك هناك يا عزيزي الطحان. وإذا ما عانقك هذان المسكينان الطيبان ظنا أنهما يعانقانني أنا بعض الشيء... لقد طالما حدثتهما عنا وعن هذه الصداقة الكريمة التي...".

ألا تبًّا للصداقة! فقد كان صباح ذلك اليوم عظيمًا رائعًا، ولكنه لم يكن يساوي شيئًا لمن يقطع الطرقات: كانت (المسترال) عاصفة، والشمس متأججة، والجو جو يوم من أيام (البروفانس) حقًّا. وحين وصلتني هذه الرسالة. كنت قد اتخذت مكمني بين صخرتين،

وكنت أمني نفسي بالقبوع هناك طول النهار، كالضب، أعب من النور وأنا أتسمع نشيد أشجار الصنوبر. وبعد، فماذا تريدنني أن أفعل؟ أقفلت طاحونتي وأنا أسب وألعن، ووضعت المفتاح تحت الثغرة الّتي تمر منها القطط، وأخذت عصاي وغليوني، وانطلقت.

وبلغت (إيجوبير) نحو الساعة الثانية. كانت القرية قفرًا، فقد أهلها جميعًا في الحقول... وفي شجر الدردار المغروس على الطريق، وقد ابيضت أغصانه من القتام، كانت الجنادب تغني كأنها في قلب (كرو).

والحق أن حمارًا كان يتمتع بالشمس في الميدان أمام ديوان العمدة، وسربًا من الحمام كان يحوم حول النافورة، ولكن لم يكن هناك أحد ليدلني على ملجأ الأيتام. ومن سعد طالعي، ظهرت لي فجأة عجوز، مقعية في ركن بابها تغزل، فسألتها عن ضالتي، وفدلّتني على الملجأ، وكان دارًا ضخمة كالحة الجدران قابضة المظهر قاتمة. وجوار هذا البناء، لمحت بناء آخر أصغر منه. نوافذ رمادية، وحديقة خلفية... عرفت الدار بغير توهم، ودخلت دون أن أخبط.

لن انسى ما حييت مشهد تلك الدار. سأتمثل دائمًا ذلك الدهليز الرطيب الهادئ، والحائط الوردي الطلاء، والحديقة الصغيرة الّتي كانت تهتز في أفق الصورة من خلال ستارة. على النافذة وضيئة اللون، وصفائح الجدران تلك الحالية بأزهار وقياثير ذابلة. لقد خيل إلي أنني أدخل بيت قاض من قضاة الأشراف.. وفي آخر الدهليز على يدي اليسرى، من باب منفرج، سمعت نبض ساعة ضخمة، وصوت طفلة صغيرة، طفلة من تلميذات المدارس كانت تقرأ، فاقتربت في هدوء من ذلك الباب ونظرت...

في سكون غرفة صغيرة وضوئها الخافت، كان شيخًا طيبًا متوردَ الوجنتين، مغضن الجلد حتى أطراف أصابعه، ناعسًا في قلب كرسي وثير، وقد انفتح فوه وظلت يداه على ركبتيه. وعند قدميه جلست صبية ترتدي الزرقة -ثوبًا أزرق فضفاضًا وقلنسوة صغيرة. هو زي الملجأ- تقرأ سيرة في كتاب أكبر منها.. ولقد فعلت هذه المطالعة الإعجازية فعلها العجيب في البيت كله، فنام الشيخ في مقعده. ونام الذباب في السقف، ونامت (الكناريا) في قفصها هناك على النافذة، بينما استرسلت الساعة الغليظة المستندة إلى الجدار في غطيطها تردد تك تلك تك تاك. لم يكن يقظًا في الغرفة كلها إلّا عصابة من النور تسقط مستقيمة ناصعة من بين مصراعي النافذة الموصدة، زاخرة بالشرر الحي.

والرقصات الذرية الدقيقة... وفي وسط هذا السبات العامِّ، مضت الطفلة تواصل قراءتها وتلقي الألفاظ إلقاء جديًّا رهيبًا "وسر... عان... ما... انقض... عليه... أسدان... والتهـ... ـماه...".

في تلك اللحظة دخلت أنا... ولو اقتحم الحجرة أسد، لما أثار فيها من الذهول أكثر مما أثرت. إنها لمفاجأة مسرحية حقًّا! ندت عن الطفلة صيحة، وهوى الكتاب الكبير، وهبت الكناريا والذباب، ودقت الساعة، وقفز الشيخ واشرأب مشدوها، ووقفت أنا على أسكفة الباب وبي شيء من اضطراب، أهتف بأعلى صوتي:

يومٌ سعيدٌ -أيها الناس الطيبون- أنا صديق موريس. أوه! إذ ذاك، يا ليتكم رأيتموه، هذا الشيخ الطيب المسكين، يا ليتكم رأيتموه يقبل نحوي مادًّا ذراعيه يعانقني، ويصافحني، ويهيم في الغرفة شاردًا يقول:

ـ يا إلهي! يا إلهي!

لقد أشرقت جميع غضونه، وانبسطت أساريره، واحمر وجهه، وراح يتمتم:

ـ آه! يا سيدي... آه! يا سيدي...

ثم مضى إلى داخل البيت يدعو:

ـ (ماتت)!

وإذا باب يفتح، وأسمع وقع أقدار فأر في الدهليز... إنها (ماتت) لن يكون أجمل من تلك العجوز الصغيرة بقلنسوتها ذات الشريط المعقود، وثوبها البني الباهت، ومنديلها المطرز الّذي حملته في يدها احتفاء بي، على طريقة العصر الماضي.. ويا له من مشهد عاطفي مؤثر! لقد كانا متشابهين، فلو قد ارتدى الرجل وشاحًا وأشرطة صفراء لاستطعت أن تدعوه ماتت، هو أيضًا. ولكن ماتت الحقيقة لا بد قد بكت كثيرًا في حياتها، فإنها لتفوق صاحبها تجعدًا وغضونًا. وكصاحبها أيضًا، كانت لها طفلة من بنات الملجأ بالقرب منها، حارسة صغيرة في ثوب أزرق فضفاض، ما كانت تفترق عنها لحظة. وإن مشهد هذين الشيخين تحرسهما هاتان اليتيمتان، لهو أشد ما تستطيع أن تتصور تأثيرًا في قلبك.

وأقبلت مامت فبدأت تنحني انحناءة كبيرة، تريد بها أن تحييني كما كانوا يفعلون في عهد الفروسية، ولكن الشيخ بكلمة منه بتر انحناءتها:

ـ أنه صديق موريس...

وإذا هي ترتجف، وتبكي، وتفقد منديلها، وتحمر، وتحمر وتفوقه احمرارًا... هؤلاء الشيوخ! ليس في عروقهم إلّا قطرة دم واحدة، وعند أقل انفعال تثب هذه القطرة إلى وجوههم...

قالت العجوز لصغيرتها:

ـ أسرعي، أسرعي بكرسي...

وأهاب الشيخ بصغيرته:

ـ افتحي النافذة.

ثم أخذ كل منهما بإحدى يدي، واقتادني وهما يدبان على أرض الغرفة حتى بلغا بي النافذة الّتي فتحت على مصراعيها ليرياني في جلاء.

وتدانت المقاعد، وإذا أنا جالس بينهما على كرسي صغير والصغيرتان الزرقاوان وراءنا، وإذا الاستجواب يبدأ:

ـ كيف حاله؟ ماذا يعمل؟ لماذا لا يأتي؟ أمسرور هو؟

وهكذا انهالت عليّ أسئلتها الثرثارة ساعات طوالًا.

أما أنا، فكنت أبذل أقصى ما في وسعي ألا أجيب عن جميع أسئلتهما، أسرد عن صديقي ما أعرف من تفاصيل، وأختلق دون حياء ما لا أعرف، حريصًا قبل كل شيء على ألا أبوح بأنه ما عنَّ لي يومًا أن ألاحظ هل مصاريع نوافذه محكمة القفل إذا أراد أن يوصدها أو من أيِّ لون قد اتخذ ورق غرفته.

ـ ورق غرفته؟... إنه ازرق يا سيدتي، أزرق فاتح، تحليه زخارف من أكاليل الورد وورق الشجر...

فقالت العجوز المسكينة وقد فاض بها الحنان:

ـ حقًّا؟

وأضافت وهي تلتفت إلى زوجها:

ـ ياله من ولد طيب!

فواصل الآخر في حماسة:

ـ أوه! أجل ياله من ولد طيب!

وظلا طيلة الوقت يتبادلان في أثناء حديثي إيماءات برأسيهما، وضحكات صغيرة ماكرة، وغمزات بأعينهما، وإشارات اصطلحا عليها للتفاهم بينهما، أو كان الشيخ يدنو مني ليهمس لي :

ـ ارفع صوتك...إن أذنها ثقيلة بعض الشيء.

بينما تهمس لي هي من ناحيتها:

ـ بصوت أعلى قليلا، أرجوك!... فإنه لا يكاد يسمع.

وإذ ذاك كنت أرفع صوتي، فيشكرني كلاهما بابتسامة، وفي هذه البسمات الذابلة الّتي كانت تنحني علي باحثة في غور عيني عن صورة موريسها، كنت أرى، وأنا شديد التأثر، صورة صاحبي المنشودة غامضة محجبة لا يكاد يدركها البصر. فكأني كنت أرى صديقي يبتسم لي، بعيدًا جدًّا في ضباب.

وفجأة انتصب الشيخ فوق مقعده:

ـ إني لأفكر في الأمر، ماتت... لعله لم يتناول غداءه!

فترفع ماتت ذراعيها نحو السماء مشدوهة مضطربة:

ـ لم يتناول غداءه! ياسبحان اللّه!

وكنت أظن أنهما ما زالا يتحدثان عن موريس، وهممت أن أجيب بأن هذا الولد الطيب لم يكن يتأخر قط عن الساعة الثانية عشرة ظهرًا لكي يجلس إلى المائدة. ولكنهما كانا يتكلمان عني أنا، ويا ليتكم شهدتم أي استعداد أقام البيت وأقعده حين صرحت بأنني ما زلت على الطوى.

ـ أسرعا بأدوات المائدة أيتها الصغيرتان الزرقاوان! اجذبا الخوان إلى وسط الغرفة، وأبسط سماط يوم الأحد، وأخرجا الأطباق ذوات الأزهار. كفانا ضحكًا من فضلكما! ولنسرع...

وإني لأعتقد تمام الاعتقاد أنهما كانتا تسرعان، فلم يكد ينقضي من الوقت إلّا ما يلزم لكسر ثلاثة أطباق، حتى كان الغداء معدًّا.

وقالت لي مامت وهي تقودني إلى الخوان:

ـ غداء صغير طيب!... . بيد أنك ستكون وحدك إلى المائدة...أما نحن فقد أكلنا صباح

اليـوم.

يـا لهذيـن الشـيخين المسـكينين! إن مـن يدخـل عليهمـا فـي أيـة سـاعة، يجدهمـا دائمًـا قـد أكلا فـي الصبـاح.

وبالغـداء مامـت الصغيـر الطيـب! كان يتألـف مـن إصبعيـن مـن اللـب، وبعـض التمـر، وقطعـة (باركيـت) وهـي شـيء يشـبه الفطيـر، وتلـك مـادة تكفـي لإطعامهـا وإطعـام (كناريهـا) أيامًـا ثمانيـة علـى أقـل تقديـر... فمـا قولكـم وقـد أتيـت وحـدي علـى كل هـذه المـؤن عـن آخرهـا!... وبنـاء عليـه، أي اسـتنكار حـول المائـدة! يـا لـي مـن الصغيرتيـن الزرقاويـن وقـد أخذتـا تتهامسـان وتتلامـزان بمرفقيهمـا، ويـا لـي مـن أفـراخ الكناريـا هنـاك فـي قـاع قفصهـا وقـد بـدا عليهـا أنهـا تتقـاول: "أوه! هـذا السـيد الّـذي يلتهـم الباركيـت كلهـا!".

وفـي الواقـع لقـد التهمهـا كلهـا، بـل ولـم أكـد أتنبـه إلـى ذلـك، إذ كنـت مشـغولًا يسـتغرقني النظـر حولـي فـي هـذه الحجـرة الوضيئـة الوادعـة الّتـي كان يتضـوع فيهـا لـون مـن أريـج الماضـي والأشـياء القديمـة.. كان هنـاك قبـل كل شـيء سـريران، وهمـا أشـبه بمهديـن، كنـت أتمثلهمـا فـي الصبـاح، قبـل شـروق الشـمس، ومـا زالا كامنيـن فـي سـتائرهما الفضفاضـة ذوات الأهـداب، ثـم تـدق السـاعة الثالثـة، وهـي اسـتيقاظ جميـع العجائـز:

ـ أنائمة أنت يامامت؟

ـ لا، ياصاحبي.

ـ أو ليس موريس ولدًا طيبًا؟

ـ أوه! أجل، إنه ولد طيب.

وكنـت أتخيـل علـى هـذا المنـوال حديثًـا بأكملـه، لا لشـيء إلّا لرؤيتـي فراشـي الشـيخين، وهذيـن السـريرين الصغيريـن القائميـن هـذا بجـوار هـذا...

كان موريـس كلفـا بالكـرز! ومـال الشـيخ علـى أذنـي يقـول فـي لهجـة شـرهة وهـو يقـدم لـي القـدح:

ـ إنـك لمحظـوظ، أنـت، إذا أتيـح لـك أن تتنـاول منـه!... . إن زوجتـي هـي الّتـي صنعتـه... لسـوف تتـذوق شـيئًا جيدًا.

واحسـرتاه! إن زوجتـه هـي الّتـي صنعتـه، ولكنهـا نسـيت أن تحليـه بالسـكر. مـاذا تريـدون؟

فالمـرء يمشـي شـارد الذهـن حيـن يهـرم. لقـد كان كـرزك لاذعـا حـادا يـا مسـكينتي مامـت.... غيـر أن ذلـك لـم يمنعنـي مـن أن أتجرعـه إلـى آخـره دون أن تطـرف لـي عيـن. وعندمـا انتهـى الطعـام، نهضـت أسـتأذن مضيفـي فـي الانصـراف. لقـد كانـا يـودان لـو اسـتبقياني بعـد ذلـك قليـلا لنتحـدث عـن الولـد الطيـب، ولكـن نـور النهـار كان يخبـو، وكانـت الطاحونـة بعيـدة، فلـم يكـن بـد مـن الرحيـل.

وكان الشيخ قد نهض حين هممت:

ـ مامت، معطفي.. أريد أن أرافقه حتى الميدان.

ولـم يكـن شـك فـي أن ماتـت، فـي قـراره نفسـها، كانـت تجـد أن بـرودة خفيـة -منـذ ذلـك الوقـت- قـد انتشـرت فـي الجـو لا تـأذن لصاحبهـا أن يرافقنـي حتـى الميـدان، ولكنهمـا لـم تـدع شـيئا مـن ذلـك يبـدو عليهـا. إلّا أننـي سـمعت هـذه الشـيخة المسـكينة بينمـا هـي تعينـه علـى دخـول ردنـي معطفـه، معطـف أسـباني بنـي قاتـم ذي أزرار صدفيـة، تقـول لـه فـي رقـة:

ـ لن تتأخر طويلًا، أليس كذلك؟

أما هو فأجاب في لهجة متخابثة متمنعة:

ـ هئ! هئ!... لست أدري... ربما...

وهنـا نظـر كل منهمـا فـي عينـي الآخـر ضاحـكًا إذ تريانهمـا يضحـكان، وأمسـت أفـراخ الكنـاري فـي ركنهـا تضحـك أيضـا علـى طريقتهـا الخاصـة.

... وكان الظـلام يهبـط الأرض حيـن خرجنـا، أنـا والجـد. وكانـت الزرقـاء تتبعنـا مـن بعيـد لكـي تعيـده، ولكنـه لـم يكـن يراهـا. بـل اسـتبد بـه الفخـر إذ يتأبـط ذراعـي، كالرجـل. وأشـرق وجـه مامـت عندمـا رأت ذلـك، مـن أسـكفة بيتهـا. وكان لرأسـها وهـي تنظـر إلينـا هـزات جميلـة، لعلهـا كانـت تقـول: "علـى الرغـم مـن كل شـيء، زوجـي العزيـز!... . إنـه مـا زال قـادرا علـى المشـي.)"

الصقر

غوستاف هلستروم *

كان (السر انغوراند) يذهب إلى الصيد كل يوم ويده في قفاز أحمر مطرز بالذهب، لأنه لم يكن ليوقظ في حناياه الحاسة الموسيقية سوى طيران الصقر الآيسلندي ورنين أجراسه الصغيرة، فتجعله يستنشق نسيم الصبح القرير ببهجة. وفي أحد الأيام طارد الصقر بلتونا داميا إلى مستنقع وراء الأجمة حيث وجده الصياد ودق عنقه، ولكن الصقر لم يكن ليعثر له على أثر. فهل أغرته فريسة جديدة، أم أنه عاف ماء المستنقع الكدر، أم أن خيلاءه دفعت به إلى التحليق في الأجواء حتى شطت به الريح؟ -عبثًا ذهبت محاولاتهم في العثور عليه. وعبثًا نادوه بأسماء محببة، وكذلك دوى صوت البوق من على كل رابية. فصفع (السر انغوراند) بقفازه كبير الصقارين على فمه المرتعش حتى سال منه الدم، ثم راح يرمح على جواده فوق العشب متجهًا صوب القصر وشفتاه مزمومتان بشدة متناهية، وجفناه مسدلان في كآبة أشد على عينيه المتراخيتين. أما الصقر فلم يجدوه.

ولكن (رينود) وجده وقد تعلق إزاره بشجيرة عليق وهو دون حراك ينتظر الموت جوعًا في براثنها الثابتة، أحد جناحيه معلق والآخر مرتفع بتحد ورأسه المستطيل ممتد إلى الأمام يتوعد بعينين ثابتتين ومنقار صارم. لقد كان جميلاً وهو قابع بين حبات العليق الحمراء كالدم، وارتعشت يد (رينود) لهفة وهو ينتزع إزاره من بين الشوك والأجراس الصغيرة ترن بين أصابعه على الحلقة المرسومة بطابع (السر انغوراند). وعلا صراخه بالفرح عندما شقت المخالب الحادة ذراعه المفتولة وأصبح الصقر ملكه.. صقر يمتاز بأعرض صدر وأطول جناحين وأنبل عينين كالذهب الملتهب.

لقد غدا ملكه دونما ريب، لأنه لن يستطيع مطلقًا أن يريه لأي إنسان، فهو يعلم بالقوانين الصارمة الّتي تحمي هوايات الفرسان الرياضية، إنه سيبتني له قفصًا في الغابة، فيتسلل في الصباح الباكر إلى هناك قبل أن ينفض الطير البرد عن نفسه ويجولان الحقول سوية، ويكتسحان بنظراتهما المناطق البيضاء الشاهقة، ولسوف يغرم كلاهما بالآخر، وأشعة الشمس تعلو وتنسكب على رأسيهما وتحمل الريح أفكارهما. أحكم (رينود) وثاقه ثانية، وركض

* كاتب سويدي حائز على جائزة نوبل في الآداب (1882-1953).

نحو البركة، ثم رجع سريعًا ببطة قتلها بحجر وقدمها للصقر، فأقبل عليها، فتخدر قلب (رينود) من النشوة لأن تلك كانت علامة من الصقر بأنه لا يحتقره وأنه سيكون له.

وأصبح الصقر ملكًا له، وكلما طقطقت العساليج المتجمدة بالصقيع تحت خطواته في سكون الصباح كان الصقر يحني رأسه ويصغي، وعيناه هادئتان ترقبان على حذر، ثم يقفز بخفة من قفصه مادًّا نفسه نحو يده وهو يرفرف بجناحيه كأنما يريد الطيران -أو يريد أن يذكره بذلك- ثم يسرعان في الخروج من الفلوات الرحبة حيث كان الضوء ينتشر شيئًا فشيئًا.

و ألقت عيونهما نظرات حادة على السماء المحمرة احمرارًا قاتمًا، وترامت التلال سوداء بالأيكات المتناثرة حيث رقدت الأشجار وأغصانها مثقلة بالعصافير الصامتة. وغدت السماء منبلجة البهاء تتوهج بالذهب والاحمرار، وأصبحت معالم الحقول زرقاء، طار البوم يسف على الأرض يلتمس مخبأ، ونشرت عصافير الصباح أجنحتها مسقسقة بلطف من البرد، وظهرت في طيرانها سوداء على صفحة الهواء المتلألئة. ولكن (رينود) وصقره أسرعا في سيرهما لأن هذه كانت عصافير الدوري والسمان -ولا يطمعان فيها فريسة. ولكن نزولًا عند المستنقعات كانت البلاتن تزعق وتطير بضربات طويلة من أجنحتها في دوائر واسعة، فهناك كانت الفريسة. وهناك أطلق الصقر عاليًا وصدره مصوب كالقدر وأجنحته مستعدة للقصف، ورآه (رينود) في أشعة الشمس وقد انقلب إلى لون الذهب فوقف معميَّ العينين مصابًا بالدوار بينما غدا الطير يصفر على أديم السماء. وبلغت مسامعه سخرية رنين أجراسه من زعقات البلاتن.

أخذت البلاتن تحوم في دوائر من خوفها. وفكرت آنًا في أن تحط على الشاطئ لكي تخبئ أعناقها الطويلة ورؤوسها البلهاء المرتعبة وأعرافها المنحنية تحت الأشجار القاتمة، وآنًا آخر حاولت مترددة أن تعلو في شكل حلزوني متكئة على أجنحتها العريضة في حملها إلى أعلى مما يستطيع عدوهم مطاردتها، وارتجفت كالقصب من الرعب المستولي على قلوبها.

ولكن الصقر التقط منذ البداية واحدًا من أقواها، واحدًا من أولئك الذين حلقوا عاليا لأول وهلة. أحب الصقر أن يجرب قوته وأن يشعر بالهواء الخفيف القرير تحت جناحيه،

ورفع نفسه بسرعة غير متلجلج وكأنه يحوم حول شعاع من الشمس. وللحال غدا هو الأعلى. وبان للعيان أصغر من العصفور الدوري، ولكن شيئًا من هيئة جناحيه وفي قوة جسده المركزة أعطت فكرة عن إشعاع عينيه الوحشيتين ومخالبه الممتدة، وانقض بغتة ثقيلاً كالفولاذ، على عنق فريسته الأعزل المتجه نحو الأعلى، وسقط الاثنان كحجر تكاد أجنحتهما لا تتحرك. وهرول (رينود) يخوض البركة بسرعة قبل أن ينشل البلتون نفسه ويستعيد صوابه من هول الضربة، فيجمع قواه ويستعمل منقاره الصارم في وحشية يائسة، غير أن الصقر عاجله بالضربة المميتة بحدة وسرعة، والتفت بعينيه الواسعتين نحو سيده لأنه استنكف أن يلطخ ريشه بالدم، وانتظر كي يوهب له القلب وهو ما يزال حارًّا.

لم يطر الصقر ثانية في ذلك اليوم، وعندما أطلقه رينود، وطيره عاليًا وركض وراءه مناديًا محرّضًا، خبط جناحيه بضع مرات، ثم جثم على كتفه مرة أخرى ببرود وكبرياء إزاء وجهه الصبياني الضاحك، وظهر أنه يحتقر جميع التوافه، فأحجم (رينود) عن تكرار ذلك بينما اكتسبت نظراته ونظرات الصقر الجدية البعيدة المدى. وغدا مخلصًا له أكثر من أي شيء آخر امتلكه في حياته، وخيل إليه أن الصقر قد قدّ من روحه وحنينه بجناحيه العريضين ولمحته المنتصرة. ولكن كان هنالك ألم في حبه، وتشاؤم كئيب من بلية منتظرة. وفي أحايين أخرى يداهمه الخوف لئلا يفارقه طيره دون اكتراث، ويختفي مع رنين أجراسه السافر. إن الفراغ الّذي سيتركه سيكون بمثابه الموت له ولا ريب، أو خيل إليه أنّ الصقر كان شرفًا يتألق على صفحة الهواء اللازوردي يجثهم الآن على كتفيه في انتظار سفرات جديدة.

وفي أوج فرحه شعر بالانقباض من تفاهة نفسه، وبالكاد جرؤ أن يلقي نظرة على الطير، وأحس بالألم في قلبه بأنه لن يستطيع أن يشاركه في أفراحه مطلقًا، وأن نظرته لن تلين أبدًا عند رؤية سيده. وركض إلى أرض الأحلام.

اضطجع على الأرض المنثورة بالأعشاب والخلنج الأحمر تحت رأسه، بينما انسابت الغيوم مجتازة كمصير بني البشر، خفيفة وثقيلة، مركزة في معالم ثابتة، أو مبعثرة في الهروب. يد الريح الخفيفة تخشخش، وراح (رينود) يقص الحكايات على صقره.

رجع الملك (آرثر) ثانية من بحر برياتي، وتسلم مرة أخرى سيفه (أكسكاليبر) الأرزق

كسماء الليل في طقس بارد. ورفع فرسانه الاثني عشر رؤوسهم الثقيلة عن المائدة الحجرية ونفضوا السبات عن أنفسهم، وارتجت الأرض من تحت أقدامهم وكان (رينود) أيضًا هناك، نبيل المولد وجواده يتبختر تحته، والصقر الّذي كان نائمًا الآن منحني الرأس، جثم منتصبًا على يده يصبو إلى نظراته بعينين متألقتن بالفرح وبالشمس الذهبية في الأساطير البطولية.

ولكن الغيوم انسابت مجتازة كأقدار البشر المحتومة تطارد بعضها البعض قائمة الواحدة منها فوق الأخرى، وشكلت قوسًا هائلاً من الكتل، حيث نفذت أشعة الشمس وانسكبت من فجواتها صفراء حادة كالسهام، وحلم الصقر أحلامًا حزينة كئيبة عن الغضب العنّين العاجز واستيقظ وهو يزعق.

لمح الصبية المتجولون طير (السر انغوراند) على يد (رينود). فقبض حثالات الفارس عليه وساقوه إلى القصر. وانتابته رعشة عندما أخذ الصقر منه لا يبدي حراكًا وكله كبرياء كعهده دائمًا دون أن يلفت عنقه المنحني ودون لمحة من عينيه الهادئتين الباردتين. أخذ الطير إلى سيده، ولكن السيد لم يبد أي عطف نحو محبوب فقده، وذلك لأنه سمح لنفسه بأن تلمسه أيد دونه شرفًا ومنزلة.

الطفل الجاسوس

كان يدعى (ستن)، (ستن) الصغير.

وكان طفلًا من أطفال (باريس) مهزول الجسم، شاحب الوجه، تستطيع أن تقدر له من العمر عشر سنين، أو ربما خمس عشرة سنة، فأنت لن تعرف له سنًا بعينها.

أما أمه فقد ماتت، وأما أبوه فقد كان من جنود البحرية الفرنسية ثم أصبح حارسًا يشرف على أحد ميادين حي التمبل. هناك الأطفال والمربيات، والسيدات المسنات اللواتي يحملن كراسيهن الصغيرة، والأمهات الفقيرات، كل (باريس) الّتي تدب وترد لتحط في ظل العربات بتلك الحدائق المحوطة بالأفاريز...كلهم كانوا يعرفون الأب (ستن) ويحبونه حبًّا جمًّا. وكانوا يعلمون أن تحت شاربه ذلك الخشن الصارم مبعث فزع الكلاب ومصدر خوف جراري الأرائك، تكمن ابتسامة حنو عذبة هي ابتسامة أمّ تقريبًا، وأنه ما عليك حتى تحظى بتلك الابتسامة إلّا أن تسأل الرجل:

-كيف أصبح ابنك الصغير؟

لكم كان هذا الوالد يحب ولده! وما كان أسعده، في المساء، إذ تنصرف المدرسة، فيأتيه صغيره ويأخذان معًا في الطواف بالممرات، متوقفين بكل مقعد، يحييان المختلفين إلى حديقة الميدان ويردان لهم عوائدهم الحسنة....

ثم يحاصر الألمان (باريس)، فينقلب كل شيء. ها هي ذي الأسوار تضرب حول ميدان الأب (ستن)، الّذي صار مخزنًا للبترول، وها هو ذا الرجل المسكين يغدو مسؤولًا عنه، مضطرًا إلى مراقبة لا تنقطع، فكان يقضي سحابة يومه وحيدًا بين الأرصفة الخربة، ولا يجتمع بولده اللّهم إلّا إذا تقدم المساء ورجع إلى بيته. فلعلك رأيت شاربه حين كان يتحدث عبر الـ(بروسيين)[1]...

أما (ستن) الصغير فلم يكن ليضيق كثيرًا بتلك الحياة الجديدة. حصار!... أجل! كم يروق الغلمان هذا! فلا المدرسة تحول دون لهوهم، ولا تدريس أصحابهم، إنها عطلة دائمة!

1) البروسيين: الألمان، نسبة الأرض التي أتوا منها (أرض البلطيق)، وكانت تسمى (بروسيا).

والشـوارع كأنهـا الأسـواق المقامـة. وفـي هـذه الشـوارع كان الولـد ينفـق يومـه متنقـلًا جاريًـا. يصحـب كتائـب الحـي الماضيـة إلـى المتاريـس، متخيـرًا أولئـك الذيـن يفضـل موسـيقاهم - فلقـد كان فـي هـذا المضمـار خبيـرًا عليمًـا، يقـول لـك إن موسـيقا الكتيبـة السادسـة والتسـعين لا تسـاوي كثيـرًا، أمـا الكتيبـة الخامسـة والخمسـين فيـا لفرقتهـا الموسـيقية! وكان فـي بعـض الأيـام يشـاهد الفصائـل المتحركـة إلـى ميـدان القتـال وهـي تـؤدي التمرينـات العسـكرية، ثـم يتبعهـا مـع الأذيـال الحـرارة...

هـا هـو إذًا، متأبطًـا سـلته، يندمـج فـي تلـك الصفـوف الطويلـة الّتـي كانـت تتشـكل فـي غسـق الشـتاء المملـق مـن الغـاز، تـارة فـي زمـرة القصابيـن، وتـارة فـي حلقـة الخبازيـن. فهنـاك كان أفـراد الجماعـة يتركـون المـاء يغمـر أقدامهـم، وبتعـرف بعضهـم بعضًـا. ثـم يعكفـون علـى الحديـث فـي السياسـة، ولمـا كان صاحبنـا هـو ولـد الأب (سـتن)، فقـد كان كل امـرئ يسـأله رأيـه.

علـى أنـه لـم يكـن فـي الشـوارع أطـرف مـن مباريـات (الجالـوش)، تلـك اللعبـة الشـهيرة الّتـي أذاعهـا الجنـود البريطانيـون فـي أثنـاء الحصـار. فـإن أنـت لـم تجـد (سـتن) الصغيـر فـي المتاريـس أو بيـن الخبازيـن. ثـق لأنـك لابـد وأجـده فـي مبـاراة الجالـوش بميـدان الـ(شـتو دو). ولكنـه لـم يكـن يومًـا ليلعـب، بالطبـع، لأن دون اللعـب نقـودًا كثيـرة، وإنمـا كان يقنـع بمشـاهدة المتبارييـن والنظـر بعينيـه...

هنـاك بوجـه خـاص فتـى كبيـر ذو رداء أزرق، لـم يكـن يبـاري إلّا بقطـع مـن فئـة المائـة (سـو). ذلـك كان يثيـر إعجـاب صاحبنـا الصغيـر. وإن للنقـود فـي أعمـاق ثوبـه لصلصلـة تـرن فـي سـمعك حيـن يجـري...

وذات يـوم، إذ تدحرجـت قطعـة مـن نقـوده تحـت قدمـي (سـتن) فأعادهـا إليـه. قـال لـه الكبيـر فـي صـوت خفيـض:

ـ إن هذا يخطف بصرك؟... حسنًا، إن شئت أخبرتك أين تجد مثله.

فلمـا انتهـت المبـاراة، انتبـذ بـه ركنًـا مـن أركان البلـدان، وعـرض عليـه أن يصاحبـه فـي بيـع صحـف لـ(بروسـيين)، فـإن الرحلـة الواحـدة تـدر ثلاثيـن فرنكًـا.

رفـض (سـتن) فـي أول الأمـر، وأبـى حانقًـا أن يثـري مـن يـد العـدو. ولقـد كان مـن أثـر ذلـك أن انقطـع ثلاثـة أيـام عـن ارتيـاد حلقـة اللعـب، ثلاثـة أيـام رهيبـة، لـم يكـن يـأكل فيهـا، ولـم يكـن

ينام، فإذا جن الليل طافت به الأطياف ورأى أكداس الجالوش قائمة تحت سريره، وطالعته قطع النقود بأوجهها البراقة. لقد كان الإغراء شديدًا لا طاقة للصغير على احتماله فعاد في اليوم الرابع إلى الـ(شاتو دو)، وقابل الفتى الكبير، واستسلم.

انطلقا في صباح هطل جليده، وعلى كتف كل منهما كيس من القماش، وتحت سترته صحف مخبأة. وعندما بلغا باب الفلاندر، وقد أوشك النهار أن ينبلج، أخذ الكبير بيد (ستن)، ودنا من الحارس -وكان رجلًا محمر الأنف طيب القلب- فخاطبه بصوت الذل والمسكنة قائلًا:

ـ اسمح لنا أن نمر يا سيدي الكريم... فإن أمنا مريضة وأبانا قد توفى، وسأذهب أنا وأخي الصغير إلى الحقل لعلنا نجمع شيئًا من البطاطس.

وكان يبكي. أما (ستن) فقد خفض رأسه الصغير، وكان الخجل يغمره. وتأملهما الحارس لحظة. ثم ألقى نظرة على الطريق المقفرة البيضاء وقال وهو يفسح لهما سبيلًا.

ـ مرا سريعًا.....

ها هما ذان في طريق أوبرفيليه وها هو ذا الكبير يضحك.

ويرى (ستن)، كأنه في حلم، صورًا ينقصها الوضوح، صور مصانع تحولت إلى معسكرات، وحصون خالية قد علقت بها خرق مبتلة، ومداخن باسقة قد ثقبت حجاب الضباب وارتفعت في السماء خاوية محطمة.... ومن بعيد إلى بعيد، حارس، وضباط قد دثروا رؤوسهم يتطلعون هناك بالمنظار، وخيام صغيرة قد بللها الجليد المنصهر أمام نار تخبو وتحتضر. وكان الكبير خبيرًا بالسكك، فمضى بين الحقول مجنبًا مواقع الجنود، ولكنهما يشرفان على مركز من مراكز قوة المدفعية، فلا يستطيعان أن يجدا إلى المفر سبيلًا. هناك جنود المدفعية ببرداتهم القصيرة، قابعون في جوف الخندق.

وعبثًا أخذ الكبير يعيد قصته ويعيدها، فلم يسمح لهما أحد بالمرور.... وبينما هو ينتحب، خرج من بيت الحرس إلى الطريق، جاويش عجوز. أبيض الرأس مغضن الوجه، شديد الشبه بالأب (ستن) فقال للغلامين:

ـ هيا أيها الصغيران! حسبكما بكاء! سنأذن لكما بالذهاب إلى بطاطسكما، ولكن أدخلا أولًا

فاصطليا قليلًا.... لقد تجمد من البرد هذا الولد!

يا لله! ما كان من البرد يرتعد (ستن) الصغير، وإنما كانت تمكو فرائصه من الوجل، ومن الخجل...ووجدا في الدار بعض الجنود قد جلسوا القرفصاء حول نار مهزولة اللّهب، حزينة الجذوة، كانوا يمجون فيها على أطراف حرابهم شيئًا من البسكويت المثلج يلتمسون تسخينه. فانضم بعضهم إلى بعض وأفسحوا للغلامين مكانًا. وقدموا لهما جرعات من القهوة. وفيما هما يرتشفان، إذا الضابط يبدو على الباب، فيدعو إليه الجاويش، ويحدثه في صوت خفيض، ثم يمضي مسرعًا ويعود الجاويش مشرقًا متهللًا يقول:

ـ آه أيها الأولاد! هناك دخان في هذه الليلة... لقد فوجئت كلمة الـ(بروسيين)... وأعتقد أننا سنستعيدها منهم في هذه الكرة، سنستعيد (بورجيه) المقدسة!

ويثير ذلك عاصفة من الصياح والمرح. وينهض الجنود للرقص والغناء وتنظيف الحراب، وينتهز الصبيان فرصة هذا الهرج، ويختفيان.

ويعبران الخندق، فلا يبقى أمامهما بعد ذلك إلّا السهل المنبسط. وفي نهاية السهل جدار قائم، أبيض اللون، كثير الثغرات. لقد كانا يقصدان إلى هذا الجدار. فسارا يتوقفان في كل خطوة متظاهرين بجمع البطاطس، وستن الصغير يقول لصاحبه في كل لحظة: "هيا نرجع... لا نذهب إلى هناك". وصاحبه يرفع كتفيه ويتقدم دائمًا. وفجأة سمعا صوت بندقية تحشى، فصاح الكبير: "انبطح!"، واستلقى هو على الأرض. وأخذ يصفر. وإذا صفير آخر يجيبه من فوق الجليد. أم يتقدمان زاحفين...وأمام الجدار، ظهر على أديم الأرض شارب أصفر تحت قلنسوة وسخة. فقفز الكبير في الخندق إلى جانب البروسي، وقال وهو يريد صاحبه:

ـ إنه أخي الصغير.

وكان (ستن) صغيرًا إلى حد جعل البروسي يضحك ملء فيه، ويأخذه في ذراعيه فيرفعه حتى الثغرة.

وفي الجانب الآخر للجدار كانت أكداس كبيرة من التراب، وأشجار ملقاة على الأرض، وثقوب سوداء في الجليد، وفي كل ثقب منها تلك القلنسوة الوسخة وذلك الشارب الأصفر يضحك إذ يرى الغلامين يمران.

وفي ركن من الأركان، كان بيت بستاني مسقوف بجذوع الشجر. وكان طابقه الأسفل يغص بجنود يلعبون الورق، ويعدون الحساء على نار متأججة اللّهب صافية الجذوة. وللكرنب والشحم رائحة تنبعث لذيذة شهية. ما أبعد الفرق بين هؤلاء وبين معسكر الجنود الفرنسيين! وكان الطابق الأعلى مخصصًا للضباط.

دخل ال(باريس)يان فاستقبلتهما صيحات البشر والترحيب. وسلما ما يحملان من الصحف، ثم صبت لهما أكواب الشاي، واستدرجهما أهل الدار إلى الحديث. كانت سماء الكبرياء والخبث بادية على هؤلاء الضباط جميعًا، ولكن الفتى الكبير قد أخذ يلهيهم بلهجته العامية وحديثه المتدفق في ألفاظ سوقة، فكانوا يضحكون ويرددون كلماته في طرب، ويتمرغون متلذذين في طين (باريس) الّذي جلب إليهم.

ورقد كان (ستن) الصغير يود أن يتكلم هو أيضًا، ليثبت انه لم يكن غبيًا، ولكن شيئًا كان يضايقه. ذلك بروسي وقف قبالته منفردًا عن الآخرين، بروسي يكبر أصحابه سنًا وجدًا، وكان يقرأ وكان يتصنع القراءة، فإن عينيه لن تتحولا عن (ستن)، وإن في نظرته تلك شيئًا من العطف والرثاء وكثيرًا من التأنيب والانتهار، فلعل للرجل في بلاده ولدًا يبلغ عمر (ستن)، ولعله كان يقول في نفسه: "إني أفضل الموت على أن أرى ولدي يحترف عملًا كهذا...".

منذ نلك اللحظة أحس (ستن) الصغير كأن يدًا قد وضعت على قلبه تمنعه أن يخفق. وليلة شنت عليهم إحدى الغارات. ثم يخفض الكبير من صوته، ويتقارب الضباط، وتجد الوجوه. لقد كان البائس ينبئهم بهجوم المدفعية.

هنا أفاق (ستن) الصغير ونهض ثائرًا يقول:

ـ ليس هذا أيها الكبير... إني لا أريد....

ولكن صاحبه لا يعيره إلّا ضحكة، ثم يستأنف حديثه. وقبل أن يتمه، كان الضباط جميعًا واقفين، يشير لهما أحدهم نحو الباب ويأمرهما بالخروج.

ومضى الضباط يتحدثون فيما بينهم بالألمانية حديثًا سريعًا. وخرج الكبير فخورًا كأنه الدوج وهو يصلصل بنقوده، وتبعه (ستن) مطأطئ الرأس، فلما مر بذلك البروسي الّذي طالما ضايقه بنظرته، سمع صوتًا حزينًا يقول في لكنة ألمانية: "ليس جميلًا هذا... ليس

جميـلًا!" فمـلأت الدمـوع عينيـه.

هـا همـا ذان فـي السـهل مـرة أخـرى يعـدوان ويؤوبـان مسـرعين. وكان كيسـاهما زاخريـن بالبطاطـس الّتـي أعطاهمـا إياهـا البروسـيون، وبذلـك عبـرا بغيـر مشـقة خنـدق جنـود المدفعيـة الفرنسـية. وقـد كان هـؤلاء يسـتعدون للهجـوم فـي ليلتهـم تلـك. فالفـرق تـرد صامتـة وتحتشـد وراء الجـدران. والجاويـش الشـيخ هنـاك، منصـرف إلـى رجالـه يصفهـم وهـو مستبشـر سـعيد. فلمـا مـر الصبيـان عرفهمـا، وأرسـل إليهمـا ابتسـامة عذبـة...

آه مـن تلـك الابتسـامة! كـم نغصـت عليـك أيهـا الصغيـر (سـتن)! لقـد اسـتولى عليـه فـي لحظـة نـزوع إلـى أن يصيـح بهـم: "لا تذهبـوا هنـاك.. فقـد خناكـم" ولكـن صاحبـه قـد قـال لـه إنـك إذا تكلمـت رمونـا بالرصـاص، فمنعـه الخـوف.

وفـي الكورنـوف دخـلا دارًا مهجـورة يقتسـمان فيهـا النقـود. والحـق يضطرنـي إلـى أن أقـول إن القسـمة كانـت نزيهـة عادلـة، وإن الدراهـم الّتـي اسـتقرت فـي جيـب (سـتن) الصغيـر، وتفكيـره فـي مباريـات (الجالـوش) الّتـي كانـت نصـب عينيـه، قـد هونـا عليـه مـن هـول الجريمـة.

ولكـن، يـا للطفـل المسـكين! حينمـا أضحـى وحيـدًا، حينمـا فارقـه الكبيـر بعـد أن اجتـازا الأبـواب، إذ ذاك بـدأت جيوبـه تثقـل، وتثقـل جـدًا، وأخـذت اليـد الّتـي كانـت تقبـض علـى قلبـه تشـتد فـي ضغطهـا. وإذ (باريـس) تبـدو لـه غيـر (باريـس). وإذا المـارة ينظـرون إليـه نظـرات قاسـية، كأنهـم قـد علمـوا مـن أيـن أقبـل. وإذا كلمـة "جاسوس"تسـتولى علـى سـمعه، فهـو يسـمعها فـي ضجيـج العجـلات، وفـي قـرع الطبـول الّتـي تتـدرب علـى ضفـة الترعـة. وأخيـرًا وصـل إلـى البيـت، فسـره أن أبـاه لـم يكـن قـد رجـع، وصعـد مـن تـوه إلـى غرفتـه يخبـئ تحـت وسـادته النقـود الّتـي كان ينـوء بهـا.

لـم يكـن الأب (سـتن) فـي يـوم مـن الأيـام راضيًـا مبتهجًـا مثلمـا كان فـي رواحـه ذلـك المسـاء. فـإن أنبـاء قـد بلغتـه مـن الأقاليـم تبشـر بتحسـن الموقـف. وجلـس الجنـدي السـابق ينظـر إلـى بندقيتـه المعلقـة علـى الحائـط، ويقـول لطفلـه وهـو يضحـك ضحكتـه العذبـة:

ـ آه يا ولدي، لو كنت كبيرًا لانبريت للـ(بروسيين).

ونحو الساعة الثامنة، دوت طلقات مدفع، فقال الرجل الخبير بحصونه جميعًا:

ـ هذه (أوبر فيليه). القتال دائر في (بورجيه).

فشحب وجه (ستن) الصغير، ونهض مدعيًا أنه يشعر بتعب شديد، ودخل لينام، ولكنه لم ينم..وتتابعت طلقات المدفع... ومثلت أمام الصغير صورة جنود المدفعية الفرنسيين وقد مضوا تحت جنح الظلام ليفاجئوا الـ(بروسيين) فإذا هم يقعون في شرك منصوب. وتذكر الجاويش الّذي ابتسم له، فرآه وسط الجليد صريعًا مجندلًا، ورأى كثيرين معه!... إن ثمن هذه الدماء كانت تحت وسادته هو، وهو ابن المسيو (ستن)، ابن الجندي الباسل...خنقته العبرات. وفي الغرفة المجاورة له كان يسمع صوت أبيه وهو يذرعها جيئة وذهابًا، ثم يفتح نافذتها. وفي الميدان كان البوق يهيب، وفرقة قد اصطفت لتتحرك إلى المعركة. أجل! لقد كانت موقعة حقًا! لم يستطع المسكين أن يكتم شهقته. وسمعه أبوه فأسرع إليه يسأله:

ـ ما الّذي أصابك يا بني؟

ولم يطق الطفل بعد ذلك صبرًا، فقفز من سريره يرتمي عند قدمي أبيه، وفي تلك الحركة سقطت النقود وجرت على الأرض. فصاح الشيخ وهو يرتعد:

ـ ما هذا؟... هل سرقت؟

وهنا يقص (ستن) الصغير في زفرة واحدة كيف ذهب لدى الـ(بروسيين)، وماذا كان من أمره هناك. وكان كلما أفاض في الكلام يحس أن قلبه يتحرر وأن الاعتراف يسري عنه...

وكان الأب (ستن) يصغي بوجه رهيب. فلما انتهى حديث ولده، أخفى وجهه في كفيه وبكى. وأراد الطفل أن يقول: "أبي، أبي..."ولكن الشيخ دفعه عنه ولم يجب. ثم جمع النقود، وسأله:

ـ أهذا كل ما بعت به بلادك؟

فأشار الطفل بالإيجاب. وأنزل الشيخ بندقيته المعلقة على الحائط، وأنزل ذخيرتها، وقال وهو يضع النقود في جيبه:

ـ إني ذاهب أرد هذا المال لأصحابه:

ودون أن يضيف كلمة أخرى، بل دون أن يلتفت برأسه، نزل ينضم إلى الفصائل الّتي كانت ذاهبة في الليل. ومنذ ذلك الحين لم يره أحد.

الفلاحون في (باريس)

ألفونسو دوديه *

في (شامبروزاي) كان هؤلاء الناس سعيدين هانئين. كان يقع وصيد دواجنهم تحت نوافذي مباشرة، وكانت حياتهم تختلط بحياتي بعض الاختلاط ستة أشهر من السنة. فكنت قبل أن يطلع النهار بوقت طويل، أسمع الرجل يدخل الحظيرة فيربط الدابة إلى العربة، وينطلق إلى (كوربي) ليبيع خضرة هناك، ثم تنهض زوجته فتلبس الأولاد، وتدعو الدجاج، وتحلب البقرة، وما ساعات الصباح بعد ذلك إلّا وابل من خبط القباقيب الغليظة والصغيرة على السلم الخشبي... وبعد الظهر، كان يسكن كل شيء، فالأب في الحقل، والأبناء في المدرسة، والأم مشغولة صامته تنشر الغسيل في الفناء، أو تخيط أمام بابها وهي تلاحظ الولد الأصغر في الوقت نفسه، ويعبر الطريق عابر من حين إلى آخر، فيدير اللسان حديثًا بينما تشد الأنامل الإبرة..

وذات مرة -وكان هذا في أواخر شهر أغسطس- سمعت المرأة تقول لجارة لها:

ـ ماذا عن الـ(بروسيين)[1]؟ هل هم في فرنسا، فقط؟

فصحت بها من نافذتي:

ـ إنهم في شالون، يا أم جان....

فأضحكها ذلك كثيرًا... لقد كان الفلاحون في هذا الركن الصغير من (سين - أ - واز) كافرين بغزوة الـ(بروسيين).

على أننا كل يوم كنا نرى عربات تمر محملة بالأمتعة. وكانت بيوت البورجوازيين تغلق أبوابها تباعًا. وفي هذا الشهر الجميل الّذي يطول فيه النهار، أتمت الحدائق أزهارها وهي مهجورة كالحة كئيبة وراء أسوارها الموصدة... وبدأ القلق يساور جيراني شيئًا فشيئًا. كلما نزح من الحي نازح أخذتهم غمة. لقد باتوا يشعرون شعور المهجورين المخذولين... ثم ذات صباح، إذا الطبول تقرع في جهات القرية الأربع! أمر من مكتب العمدة. ينبغي السفر إلى

1) البروسيين: الألمان، نسبة الأرض التي أتوا منها (أرض البلطيق)، وكانت تسمى (بروسيا).

* كاتب فرنسي (1840-1897).

(باريس) لبيع البقرة، والأعلاف، وعدم الإبقاء على شيء للـ(بروسيين).

رحل الرجل إلى (باريس)، وكانت رحلة حزينة، فعلى الجزء الرصيف من الطريق الكبير، مضت مركبات المهاجرين الثقيلة بنتائج بعضها إثر بعض وقد اختلطت بقطعان من خراف كانت تتخبط بين العجلات، وثيران كانت تخور فوق العربات، بينما مشى إلى جانب الطريق بحذاء الخنادق مساكين راجلون وراء عربات صغيرة ذوات أذرع غاصة بأثاث من طراز العصر الماضي، أرائك ذابلة الوسائد، وموائد عتيقة، ومرايا محلاة برسوم فارسية، وإنك لتحس أي كرب هذا الّذي استطاع أن يدخل البيت فيزيح كل ذلك الغبار، وينقل كل تلك الآثار المقدسة، ويجرها أكوامًا لا حرمة لها في الطرقات العامة.

وعلى أبواب (باريس)، كادوا يختنقون. ولم يكن بد من الانتظار ساعتين، فظل الرجل المسكين طوال هذا الوقت، وقد ضغطه الحشد إلى بقرته، ينظر هلوعًا إلى الكوى الّتي تطل منها فوهات المدافع، وإلى الخنادق المترعة بالماء، وإلى الحصون القائمة مدى البصر، وإلى شجر الحور الإيطالي الباسق مخبوطًا ذاويًا على طرف الطريق... وفي المساء رجع من هناك مرتاعًا يروي لزوجته كل ما رأى، فجزعت الزوجة، وأرادت أن ترحل منذ الغد ولكن من غد إلى غد كان يحدث أن يرجأ السفر دائمًا... فاليوم حصاد ينبغي أن يتم، واليوم قطعة من الأرض مازالوا يرغبون في حرثها.

وذات ليلة يوقظهم انفجار عنيف. لقد نسف جسر (كوربي). وإذا رجال يطوفون بالحي يقرعون الأبواب من بيت إلى بيت: "الفرسان! الفرسان! لوذوا بالفرار."

فيهبون في هرع وعجلة، ويربطون الدابة إلى العربة، ويلبسون الأطفال وهم نصف ناعسين، ويفرون مع بعض الجيران متخذين مسلكًا ضيقًا قصيرًا.

وعندما تسنموا السفح، دقت الساعة الثالثة في البرج. هناك التفتوا مرة أخيرة. إن مشرب البهائم، والميدان، ودروبهم المعتادة، هذا الطريق الّذي يهبط نحو السين، وذلك الطريق الّذي ينساب بين الكروم، كل شيء بدا لهم غريبًا ولما ينأوا عنه! وفي ضباب السحر الأبيض كانت القرية الصغيرة المهجورة تضم بيوتًا بعضها إلى بعض كأنها ترتعد من هول وشيك.

إنهم الآن في (باريس). غرفتان بالطابق الرابع في شارع حزين... أما الرجل فمبتئس

ولكنه لاينوء بشقوته. لقد وجدوا له عملًا، ثم إنه من الحرس الأهلي، ولديه المتاريس، والتدريب، وإنه ليتلهى ما استطاع إلى اللّهو سبيلًا ليتسنى مخزنه الخاوي ومروجه الّتي تنتظر البذار. وأما المرأة فمستوحشة مفجوعة تضيق بأمرها ولاتدري ما المصير. لقد وضعت بنتيها الكبيرتين في المدرسة، والصبيتان في تلك المدرسة الخارجية العاطلة من حديقة تختنقان إذ تتذكران بيتهما الريفي الجميل الصائت المرح كخلية النحل، والطريق الّذي كانتا تقطعانه إليه كل صباح خلال الغابة. وتتألم الأم إذ تراهما مكتئبتين واجمتين، ولكن الصغير هو الّذي يقلقها فوق كل شيء.

هناك كان يذهب ويجيئ، تابعًا إياها إلى كل مكان، إلى الفناء، وإلى البيت واثبًا وراءها درجة الأسكفة كلما عبرتها هي، غامسًا في دلو الغسيل يديه الصغيرتين المحمرتين، وجالسًا قرب الباب حين تشتغل بالإبرة لتستريح. إن هنا طوابق أربعة عليك أن تصعدها، وسلمًا مظلمًا تتعثر فيه قدماك، وجذوات صغيرة في مدفآت ضيقة، وأفقًا من الدخان الرمادي والأردواز البليل....

ومن الحق أن هنا فناء فيه يستطيع الصغير أن يلعب، ولكن البوابة لا تريد. هو ذا اختراع آخر من اختراعات المدينة، هؤلاء البوابات! أما هناك في القرية، فكل امرئ سيد بيته، ولكل امرئ ركنه الصغير الّذي يحرس نفسه بنفسه. طول النهار، يظل البيت مفتوحًا وفي المساء يدفع المرء متراسًا غليظًا من الخشب فينغمر البيت كله بلا خوف في ليل الريف هذا الأسود الّذي يجد المرء فيه إغفاء عميقًا طيبًا. وبين الحين والحين ينبح الكلب إلى القمر، ولكن أحدًا لا يضطرب... الحق إن (البوابة) في بيوت (باريس) الفقيرة هي مالكة البيت. والصغير لا يجرؤ على النزول بمفرده، فيما شد ما يشفق من هذه المرأة الشريرة الّتي اضطرتهم إلى بيع عنزتهم، متعللة بأنها تجرر أعوادًا من القش وقاذورات بين بلاط الفناء.

ولكي تلهي الطفل الّذي أصبح ضيقًا بحياته، لم تعد المرأة المسكينة تدري ماذا عساها أن تبتكر، فما يكاد ينتهي الطعام حتى تدثره كما لو كانا خارجين إلى الحقول، وتنزهه من يده في الشوارع الصغيرة والشوارع الفسيحة، والطفل مقبوض عليه، مصطدم، تائه لا يكاد ينظر حوله... هو لا يعنيه إلّا الجياد، فهي الشيء الوحيد الّذي يتعرفه والشيء الوحيد الّذي يضحكه. والأم أيضًا لا يروقها شيء، فهي تسير بطيئة شاردة الذهن تفكر في أرضها وبيتها.

وإذا رأيتهما يمران معًا، هي بمظهرها الكريم، وزيها النظيف، وشعرها المرسل، والصغير بوجهه المستدير و(مركوبه) الغليظ، فستحسب أنهما مغتربان، منفيان وأنهما يفتقدان في حسرة هواء طرقات القرية اللافح وعزلتها الضافية.

بثلاثمائة ألف فرنك!

ألفونسو دوديه *

ألم يحدث لك يومًا أن خرجت من بيتك خفيف الخطى مبتهج النفس، ثم عدت بعد ساعتين من المشي مهمومًا قد تكدر صفوك، وانقبض صدرك، وهبط بنفسك هم لا تدري له علة، ونغص هناءك ضيق لا تدري كنهه! تقول لنفسك: "فما الّذي أصابني؟... "وتجد في البحث، ولكنك لا تجد شيئًا. لقد كانت كل جولاتك طيبة، فوق إفريز جاف، وتحت شمس دافئة، ومع ذلك فأنت تحس في قلبك قلقًا ممضًا كشعور بأسى مكتوم يأزّك.

ذلك أنك في هذه المدينة الكبيرة، حيث يحس الجمهور أنه حر طليق لا يرقبه أحد، لا تستطيع أت تخطو خطوة دون أن تصطدم بغم مجتاح يصيبك رشاشه ويخلف فيك أثره ويمضي. ولست أتحدث عن النكبات الّتي يعرفها الناس، ويهتمون بها، عن شقوة أصدقائنا الّتي هي شقوتنا إلى حدٍّ ما والتي نقف عليها فجأة فتحز في قلوبنا حز تأنيب الضمير؛ بل ولا عن هذه الأحزان الّتي لا نباليها، ولا نعيرها غير أذن واحدة، والتي لا يشك أصحابها في أنها تفجعنا؛ وإنما أتحدث عن هذه الآلام الغريبة عنا، لا تربطنا بها وشيجة، ولا نلمحها إلّا ونحن نعبر مكانًا ما، في دقيقة، في أثناء سعينا الحثيث، وخلال زحمة الشارع.

تلك أجزاء من أحاديث منقطعة يتبادلها اثنان بين اهتزازات مركبة، هموم صماء عمياء تتكلم وحدها وبصوت مرتفع، كتفان مكدودتان، حركات مجنونة، عيون محمومة، وجوه شاحبة منتفخة من الدموع، أو أحزان حديثة العهد لم يحسن أصحابها كفكفتها في طيات ما يتدثرون به من سواد. ثم هذه الأشياء الصغيرة، هذه التفاصيل الخاطفة، ويا لها من توافه! زيق رداء أطالت الفرشاة حته، يلتمس الظل... صندوق من صناديق الطرب والموسيقا، تحت باب مسقوف، تجيره يد متسول ولا يخرج صوتًا... شريط من المخمل في عنق حدباء، مشدود في قسوة، محكم العقدة مستقيمها بين الكتفين الشائهتين... وتمر بك جميع هذه المناظر، مناظر البلايا المغمورة المجهولة، مرًّا سريعًا، وتنساها وأنت سائر، ومع ذلك فأنت أحسست من حزنها، وتشبعت ملابسك بالهم الّذي تجرره وراءها، وفي آخر النهار تشعر بدبيب كل ما فيك من التأثر والرثاء والمضض، دون أن تدري، قد علقت، عند

* كاتب فرنسي (1840-1897).

منعرج طريق أو أسكفة باب. بهذا الخيط غير المنظور الّذي يربط تلك البلايا معًا ويرجها جميعًا إذا اهتز هزة واحدة.

كنت أفكر في هذا ذات صباح، حين رأيت رجلًا بائسًا يمشي أمامي، مقموطًا في معطف نحيل جدًّا يظهر خطاه الطويلة الواسعة أطول وأوسع، ويكبر جميع حركاته تكبيرًا وحشيًّا. وكان الرجل يسير سريعًا متعجلًّا وقد انحنى شطرين، يعاني عناء شجرة في مهب الريح، وكانت يده تمتد بين حين وآخر إلى أحد جيوبه الخلفية تكسر فيه كسرة من رغيف صغير كان يزدرده خفية كأنه خجل من أن يأكل في الشارع...

إن البنائين يفتحون شهيتي حين أراهم جالسين على الأفاريز يقضمون قلب رغفانهم الغليظة الطازجة. وصغار الموظفين أيضًا يثيرون غيرتي عندما يهرعون عائدين من المخبز إلى المكتب، أقلامهم في آذانهم، وأفواههم مليئة، مغتبطين بوجبتهم تلك في الهواء الطلق. ولكنك هنا كنت تحس عار الجوع الحقيقي، وكنت تذوب شفقة على هذا البائس الّذي لا يجرؤ على أكل رغيف خبز يسحقه في قعر جيبه، ولا يتناوله إلّا فتات وراء فتات.

وكنت أتبعه منذ برهة عندما غير فجأة رأيه واتجاهه - كما يحدث كثيرًا في حياة أولئك الخائبين -واستدار فوجدني أمامه وجهًا لوجه.

ـ أهذا أنت!...

لقد كنت أعرفه، فيمن أعرف من الناس كان واحدًا من صناع المشروعات وتجارها، رجلًا صاحب اختراعات وابتكارات، مؤسس صحف عاجزة عن الظهور، قد ثارت حوله في وقتٍ ما عاصفة من الإعلان والضوضاء المطبوعة ولكنه توارى منذ ثلاثة أشهر في غور سحيق. وعلى إثر غطسته تلك نجمت فورة دامت بضعة أيام عند الموضع الّذي سقط فيه، ثم قر العباب واتصل سطحه وانبسط وجهه، ولم يذكر صاحبنا أحد بعد ذلك.

رآني المسكين فاضطرب، ولكي لا يدع مجالًا لأي سؤال ألقيه عليه، ولكي يحول نظري أيضًا -بلا شك- عن هيئته القذرة وخبزه الرخيص، أخذ يحدثني في لهجة دافقة وجدل كاذب... كانت أعماله سائرة، أحسن سير... وما كانت الحال سوى لحظة توقف ومهلة... والآن، هو في يده مشروع رائع... صحيفة صناعية كبرى، مصورة... مال كثير، واتفاقية إعلانات فخمة!... ولقد كانت الحياة تتدفق إلى وجهه وهو يتكلم. ولم يلبث حتى انتصبت

قامته. واكتسب شيئًا فشيئًا لهجة القيادة والسطوة، كما لو كان بالفعل في مكتبه، مكتب رئيس التحرير، بل وطلب إلي مقالات، ثم أضاف في نشوة الظافر واعتداد المنتصر:

ـ وإنك لتعلم أنه مشروع مضمون... إني أبدأ بثلاثمائة ألف فرنك وعدني بها (جيراردان) [1] أَجَلْ! فهذا هو الاسم الّذي يأتي دائمًا على لسان هؤلاء الواهمين. حين ينطق أمامي ناطق بهذا الاسم، يبدو لي أنني أرى أحياء جديدة، وعمارات تشيد، وصحفًا طازجة الطبع بها قوائم أسماء المساهمين والمديرين. وكم من مرة سمعت من يقول، إذا طرق الحديث ذكر مشروعات جنونية:

ـ عليك بمخاطبة (جيراردان) في هذا الشأن!..

وهو أيضًا، هذا البائس خطرت له فكرة مخاطبة (جيراردان) في هذا الشأن. لابد أنه سهر ليلته بعد خطته يصف أرقامًا، ثم خرج، وفي أثناء مشيته، واضطرابه، بلغ المشروع من الإحكام ساعة لقائنا ما صور له أن (جيراردان) لا محالة مقرضة آلافه الثلاثمائة من الفرنكات. وما كان البائس يكذب إذ يقول إن الرجل وعده بالمبلغ، بل كان يتابع حلمه ليس غير.

وبينما كان يكلمني زحمتنا المناكب ودفعتنا إلى الجدار. وكان ذلك على إفريز شارع من الشوارع المائجة الّتي تصل سوق الأوراق المالية بالمصرف، شارع مليء بناس عجلين، شاردين، منصرفين إلى أعمالهم، باعة قلقين يسارعون إلى سحب بطاقاتهم، ورجال من صغار رواد السوق المالية مطرقين، وجوههم خفيضة، يلقي بعضهم في آذان بعض أرقامًا في أثناء سعيهم، وسماعي حديث تلك المشروعات الجميلة وسط هذا الجمهور، وفي هذا الحي الصاخب بالباحثين عن الصفقات. كنت أرى رأي الواقع ما كان يقوله لي هذا الرجل، أرى بلاياه مرسومة على وجوه قائمة، وآماله تشرق في عيون زائغة، وغادرني فجأة، كما لقيني، قاذفًا نفسه بكل قواه في تلك الدوامة من الجنون والأحلام والأكاذيب، هذا الّذي يطلق عليه أولئك الناس في لهجة جادة كلمة "الأعمال".

وفي نهاية خمس دقائق، كنت قد نسيته؛ ولكني في المساء، حينما عدت إلى بيتي، وحين نفضت معه غبار الشوارع جميع أحزان النهار، رأيت من جديد ذلك الوجه المتألم

1) هو إيميل جيراردان، رجل من كبار رجال الأعمال في القرن 19 (1881 - 1806)، خلق صحافة فرنسية جديدة اعتمد فيها على نشر الإعلانات لتخفيض ثمن الجريدة وزيادة عدد ما يوزع منها.

الشـاحب، ورغيـف الخبـز الرخيـص، والحركـة الّتـي صحبـت هـذه العبـارة الفاخـرة تزيدهـا فخـرًا: "ثلاثمائـة ألـف فرنـك وعدنـي بنـا (جيـراردان)!.."

بغلة القاضي

ألفونسو دوديه *

_1_

[1]أثناء إقامتي في الجزائر، وتعرفت إلى عربي بعيد الصوت، هو "سيدي بو علم"، وقد أحضرته منذ وقت قصير مركبة "بليدة".

وكان سيدي بو علم شخصية جديرة بالتقدير، إذ إنه يحمل لقب "الباش-آغا"، ورتبة القائممقام، ووسام قائد الفرقة، ويملك أراض شاسعة في "الشليف" وكمية من (الدورو)[2] ممتازة، فهو خير مثل "للباش أغا" الكريم، ولم يكن أحد يبزه في ارتداء البرنس الأسود المنسوج من وبر الإبل، ولم يكن أحد يفوقه في جلال المشية أو اتئاد الحركة، وكان قليل الكلام، يجهل اللغة الفرنسية تمام الجهل. وكان بو علم يجهل كم عساه قد بلغ من العمر؛ فإذا جد في الاستقصاء خُيل إليه، هذا الباش أغا، إنه يوفي الستين، ولكن يلوح لي أنه كان يضيف إلى سنه خمستين من الأعوام أو ثلاثًا. ولقد أحرقت إهابة شمس الجنوب الحارة، وأتربة الجنوب الثافية، وريح الجنوب اللافحة؛ وكمنت عيناه السوداوان البراقتان تحت حاجبين رماديين كثيفين؛ وبرز فوه كأنه الخطم تحت لحية شرسة قصيرة؛ كان يبدو لي أنه متوحش، فالتوحش خلق يناسب شخصية الباش أغا.

وكنت ألقى بو علم كل مساء، في ميدان الحكومة، ساعة الطراوة والموسيقا؛ فيقول لي، في جلال، بصوته الدفين: "بوجور، كيف حالك؟"، وكانت "بوجور، مارسي، جافي"[3] هي أقصى ما استطاع الرجل المسكين أن يحفظ، وكنت بدوري أبادره "بسلام عليك" على طريقة فرنسية جدًا، ونمشي بخطى وئيدة فندور الميدان عدة دورات صامتة، ثم أتركه يعود وحده إلى المدينة العربية، ونفترق وكل منا مبتهج سعيد بصاحبه، وبعد نزهات ثمانية من هذا النوع، صعد بو علم في مركبة بليدة وأبلغني علي -علي الصغير، غلام السوق المغربي-

1) هذه قصة، أو مجموعة لوحات، من ريف بلاد المغرب، لم تظهر أثناء حياة دوديه في كتابه "رسائل من طاحونتي"، وقد نشرتها (باريس) للمرة الأولى سنة 1930 أي بعد وفاة الكاتب بثلاث وثلاثين سنة.

2) الدورو: عملة من النقود الإسبانية.

3) تحريف للكلمات الفرنسية: "طاب يومك، شكرًا، قهوة".

* كاتب فرنسي (1840-1897).

أنـه سـينتظرني الأيـام المقبلـة فـي قبيلتـه، قبيلـة "جنـدل".

وفـي الوقـت نفسـه تقريبًـا، دُعيـت لتنـاول شـرائح ممتـازة مـن اللحـم علـى مائـدة "إيمانويـل د." وهـو مواطـن مـن بلـدة "ميليانـة" الصغيـرة الوادعـة. وكان إيمانويـل يقـوم بتجـارة ضخمـة للغـلال مـع العـرب؛ وكان يتكلـم لغتهـم كلامًـا لا بـأس بـه، ويتمتـع بمكانـة شـعبية عظيمـة فـي أسـواق جميـع أقاليـم الجزائـر. ولمـا رويـت لـه أمـر صلتـي بسـيدي بـو علـم -أغنـى عملائـه الوطنييـن- اقتـرح عليَّ أن يصاحبنـي إلـى الجنـدل منـذ الغـد؛ فقـد كان بـو علـم يقطـن علـى بعـد اثنـي عشـر فرسـخًا فـي السـهل، وتلـك المسـافة خليقـة بـأن تسـتغرق سـبع سـاعات إذا قطعناهـا بجواديـن قوييـن، وهنـا قاطعـت مضيفـي، واعترفـت لـه والحُمـرة تصبـغ وجهـي أننـي لا أركـب الجيـاد.

دفعه هذا الاعتراف إلى الابتسام.

ـ كيـف، أيهـا "الرومي"؟..تريـد أن تجـوب أفريقيـا، وتجتـس بعـض الحيـاة العربيـة، وأنـت لا تعـرف أن تمسـك نفسـك فـوق حصـان!

ـ عفـوًا، أنـا لـم أطمـع يومًـا فـي دراسـة الأخـلاق والحيـاة العربيـة؛ لقـد علمتنـي كتـب "أوجيـن فرومنتان"مـن ذلـك مـا كنـت أريـد أن أعلـم، بـل وعرضتـه فـي أجمـل لغـة فـي الدنيـا إنمـا أتيـت لأصطلـي فـي شمسـكم فحسـب!

وتركني إمانويل أقول.

فخطبت أسأل في حياء: والمركبات؟

ـ صحيـح أن المركبـات تصـل بيـن بلـدة وأخـرى، شـر وصـل، ولكنهـا علـى ذلـك لا تذهـب مـن كـوخ إلـى كـوخ.

ـ إذن فلأزهد في "كسكسي"سيدي بو علم!

ـ سنرى ذلك الصباح غد؛ نم مبكرًا على كل حال، وانهض مع الفجر.

وفـي الغـد، عندمـا نزلـت مـن مخدعـي، وجـدت إمانويـل فـي وسـط الغرفـة، مرتديًـا ملابـس ركـوب الخيـل، فاخـرًا رائعًـا.

ـ هيا إذن أيها الكسول!

فنظرت إليه مشدوهًا.

ـ بسرعة! الإفطار ثم نرحل!

ـ وأنا، كيف عساني أن أفعل؟

ـ لا تنبس بكلمة أخرى، لنفطر.

وحين غادرت المائدة، كان ينتظرني المشهد الآتي في الشارع.

_2_

كان جواد صغير أسود لامع، يصهل من الفرح، ويدير نحو (عمانويل) رأسه الجميل المريد. وكان عربيان واقفان في ناحية باحترام، لا ينتظران إلّا إشارة منا حتى يستنهضا مطيتيهما المربوطتين إلى سياج الحديقة. وفي وسط الشارع كان الفتى ميمون، في ثوبه القشيب المخطط خطوطًا سوداء وبيضاء، يمسك في عنانها بغلة قوية الشكيمة، وقد أسرجت وأزينت كأنما أعدت لكي يتبوأها البابا. فعلى صهوة الدابة ارتفع سرج ضخم أصفر وأحمر أعلى من برج؛ وإلى كشحيها تدلى ركابان عربيان عريضان من هذه الركابات تتوارى فيها القدم، كانا يتراقصان ويوقعان صوتًا من جرس الحدائد.

وقال لي مضيفي وهو يصطحبني إليها:

ـ هي ذي مطيتك؛ إنها بغلة قاضي "مليانة" دابة فاخرة، لم يركبها صاحبها إلّا قليلًا، وديعة كالحمل. فإن القاضي يستخدمها في الذهاب إلى حديقته المغروسة عند أبواب المدينة أو في النزول إلى الضريح الصغير الّذي تلمحه هناك في السهل؛ فهي معك إذن تقوم برحلتها الأولى. إن السرج لوثير كمقعد من مقاعد الصفوف الأمامية في المسرح. لله درك حين تستوي عليه! هيا!، هوب! تسنم، ضع قدمك في الركاب؛ قدمك اليسرى لا هذه... أمسك يا ميمون البغلة... أوف!

وهأنذا إذن مرتبك بعض الشيء إذ أحس نفسي على هذا الارتفاع، فوق قمة هذا البيت الّذي يمشي. ويمتطي (عمانويل) جوادًا، ويفعل العربيان مثله.

ويصيح بي ميمون:

ـ تماسك يا سيدي.

إننا الآن في الطريق، السماء رمادية، والجو ثقيل. نهار حار من أيام يناير الأفريقي.

وسأصف، في غير هذه النزهة، ما يلقى المرء من بلاد رائعة تطالعه إذا نزل من مليانه: تلك الوديان الشاسعة وخضرتها الّتي تنهار انهيارًا، تلك الغابات من السرو والخروب والزيتون البري الّتي تنحط إلى أعماق فواحة، كل هذه الكسوة النباتية العاتية العجيبة ترويها في خرير ساحر مئات الينابيع الصغيرة. وأما اليوم، ومثلي مثل (سانشو): دابة وجبان، فلست أرى أبعد من أذني بغلتي. والحيوان الرهيب، في عناد يخيفني، يتبع بكل تدقيق شفا الأغوار والمستنقعات، مترسمًا أصغر عروق الأرض، دائرًا مع أقل ارتفاع أو انخفاض. وعبثًا أجاهد لإعادته إلى وسط الطريق ووضع حد لهذه الرياضة الخطرة، فما يفلح في ردعه شيء، لا الدعاء الهادئ، ولا الضرب. لابد إذن من الإذعان، لابد من التشبث بالسرج وإغماض العينين... وفجأة تنحرف بغلتي، وتندفع إلى يمين، وتتخذ منحدرًا شذيًّا، تحت مهد صغير من أزهار الغار، وتخطفني راكضة لا أدري إلى أين. وقسمًا، لو لم يدركنا أحد العربيين، ويأخذنا من مقودنا، ويردنا إلى سواء السبيل، لما زلنا نركض للآن. وأعود إلى عمانويل، فإذا هذا الرجل الّذي لا قلب له يتلوى من الضحك فوق حصانه الصغير. وفي كلمتين شرح لي الأمر: إن هذا الّذي ظننته هروبًا لم يكن إلّا تحية من مطيتي الّتي كانت تريدني أن أجتس شيئًا من تين "الباربـاري" الممتاز ولذلك اقتادتني إلى بستان القاضي في أرشق خطو لها. بيد أنها، منذ أن سيرت على الطريق السوي، استأنفت في هدوء عملها ألا وهو تتبع الخطوط المشرفة على الوديان، حتى بلغنا السهل.

وهنا أيضًا كان علينا أن نعاني بعض المشقة في منعها من أن تميل نحو ضريح صغير بدت صورة جانبية لقبته على الأفق. وقد نالني جزائي من الرفس، ولكن البغلة بعد ذلك مشت مستقيمة أمامها، هائمة على وجهها، وديعة مستسلمة، خفيضة الأذن، يا للبهيمة المسكينة! لقد كانت تظن حتى ذلك اليوم أن البغال لا تمضي إلى أبعد مما طرقت من الأرض، وأن العالم ينتهي عند المحراب القائم هناك بجدرانه البيضاء.

_3_

لأول وهلة، ذكرني سهل الشليف الّذي دخلناه ببعض مناظر جنوب فرنسا. إلى اليسار، كانت بعض التلال الصلعاء؛ وإلى اليمين، كانت أراض شاسعة محترقة، ومن بعيد إلى

بعيد، خمائل ممتقعة من شجر الزيتون البري؛ وفي كل خطوة، أقزام من النخل ترتفع على أديم الأرض سعفها المدبب كأنها تقلد الحيوانات البرية الشائكة الظهور. وفوق هذا كله سماء رصاصية، رمادية في ذلك اليوم، ولكنها زرقاء في العادة.

وأحيانًا، عند أقدام التلال الممتدة إلى اليسار، يلمح الناظر جيادًا عجافًا مربوطة إلى أوتادها أمام خيمة سوداء صغيرة مصنوعة من وبر الإبل، وعلى بعد منها يرى ثورًا، أو حصانًا، أو بغلة، أو حمارًا، في بعض الربوع، مجهري الحجم، يجر محراثًا بدائيًا جدًا، تحدوه دعاءات حنجرية تند عن عربي في زي فلاح من فلاحي فرجيل. ومن حين إلى حين يمضي فرخ من طيور السلوى، وقد أثقله الحر، بين سيقان دوابنا... ولقد سارت قافلتنا الصغيرة في سكون مطبق، تنوء بما أبهظها به الجو من ثقل؛ ومضى (عمانويل) يلعب بحصانه. وأما أنا، فكنت مزهوًّا وادعًا فوق بغلة القاضي، أدع عقبي ترقصان على بطنها انفراجًا وانضمامًا، وأنا أتسمع مئات الأصوات الغامضة الّتي تنساب في السهل، صوت الأرض تتشقق من الحر، صوت قطيع يثغو بعيدًا، أو أغنية راع عجيبة، فما أدري أية نشوى مجنونة أخذت تغشيني بضبابها شيئًا فشيئًا... يا للذة؛ لقد كنت أحس شعورًا لا يحويه تعبير من حب الأمانة والعدالة يولد في نفسي؛ وأضحيت فجأة وبي نفور من الشر لا أجد له وصفًا، وطاف أمام عيني موكب من هفوات الأمس ونقائضه، موكب خطاياي الّتي اقترفتها كل يوم، المصافحات اليسيرة، التحيات الهينة، بسمات المجاملة، ونافلة الخبث، والكبرياء الحمقاء، فحاسبت نفسي حسابًا عسيرًا وأدنتها، غير رحيم بها. تراني وقد استويت على السرج الأصفر الأحمر الّذي اعتاد أن يستوي عليه القاضي الطيب، ورثت من قداسته ومن حكمته، وكأني بلحية لي تنمو طويلة بيضاء، وكأني ببطني يستدير وأكاد أحس قربوس السرج يضايقه، آه! أيها الولد الشقي، كم من مرة جبنت في الخير وكم من مرة تجاسرت في الشر! لو دعاك محمد في هذه الساعة..

وإذا (عمانويل) يهيب بي فجأة:

ـ ألا خذ حذرك، أيها المذهول!

ولقد أدركني في الوقت المناسب؛ فلو قد خطت بغلتي خطوة واحدة لتم دخولها الجليل الوقور على قهوة مغربية قائمة وسط الطريق. ولا تثيرنّ كلمة القهوة في نفوسكم

فكرة المرايا والزخارف الذهبية، والأرائك القرمزية، والغلمان في مآزرهم البيضاء، وقطع السكر الغليظة منصوبة فوق صينية نحاسية صغيرة... لا شيء من هذا قط! وإنما كوخ قذر من القش قد سوده الدخان؛ وفي ركن من الأركان، أمام تنوره، صانع القهوة، واقف نصف عار، ولونه كالبن؛ وعلى حصائر ممزقة، أربعة خمسة من العرب قد جلسوا القرفصاء يحتسون القهوة في سكون؛ وأمام الباب صبي يرتدي الأسمال يغسل الأقدام في ماء آسن؛ ونحو من عشرة نعال صفراء - وعند العرب يخلع المرء حذاءه تأدبًا، كما نخلع نحن القبعة - وبعض الجياد وبعض الحمير ترتع كيف شاءت.

تلك هي الصورة الصادقة لقهوة مغربية في سهل الشليف. ويأمر لنا (عمانويل) بالقهوة، أحسن قهوة شربتها في حياتي، ثم يلاحظ أنني جوعان، فيندهش لذلك -فإنهم لا يجوعون أبدًا في أفريقيا- ويطلب لي رغيفًا طريًّا صغيرًا، لم يخبز بخمير، محفوظًا منذ ثلاثة أشهر تحت القش ومعطرًا (باليانسون). وترد إليّ قواي هذه الوجبة الممتازة ثم نستأنف سيرنا.

_4_

الحر شديد دائمًا، والسماء مشحونة دائمًا. سحب ثقال على ارتفاع خفيض جدًا، تكاد تجري فوق رؤوسنا؛ والدواب تجأر من العطش... وأخيرًا ها نحن أولاء في أطراف الشليف، ولما كان منوطًا ببغلتي أن تستطلع الطريق، فقد فهمت خطر مهمتها، وإذا هي تذهب وتجيء، وتشتم النهر، وتتردد، وتدور دورتين، ثم فليك! فلوك! تخوض الماء بكل عظمة حتى يغمرها إلى منتصف كعبها. وهنا، لشدة فزعي، تتوقف، وتمد عنقها، وتهز جبينها في فتوة - وأود أنا أن أصيح مستغيثًا -وأخيرًا تأخذ في الشراب، وما أدراك ما الشراب... لنتحدث قليلًا عن الشليف. سينبئك الجغرافيون أنه أهم مجرى من الماء في أفريقيا الفرنسية، وأن منبعه في هذا المكان ومصبه في ذلك المكان؛ أما أنا، فحسبي أن أقول لك إنني لا أعرف شيئًا نزقًا مثل هذا النهر. شيء يسير جدًا خليق بأن يثيره، ولكنه يقر لشيء أيسر. لقد عرفت له أيامًا هادئة كان ينساب فيها على مهل بين ضفتيه، وغدوات من الغضب كان يقلب فيها بين عبابه أطرافًا من غابات وأجزاء من صخور، وينحر في غير رحمة المحاصيل المسكينة الّتي لا تؤذي أحدًا. أما اليوم فالسيدة هادئة الطبع، رضية الخلق، وإن بغلتي لتستطيع، وقد ارتوت آخر الأمر، أن تعبر دون عائق إلى الضفة الأخرى.

نحن نخترق في هذه اللحظة مرتفعًا عظيمًا، ينعقد عليه كل أسبوع سوق الجندل، تحت إشراف صديقي بو علم؛ ويقوم في أقصاه محط القوافل بجدرانه الطويلة. ومرة ثانية نعبر الشليف، وقد هبط النهار، إلّا أنه لا يصحبه من الشفق الوردي الرائع مثل ما رأيت مرارًا في أفريقيا...

وإنما يحول لون السماء الرمادي إلى أسود؛ ويبرد الهواء، ويتلف المشهد في الضباب؛ يا له من نهار ضائع! وتسير جيادنا الهوينى في أراضٍ محروثة؛ فلقد مر المحراث بكل موضع، والطريق نفسها قد حرثت عفوًا...

ويدلف بالقرب منا في الظلام عرب عائدون من العمل يطاردون أمامهم الحمير والأحصنة، وكل زمرة إذ تمر تحيينا بعبارة جرارة لا تتغير، تنغمها نغمة واحدة لا تتغير. وسرعان ما نلقى أدغالًا كثيفة من الصبار شاهرة الخناجر؛ يسمو من ورائها عود دخان، ونباح كلاب، وصياح أطفال، وحديث نسوة. ها نحن أولاء في وسط القبيلة العربية. وأخيرًا، على بعد مائة خطوة منا، فوق الربوة إلى ارتفاع ما، ألمح عربة عظيمة لا نوافذ لها؛ إنه قصر سيدي بو علم، وتتقدم صوبنا مجموعة من البدو؛ ويكتنفنا القوم، وينزلني من أعلى بغلتي رجلان. ويقبل علي الصاحب بو علم وهو يبتسم في برنسه الأسود:

ـ بونجرو، كيف الحال؟

فأجيبه: سلام عليك، فيقنع بها ونتجه نحو الدار.

_5_

لم يكن الجناح الّذي أدخلني إليه الرئيس فاخرًا باذخًا كما وصفوه لي، وجدت قاعة طويلة قاتمة جدًا، وبدلًا من طنافس أزمير، وجدت حيطانًا ظنينة البياض؛ وبدلًا من الأرائك والنمارق المطرزة، وجدت حصائر من القش الغليظ. وجدت ضابطًا فرنسيًّا جاء للصيد ونزل عند بو علم. وكان أتباع الضابط من الفرسان الجزائريين ينظفون أسلحته في ركن من الأركان، وفي ركن آخر، كانت كلابه تلعق حساءها في نهم، وكان سريره السفر منصوبًا في أقصى القاعة، وخرجه معلقًا إلى اليمين، وبندقياته إلى اليسار؛ وفي السقف، مسبحة لا نهاية لها من السلوى والحجلان، هي نتاج صيده في اليومين السابقين؛ لقد كان "نمور" كما يرى الناظر، يحتل في الدار مكانة بسعة وبحبوحة... أقطع من الأرض إذن اثني

عشر فرسخًا دون توقف لكي تزور بيتًا عربيًّا! وشهد (عمانويل) عجبي الأليم. فقال لي:

ـ اطمئن. إننا لم نبلغ بعد محلات الباش أغا الصغيرة. وهذه هي دار الضيوف. إن سيدي بو علم يأسف لاستقبالك هذا الاستقبال البارد؛ ولكنه لو أدخلنا بيته هذا المساء، لاضطر إلى أن يدخل في الوقت نفسه مسيو نمرو بفرسانه وكلابه وصيده. غدًا صباحًا، عقب خروج الضابط للصيد، سنذهب لتناول الشاي في السراي.

يا طالما لاحظت في أثناء جولاتي في أفريقيا أن الخويذة ذات الأشرطة الذهبية تروع أهل البلاد كثيرًا، وتوقر في نفوس الجميع احترامًا يتخلله شيء من الرهبة، ولكني قلما رأيت ضباطنا البواسل ينزلون بمنزل الألفة الحميمة من قلوب العرب؛ ومع ذلك فمعظمهم يظهرون أنهم قليلو الحرص على هذه الخطوة.

وريثما يتم إعداد العشاء، قدم القوم إلينا القهوة تحت سقيفة أمام دار الضيوف، ومن هناك رأيت بين الضباب الشفقي، نحو عشرة من العرب قد ساروا صفًا، يتقدمون نحونا، كموكب من المذنبين في لباسهم الرمادي. كان المذنب الأول يحمل، على طرف خشبة طويلة، خروفًا مشويًا؛ يمشي وراءه مذنب ثان معه خروف ثان على رأس خشبة طويلة ثانية؛ وأما الذين يتبعونهما فقد كانوا رافعين فوق رؤوسهم أطباقًا عريضة ينبعث منها البخار. وعلى الرغم مني، تذكرت الفحل "بوالو" وبذخ مآدبه الجامعية.

كان العشاء غزيرًا منوعًا: خروف مشوي، خروف بالحسك، خروف بالفول، خروف بالبازلاء الغليظة، خروف بكرات اللحم، والكل متبل كنار الشيطان، وفي الختام جفنة من الخزف زاخرة بالكسكسي المحلى بالسكر. وهذا اللون الأخير، وقد أشرب لبنًا ومرقًا، ليس بالغذاء الممجوج. وأما غياب الملاعق والشوك، فأعترف أنه أمر لم أشفق منه إلّا قليلًا، وأن الأكل بالإبهام والسبابة بدا لي أيسر شيء في الوجود. وقد أداروا علينا بدل الشراب، قبل الطعام وبعده، إبريقًا كبيرًا من لبن البقر. وبينما كنا نأكل كان الأغا بو علم -وشرائع الضيافة العربية تحرم عليه أن يقعي إلى مائدتنا- يتكرّم أحيانًا بأن يغرف لنا هو نفسه بأصابعه العظيمة السمراء. ولقد كانت المأدبة، بلا مراء، مأدبة حزينة؛ فما كاد الضابط الفرنسي يتكلم؛ وكان (عمانويل) وبو علم يتحادثان بالعربية؛ والفرسان الجزائريون يغطون في طرف القاعة الآخر؛ وكنت أنا، وقد أسكرني التعب، أعشو إلى الكسكسي المحلى

والخراف المحوطة بالفول، وكأني أرى بوارج في البحر وسط نوء غليظ.

_6_

ونحو الساعة الثامنة، نهض الباش أغا على قدميه، وقادنا خلال حدائق شاسعة مليئة بكلاب يبدو الشر على وجوهها، إلى (كشك) صغير من طراز فرنسي-عربي، حيث كان علينا أن نقضي الليل. غرفة فسيحة مربعة، عالية السقف، وجدران عارية مبيضة حديثًا، تنفتح فيها خمس أو ست كوى، وأربع أرائك، كل أريكة منها في خدر؛ وسراج صغير من النحاس الأحمر، موقد على الأرض يتوسط القاعة، تلك كانت غرفة نومنا.

وبعد أن شرب من القهوة قدحًا أخيرًا، تمنى لنا بو علم ليلة طيبة، واستعاد نعليه عند الباب ومضى يتعشى. وأما نحن، وقد انطوينا في أغطية حمراء كبيرة، فقد حاولنا، ولكن دون جدوى، أن نغمض أعيننا، كانت الرحلة والتوابل والقهوة المغربية قد ألهبت دمنا، وما انفكت تطرده بهياج في عروقنا، وسرعان ما اجتاحتنا حكة عاتية أخذتنا من شعر الرأس إلى أخمص القدمين.. وفي الخارج كانت بنات آوى تعوي كأنها الكلاب الصغار، وكانت الضباع تجعر. وباتت "السلوقي" (كلاب عربية) تجيبها في ثورة؛ ومن حين إلى حين، لست أدري أي جعر عجيب، غامض، أجل صوتًا، وأشد كظمًا، بات يسود هذه اللحون من جوقة الشياطين؛ ولسوف أذكر دائمًا تلك الليلة الليلاء، ليلة من الحمى والأرق لا آخر لها.

_7_

وفي الفجر -وقد عجزنا عن الصمود إلى أبعد من ذلك الأمد- أردنا أن نلوذ بالمقهى المغربي، ولكن من نكد الحظ لم يكن صاحب القهوة قد استيقظ إذ ذاك، فلم يكن بد من أن نؤم -على مسيرة نصف فرسخ من هناك- بيت سيدي بغدادي، شقيق سيدي بو علم، لعل صناع القهوة به أن يكونوا أقل كسلًا منهم لدى الأغا. وقد لقينا، في الحدائق، في الأفنية، وتحت السقائف وتحت الأروقة، الحشم العرب نائمين في الهواء الطلق متدثرين ببرانسهم الصوفية. وسرعان ما أسفر الصبح، ومع الصبح الطالع هبت نسائم صغيرة طردت كالقش ما كان بنا من حمى الليل الخبيثة. ومن أقصى بستان البرتقال الّذي يملكه بغدادي، بينما كان القوم يصبون لنا قهوة عربية ممتازة لذيذة، كنا نشاهد في مقة جنيّة الفجر "أورور" تضحك وتلعب أمامنا. وكان الأفق أخضر تصبغه خضرة باهرة يحوطها الشفق الوردي، وكنا نرى

في هذا اللون الأخضر الحلو أشجار البرتقال ذوات الثمار العقيقية، وبيوت الأغا البيضاء، تسبح مختلطة غير جلية، على حين كان العرب في ملابسهم الخضراء يتسللون في صمت بحذاء الجدران. وبالقرب منا، كانت ترقص في ريح الفجر الباردة شجرة زيتون مقدسة، تشبه أشجار "نويل" عندنا، هازّة أغصانها المحملة بصفائح براقة مزركشة، وبأذيال برانس، وركابات عريضة، وأسورة حديدية، وداليات من المرجان، وغيرها من معلقات النذور الّتي تشهد بالورع العربي.

وحين رجعنا متيممين دار الضيوف، كانت الدار متألقة نابضة الحياة. كان سيدي بو علم جالسًا على أسكفة الباب يحسو قهوته الثامنة. وكان الخدم يقبلون من كل فج يؤدون له تحية الصباح، فيأخذ الواحد منهم بعد الآخر في كفيه العريضتين رأس الأغا ويحط قبلة طويلة على تاجه المجدول من حل الإبل. وكان الأغا الطيب يتلقى هذه التحيات بعدم اكتراث هو آية في الأدب.

وفي أثناء مراسم هذا الاحتفال بتقبيل الرأس، اصطحبني (عمانويل) لزيارة السجون، ولم تطل زيارتنا. لا بوابين، ولا حراس، بل ما كان الباب موصدًا... ولمحت وجارًا رهيبًا مظلمًا عفنًا، حظيرة حيوانات أكثر منه سجنًا، وفي هذا الوجار قائمًا إزاء الحائط، بدويًّا ترك نفسه في فلسفة للهوام تقرضه.

سأل (عمانويل) بالعربية:

ـ لماذا أنت هنا؟

ـ لست أدري... إنه سيدي بو علم الّذي قال بذلك.

ـ فأي ذنب جنيت؟

ـ لست أدري.. لقد رددت للباش أغا حصانه وبندقيته لأني رغبت عن الخدمة.

ـ ولماذا ترغب عن خدمة بو علم؟

ـ لست أدري.

ـ أنت تفضل إذن أن تعفن حياتك كلها هنا، في قعر هذا المكان؟

ـ اللّه وحده يعلم...

لست أدري، اللّه وحده يعلم؛ لم نستطع أن نستخلص منه شيئًا أكثر من ذلك.

قال لي عمانويل:

ـ لندعه هادئًا، إن هو إلّا قاعد كسول سيرد الظلام والصوم إليه رشده عما قليل.

وسألت وأنا أبتسم:

ـ وهل يظل هذا الباب مفتوحًا دائمًا؟

ـ دائمًا على وجه التقريب، ولكن هذا الصعلوك الغريب الأطوار يحذر كل الحذر من استغلاله، فإن فارسين من فرسان الأغا قمينان بأن يلحقاه، إذا هو حاول الفرار، قبل أن يقطع نصف فرسخ في السهل، وإنه لهروب خليق بأن يكلفه ثمنًا فادحًا.

وفي هذه اللحظة، مر أمامنا الضابط بفرسانه وتوارى، وهو يصفر لكلابه، وراء خميلة من شجر التين. وما أدار عقبيه حتى نهض بو علم، ونفض غليونه، وأشار لنا أن نتبعه.

عبرنا في عجلة وإهراع سلسلة من الأفنية الصامتة، ولكني لسرعة سعينا، لم أستطع أن ألقى إلى يمين وإلى يسار إلّا نظرة خاطفة. جدرانًا بيضاء صفيقة جدًا، وأبوابًا سرية صدئة جدًا، وكوى يدججها الحديد، أقسم لك يا صديقي الممتاز بو علم أني ما رأيت شيئًا سواها. لا شيء، بل ولا ذراعًا صغيرة عارية في لون العنبر الأصفر قد اتكأت غير عامدة على طرف النافذة العتيقة، بل ولا ظفرًا أحمر قد صبغته الحناء، ولا هدبًا.

وفي نهاية هذه الأفنية، أدى بنا سلم عجيب مؤلف في غير انتظام من درجات ضخمة وأخرى صغيرة إلى باب مكسو من أسفله إلى أعلاه بأزرار غليظة بيضاء ووردية. وكان ينبغي لكي ينفتح الباب، مس أحدها، مس زرّ واحد من بين جميع هذه الأزرار.

قال بو علم لعمانويل: ابحث!

فجرب هذا أربعة منها أو خمسًا؛ بيد أنه رفض أن يواصل التجربة، فقد كان من سدادات الأباريق تلك ستون على الأقل.

ورفع بو علم كتفيه قائلًا:

ـ ومع ذلك، فالأمر بسيط جدًا، انظر!

ولمس في تؤده، مزهوًا بأن يصحح للفرنسيين أخطاءهم، الزر السري، المعروف لديه منذ تاريخ طويل. وكان هذا الباب العجيب ينفتح على نحو اثني عشر غرفة استقبال منمنمة، خفيضة جدًا، ضيقة جدًا، مظلمة جدًا معطرة عنيفة العطور. وبدرت جدران وسقوف علب الحلوى هذه الشرقية، وقد قسمت معينات شتيتة الألوان، كأنها رقع شطرنج عريضة لونت ألوانًا زاهية. وكانت مبسوطة على الأرض طنافس أزمير وتونس، مروجًا حريرية ترصعها نمارق حمراء موشاة بالذهب؛ وكنت ترى في كل ناحية أواني الطيب ذوات الأعناق الفضية تلتمع، ومباخر الأعواد تتوهج، والنرجيلات الطوال تتلوى في الظلمة كالحيات.

وقد خلع بو علم على "صالونه" الثاني عشر، وهو أصغرها وأفخرها، فوق هذا كلّه، ساعة حائط ومدفأة.

ـ مدفأة، أيها الإله العادل! وفيم المدفأة؟

وهذا المخدع الأخير هو الّذي كان ينتظرنا فيه شاي باذخ، قد صبته جنيّة خفية في أقداح من بلور سيفر الممتاز.

وفي الخارج، من المنفذ الّذي يقوم مقام الشرفة، بدا السهل يترقرق ندى ونورًا؛ وكان الشنيف يتلألأ من الرخاء في الشمس؛ وكانت نسائم الصباح، عاطرة أثقلتها العطور، تصعد إلينا كأنما لتهزأ بكل مترس مغلق وكل سياج مضروب. وفوق طنفستي الأزميرية، بين ملعقتين من ألوان المربى الّتي يشعشعها المسك، عاودت شفتي أغنية فيكتور هوجو العتيقة:

"لو لم أكن أسيرة لأحببت هذا البلد...."

وفي تلك اللحظة تجلت الجنيّة الخفية، في ملامح زنجية بشعة، قد كارت على رأسها عمامة صفراء وارتدت أسمالًا لامعة. دخلت فوضعت أمام سيدها قنينتين كبيرتين من روح الورد وانسحبت في غموض دون أن تفرج شفتيها الغليظتين. وصب بو علم في راحتي يدينا قطرتين من الطيب؛ وعلى إثر ذلك نزلنا نتأهب للرحيل.

وفي أسفل السلم، كانت الزنجية المروعة تنتظرنا، مقعية على عقبيها، فقبلت حذاءينا الكبيرين والتأثر بادٍ عليها، حتى إذا أصبحنا في الخارج، أعادت إغلاق الباب محدثة بالقفل صريرًا رهيبًا.

_8_

كانت دوابنا قد قضت الليل في الهواء الطلق، معقولات القدمين الخلفيتين كما هي العادة. لقد وجدناها مبتهجة بمعسكرها، مادة مناخرها للريح، رضية الطباع، تشاطرها بغلة القاضي هذا كله.

وبينما كان القوم يرفعونني فوق سرجي، كان الأغا قد استقدم فرسًا رمادية فخمة، أصبحت الجياد تصهل حولها من الوله والحب. وامتطى حفيد بو علم، وهو صبي في الثامنة، رزين وسيم، فرسًا مثلها. وكان (عمانويل) يركض على بعد قليل منا فوق شيطانه الأسود الطيب. واصطف وراءنا نحو ثلاثين من العرب، وقد تلببوا كأنما ينبرون للوغى. وفي هذا اليوم بعينه، كان السوق منعقدًا في الجندل، فانتهز سيدي بو علم، الّذي كانت واجباته تستدعيه أن يكون في ساحة السوق، هذه الفرصة لكي يخفرنا برجاله.

وقد تركوني في أول الأمر، تأدبًا، أتخذ رأس الرهط، الأمر الّذي استحييت منه بعض الحياء، ولكني بعد خمسين خطوة، توصلت إلى أن أندمج في المؤخرة، ومن هناك، استطعت أن أتذوق المشهد الرائع الّذي غدا أمامي تحت الأشعة المائلة الّتي كانت ترسلها الشمس المشرقة، مضى هؤلاء العرب البهيون، الجليلون المهيبون، يتوارون الواحد بعد الآخر، خلف الصبار كبير الجذوع، ومضت الخيل، حازمة كسادتها، مشرئبة الرؤوس تهز أعرافها. وفجأة، وقد بلغنا الريف الأجرد، تناثر الموكب الطويل، فقد اشتدت حماسة الفرسان، وانطلقت الجياد المنتشية بشعير الصباح تثب كالأعنز، وطارت "الفانطازية" طيرانًا. انقذف سيدي بو علم أول الركب يعدو في السهل بلا وعي، واختطف حفيده فرسه من أقدامها الأربع وتوارى في سحابة من النقع؛ وشق العرب الهواء، رافدين فوق مطاياهم، وهم يرسلون صيحات وحشية... ومن بعيد، كان الفلاحون المعتمدون على أيدي محاريثهم يقطعون عملهم ليشاهدوا موكبنا ويبعثون، في أصوات مدوية، تحياتهم لسيدي بو علم.

ونحو الساعة العاشرة، لمحنا هضبة الجندل؛ وفوق الهضبة، كانت زحمة عجيبة من البغال والمعزى والثيران والخراف والأتن والجمال والقبائل واليهود والبدو، خليط من البرانس والقلانس الحمراء؛ نيران توقد، وخيام تضرب، ورائحة جلد عاتية، وغبار، وصياح، بالإيجاز دولاب السوق العربي المعتاد. وكنت على أحر من الجمر أتوق لزيارة هذا كله

بالتفصيل؛ ولكن عمانويل، الّذي كانت مصالحه تستدعيه إلى مليانة في اليوم نفسه، قد وعدني أن يريني قبل انقضاء قليل من الوقت لوحات أخرى من النوع نفسه. تركنا بو علم إذن لأعبائه ينهض بها، أعباء الباش أغا، وواصلنا طريقنا ظافرين بمصافحة قلبية وبعض الحكم والأمثال العربية عن الصداقة.

_10_

ومشينا النهار كله، مشية واحدة منتظمة وئيدة، تتخللها فترات الراحة على أبواب المقاهي المغربية؛ وفي منتصف الطريق، أصر المطر على الهطول في عناد ما بقي من النهار.

وكنت قابعًا في معطف فضفاض، مدليًا قبعتي، مرهقًا من ليلة بلا نعاس ومن إسراف في استخدام البغلة، فمضيت على هوى دابتي في حال كاملة من حالات داء المشي في النوم. ومن حين إلى حين، كنت أفتح عيني نصف فتحة: كانت سيول من الماء تخطط الأفق مدى البصر، وكانت التلال غرقى؛ وكان السهل قد اختفى. وعلى الطريق الموحل، وقد انصرفت عنه المياه، كان عرب عراة السيقان يبلغون السوق مستبسلين، سائقين أمامهم بغالًا عليها خيام وحميرًا محملة بالسلال.

وكان البدو الصغار يخاطبون بغالهم قائلين لها في صوت ملق: "أرحي! أرحا!" وكنت أهيب ببغلتي: "هو! هيا! هو!". وكان هذا كله، وقد اختلط بعضه ببعض، يخب في الطين وتحت الزوبعة. وفي الحقول الممتدة على جانب الطريق، كان الفلاحون يقلبون الأرض وهو يرتلون، كما يفعلون في أيام الشمس، وكان رعاة شيوخ، وقد ركعوا نحو الشرق، يصكون صدورهم في تقوى مقبلين بجباههم أقزام النخل الّتي تهطل مطرًا.

وكنا نسعى هكذا منذ عدة ساعات، وكانت عيناي قد غمضتا، حين وقفت البغلة فجأة. فتطلعت حولي. كنت وحدي وسط سهل شاسع، بعيدًا، بعيدًا جدًا، بعيدًا عن عمانويل، بعيدًا من العرب، بعيدًا من كل شيء... وفي أرق خلق لها، كانت بغلة القاضي تقضم حسكًا غليظًا أمام بناء صغير كروي السقف أبيض الجدران، رقد أمام بابه نعلان قديمان في مشكاة،...هذا السكون، وهذا السهل، وهذا الأثر الغامض، وهذان النعلان الأصفران، ينسدل عليها جميعًا ستار كبير من المطر والضباب، كان كل هذا من قبيل الأحلام. ولكني

سـرعان مـا أدركـت، وقـد تذكـرت نـزوات بغلتـي، أننـي كنـت قائمًـا أمـام الضريـح المذكـور الّـذي يؤمـه القاضـي الطيـب ليحكـم بيـن النـاس بالعـدل ثـلاث مـرات فـي الأسـبوع. وباسـتعانة الذاكـرة، أفلحـت فـي أن أتجـه فـي الطريـق السـوي، وبعـد نحـو مـن مائـة خطـوة، لمحـت أخيـرًا مليانـة البيضـاء هنـاك عاليـة، هنـاك عاليـة، عنـد موطـئ جبـل "زكار"، يغلفهـا ضبـاب مضـروب حولها...وعندمـا دخلـت المدينـة كان الليـل حالـكًا جـدًّا. والمطـر ينهمـر مـدرارًا وخـلال الشـوارع المقفـرة كان بـدوي قـرع طبـول بليلـة إيذانًـا بالـرواح.

حلم عصفور المطر

د. ليلى الصقر *

نامت الطِّفْلَة ذات ليلة شتوية ممطرة، وحلمت أن العاصفة سرقت ساقيها وأعطتها بدلًا منها جناحين... سقطت الطِّفْلَة، وبدأت تنتحب؛ لأنّها لم تعرف كيف تتحرّك، فقد اعتادت السّير على الأرض.. فجأة جاء الرّبيع.. تضمخ المكان بالعبير... جاء عصفور، وفرد جناحيه بنشوة الفرح وهو ينفض عنه بقايا المطر وحزن الشّتاء.. مسحت الطِّفْلَة دموعها المالحة.. فردت جناحيها كالعصفور... حلّق العصفور، وحلّقت معه الطِّفْلَة إلى السّماء.. ولم تعد إلى الأرض...!

تأتي... يفْغَر جُرْحي فمه على مصراعيه... تقترب مني... أنفاسك تعذبني... تحملني من على السرير... أحس برعشتك... تهرب مني، وأنا بين ذراعيك... تسقط دمعة لا تراها... تضعني على كرسي متحرك... كالعادة عيناك تلوذان بالفرار منّي... أغص بشوكة مُرّة في حلقي... تسألني وعيناك مغروزتان في الجدار... والجدار الإسمنتي بيننا يكبر ويكبر:

ـ كيف حالك؟

أرد وأنا أحاول أن أخبّئ دموعي عنك: "بخير..."

تسقط بيننا الكلمات وتتهشم...

تأتي والشّوق يتدفق محمومًا في عينيك...

كنت لا تطيق لحظة تفرق بيننا... لهفتك تفضحك... وارتباكك يفضحك... لقد كان ما جمعنا أكبر بكثير، شيئًا مفاجئًا ومربكًا وجميلًا كمطر الصيف... كثلج الرّبيع كالدّهشة في مآقي طفل.... كنت تستعمر ضفافي بنظرة... كنت أقرؤك من سكنات أجفان، ورعشة يديك... أكنت قدري؟ كنت أراك الرجل الوحيد في حياتي مع كل برعمة تتفتّح فيَّ... أتذكر؟ عندما كنا أطفالًا كنت تحميني من الأطفال المشاغبين... وتضربهم حتى ترضيني... وتتحمل كل العلقات الساخنة من أجلي... وعندما كبرنا وصرنا لا نلتقي سوى في الاجتماعات العائلية، ونجلس متباعدين، كان وجودك يهبني دفئًا وأمانًا غير اعتياديين... خطبتني رغم الخلافات

* أستاذ مساعد بجامعة البحرين.

الّتي بدأت بين أبي وعمي وانفصالهما في العمل ظللت متشبثًا بي رغم كلّ شيء...

هل كان من الممكن أن نفترق بعد كل ما جمعنا؟ التقينا لأن قدري أن أكون لك وتكون لي... رضخ أبي وأبوك لارتباطنا على مضض...

وفي ليلة زفافنا عرفت معنى أن تلد عصفورة داخل الروح... وترفرف بجناحيها بفرح...

في عينيك وجدت سمائي وأنت تنظر إليَّ بحب العالم كله: كيف حالك؟

أجيب هامسة بخفر: "بخير..."

بخير؟؟؟؟ كلمة عابرة نقولها في اليوم عشرات المرات... ولكن ما أبعد اليوم عن الأمس! شتّان بين بخير الّتي قلتها تلك اللّيلة، وبخير الّتي أقولها لك الآن مرارًا وتكرارًا..

وعيناك... أهما العينان اللّتان كنت أجد وطني فيهما؟ لماذا ضاعتا منّي الآن؟ لماذا لم يعد قلبي يرفرف فيهما؟ لماذا صرت تخاف أن تنظر إليَّ؟ أعرف أنّني قد أضحيت الألم الكبير في حياتك الّذي لا تريد مواجهته، كنت دائمًا ضعيفًا أمام ألمي... عندما كنّا أطفالًا.. دخلت شوكة كبيرة داخل قدمي ذات يوم ونحن نلعب، وقفت مرعوبًا تحدّق فِيَّ وأنا أصرخ، حاولت أن تخرجها فازداد صراخي ونحيبي، فخفت وابتعدّت... كان ألمي يجرحك ويخيفك، فكنت تلوذ بالفرار.... واليوم أعرف جيِّدًا أنّك لم تعد تتحمّل تلك الشّوكة الّتي تغوص في قلبي وقلبك، كالعادة تقف عاجزًا، مرتبكًا، بينما لم يبق من حبك لي سوى ذلك السّيخ الحامي من العذاب، أو تلك الشفقة الّتي تهرب منّي حتّى أراها في عينيك...

منذ أن هاجمني مرض السكر بعد إجهاضي لطفلنا الأول، وأنت معي كما كنت تحاول نزع الشّوكة عندما كنّا صغارًا، وعندما اسْتَعَرَّ الألم وزاد الصراخ، واتَّفق الأطباء أن (الغرغرينا) قد انتشرت في كلتا ساقيّ انتشارًا سريعًا، ولم يبق إلّا البتر حلًّا أخيرًا، ولم تستطع المواجهة، هربت، وابتعدت عن هذا كّله... حتى عملية البتر رفضت أن توقّع بالموافقة عليها... ومنذ ذلك اليوم ضاعت منّي عيناك، وضاع الوطن... كانت أقسى لحظة في حياتي، كان البتر يتربص بحياتي كلّها...

إنهم لن يبتروا ساقيّ فقط، بل سيبترون حياتي كامرأة، سيبترون روحي وشبابي، وقبل

كل شيء سيبترون علاقتنا إلى الأبد... تمنيت أن أجدك قربي في تلك اللحظات المريعة، تضغط على يدي، تقبل رأسي، تربت عليّ وتواسيني، تذكّرني بأنّني حتى لو بتروا كلّ أعضائي، سأبقى الإنسانة الّتي تحبها وستتمسك بي إلى الأبد... الأبد؟؟؟ آه يا لها من كلمة مطّاطيّة، هزلية، كنت تجيد ترديدها، رغم أنّك كنت معي في الغرفة نفسها، ولكن عينيك المكسورتين كانتا تهربان مني... كم كنت أحتاج أن أتلحف بدفئهما في تلك اللّحظة، ولكنّك كنت تخاف أن تنهار أمامي إن نظرت إليَّ، ظللت متخشِّبًا جامدًا كتمثال من الشّمع... لقد حكمت على قلبي بالبتر قبل أن يحكم الأطباء على ساقيّ بالبتر، وكان حكمك قاسيًا كحكمهم دون أي فرصة للنّقض أو الاستئناف...

أخرجوني من غرفة العمليات بلا ساقين...

وبلا روح!

البتر إحساس غريب...

فجأة تحس أنّك لست أنت.. إنهم بتروك...

الكل ينظرون إليّ بإشفاق كأنّني انتهيت، الكل يواسيني.. لماذا يعزّونني في نفسي؟ لماذا يدفنوني قبل أن أموت؟

ـ وأنت لماذا تقف لتتقبّل التعازي فيَّ بصمتك المعهود؟

وجع مجنون ينهشني رغم كل الحقن المخدرة، أبحث عن ساقيّ، أتحسس الموضع الخالي على السرير... أحسّ أنّني في كابوس وأنتظر أن يوقظوني منه، أحسّ أنني بترت من الدّاخل، وأنت لا تنظر إليَّ، أراك بين زوّار كثيرين، الزوار الذين جاؤوا بشفقتهم وورودهم ونظراتهم الحزينة، وأسمع في همساتهم شفقتهم عليّ: مسكين عبد اللّه، اللّه يعينه، ماذا سيفعل في هذه المصيبة؟! فجأة أصبحت مصيبة في حياتك، وعبئًا ثقيلًا يشفق عليك الجميع من تحمّله!

منذ شهور عندما كان عليك أن تجري عملية خطيرة في القلب، كنت أجري وراءك في المستشفيات، وأسهر كل ليلة قربك، وأبتسم لك رغم تعبي وألمي؛ لأنّني كنت في الشهور الأولى من الحمل... بعد شهرين نجحت عمليتك، بينما أجهضت جنيني الأوّل بسبب

التّعب المتواصل، لم يشفق عليَّ أحد، كانت العيون كلّها تقول: هذا واجبك كزوجة، يجب أن تضحّي بكل شيء من أجل زوجك! التّضحية؟ شيء غريب لأول مرّة أكتشف أنّ كلمة التّضحية مؤنثة.

المرأة يجب أن تضحّي وتتحمّل وتصبر في مجتمعنا، وفي المقابل الرّجل دائمًا هو الضّحية... المسكين! أنت حتّى لم تتعطّف عليّ بنظرة مواسية أو ابتسامة تلثم بها آلامي، وبدأت رحلة العذاب...

منذ أن انتقلت إلى البيت كسيحة على كرسي متحرك ونحن لم نعد نتكلّم، أحضرت خادمة للعناية بي، وانتقلت للنّوم في غرفة أخرى.

كان عذابي الأكبر ليس في عاهتي ولا في عجزي وحياتي الّتي تحطّمت بين عشيّة وضحاها، بل في عينيك اللّتين حكمتا عليّ بالإعدام...

كنت أبكي وأبكي، والدّموع جمرات من العذاب لا تنتهي أو تجف...

وشقائي بك يتجدد كلّ يوم وأنا أراك تدخل الغرفة لتعطي الخادمة بعض التّوجيهات وتذهب دون أن تنظر إليّ أو تسأل عنّي، ألمي فوق أيّ احتمال، فجأة صارت حياتي مرهونة بهذه الخادمة الأجنبية الّتي تنقلني بين سريري وكرسيّي المتحرك والحمام....

ولم ينته عذابي! بدأت الحرب الكبرى في عائلتك، وفي عيون النّاس. كان الكل ينظرون إليك نظرة الفدائيّ المسكين الّذي عليه أن يتحمل زوجته الكسيحة، وكان الكل يلحّون عليك بالزّواج، خاصّة عمّي الّذي بدأ يعيّرك أن هذه نتيجة زواجك منّي رغم معارضته.... ما الّذي يجبرك وأنت الشاب الجامعي الوسيم ذو المركز المرموق أن تقضي حياتك مع بقايا امرأة كسيحة معطوبة؟

كنت لا تملك إلّا الرّفض الحزين، روحك المقاتلة انكسرت ولم يبق فيك سوى الحزن، ولم أتحمّل هذا كلّه... كانت عيون أهلك تلومني طيلة الوقت:

(أنتِ عالة على ابننا! لماذا تفعلين هذا بابننا؟ إننا نشفق عليك، ولكن ما ذنب ابننا؟)

كان الوجع يعضّني بشراسة، لم أعد أتحمّل... بعد ليلة لم تذق فيها أجفاني النّوم، قررت أن أكلمك، وأنهي هذا كله.... طلبت من الخادمة أن تضعني على كرسيي المتحرك، ذهبت

إلى غرفتك، ارتبكت عندما رأيتني.. وسرت رعشة واضحة في ملامحك، قلت وأنت تحاول أن تتحاشاني كعادتك:

ـ خير؟ هل حدث شيء؟

رددت بألم: "وهل يجب أن يحدث شيء حتّى أتحدّث مع زوجي؟"

رأيت في عينيك دمعة خرساء، ولم ترد..

فقلت وأنا أحاول التَّمسّك بشجاعتي: "لقد جئت أطلب إليك طلبًا واحدًا أتمنّى أن تنفّذه لي إن كانت لي بقايا معزة عندك".

نكست رأسك، ومسحت دمعة سقطت من عينيّك، لم تعد تستطيع إخفاءها أكثر.

لم أعد أتحمل ضعفك.. واصلت كلامي كأنّني ألفظ أنفاسي الأخيرة: "يجب أن تتزوّج يا عبد اللّه.."

رفعت رأسك نحوي لأوّل مرّة بألم مذهول: "ماذا؟"

قلت وأنا أحسّ أنّني أعضّ على لساني وأن الدّم المالح يملأ فمي ويتدفّق على صدري: "تزوّج!"

قلت كأنّك تبكي: "لا أصدق ما تقولين؟ هل جننت؟"

ـ بل الجنون بأن تستمرّ حياتنا هكذا. أنا لم أعد المرأة الّتي تستطيع إسعادك.

نظرت إليّ والكلمات تتعثّر على شفتيك: "أنت تعرفين أنّني..." وأحسست أنك ستقول لي أنّك ستعود إلى عشّك الّذي بنيته في قلبي منذ دهور.

لكنك لم تلبث أن تمتمت بحزن: "تعرفين أنّني مستحيل أن أتزوّج!" رددت بصوت نطق بكل عذاباتي: "وأنا مستحيل أن أبقى في هذا البيت إذا لم تتزوّج".

لم ترد... وجررت كرسيي خارج غرفتك قبل أن أضعف.. كنت أعرف أنّك لم تستطع أن تقول لي كم تحبني وكم تتعذّب من كل ما حصل، أنت لا تستطيع مواجهة هذا كلّه، لم تُرِدْني أن أرى دموعك كنت أدرك عذابك، لذلك لقد استجمعت شجاعتي وواصلت مهمّتي.. رفعت السمّاعة وحادثت والدتك.. أخبرتها أنك يجب أن تتزوّج لكي تكون سعيدًا.

وعلى الرّغم من ذهول والدتك وشفقتها الواضحة في صوتها، فإنّها لم تحاول إخفاء حماسها للفكرة، ووعدت بالبحث عن زوجة ثانية تكون طيّبة ومسالمة، وتقوم بخدمتك وخدمتي! وفي أقل من أسبوع وجدت أمك الفتاة المناسبة! آه يا عبد اللّه الأثير، لقد أحببتك دهرًا كاملًا، وها هم في أقل من أسبوع يختارون امرأة جديدة تسرق تاريخي كله معك! وتحول تضاريس الفرح في عمري معك إلى الجحيم من الشّقاء.

وبدأت الضّغوط تقوى من عائلتك، خاصّة بعد تصريحي بموافقتي على زواجك، ولم تملك وسط هذا كلّه سوى أن تستجيب لرغبة أهلك استسلام... (مازلت أجيد استعمال علامات التعجّب في محاولة يائسة لاستعادة إنسانيتي).

لا أدري لماذا لا تكف دموعي عن الهذيان والصراخ المجنون... على الرّغم من قيامي بهذه المبادرة ورغبتي في رؤيتك سعيدًا، كنت أتمنّى حتّى آخر لحظة أن تتمسّك برفضك.

لماذا يتحدّثون عن الضّحية والحب الأبدي؟

مازلت متمسّكة بهذه المثالية الغبيّة بعد كل ما حصل!

الجحيم يفترسني بلا هوادة، تنتابني نوبة ألم مسعورة في ليلتها الأولى في البيت، أبحث عن ساقيّ فلا أجدهما، الحمّى... هل هذه حمّى الألم أم ألم الحمّى... سكاكين تنغرز في كل ذرة من جسدي، وتقطعني إربًا.

يا لي من حمقاء غبية! ترى هل أحببتني يومًا؟ هل مازلت أؤمن بهذه الكلمة الخرقاء؟ هل الحب كلمة أم موقف؟ لقد قلت كثيرًا من القصائد، ولكن ها أنت تتخلى عنّي عند أول موقف حقيقيّ، تَنْقَضُّ عليّ الأشباح المرعبة، تجلدني بساط ذاكرة الوجع الّتي لا تنام، تعضّني الهواجس، أتمنى ألّا يطلع عليّ الصّباح... لماذا أحيا يومًا جديدًا؟ وماذا بقي لي لأعيش من أجله؟

أراها في صبيحة اليوم التالي متورّدة، جميلة، سعيدة، مفعمة بالعطر والحياة والأنوثة... تسير بدلال، أين ساقيّ؟ تطرق زوجتك باب غرفتي. لا بدّ أنّك قد أرسلتها إليّ لأنك لا تقوى على مواجهتي كالعادة... تسأل عن صحّتي، أرد كما اعتدت أن أرد من بين جدران تابوتي، وعلى شفتي طعم الموت: بخير (آه يا لكذب الكلمات!)

آه يا عبد اللّه العزيز، كم هي جميلة وطيّبة زوجتك الجديدة، كم أنت محظوظ! لا بدّ أنها قد نفثت فيك الحياة من جديد... الحياة! كلمة لا يعرف معناها إلّا إنسانة مثلي، تعلّمت أن تُدفن وهي حية، وأن يتبادل النّاس التّعازي فيها، ويشيّعون جنازتها أمامها، ويأتون بامرأة أخرى تحلّ مكانها في حياة زوجها... آه ما أكبر الفرق بين زوجتك الجديدة الّتي تبدأ حياتها، وبيني أنا الّتي أبدأ التّعود على موتي... تخرج من الغرفة، ترتبك عندما تراها واقفة معي، تتحاشاني كعادتك.. تناديها، فتستأذنني وتذهب إليك..

أنهار، أتمنّى الموت في هذه اللّحظة.. لقد قتلتني يا عبد اللّه.

أسقط من على الكرسيّ.. أفاعي هلامية تخرج من تحت جلدي، ومن بين مساماتي، وتلدغ الموضع الأيسر من قلبي.. هنا تمامًا حيث تسكن دهاليز الرّوح... أغرق في عجزي أنزفك دموعًا ضارية، أذوب في لجة مفترسة من النّحيب والشّهيق... تحاول الخادمة حملي من على الأرض.... أدفعها عني وأنا أصرخ بهستيرية... تخرج من غرفتك، تنظر إليّ بألم.. لأول مرّة منذ أسابيع تقترّب منيّ وتحاول حملي وتهدئتي... أصرخ: اتركوني الآن.. أريد أن أبقى وحدي...

عيناك موجوعتان، نادمتان، يفقس حزني ذلًّا... أصرخ: تعبت من شفقتكم... أنادي الخادمة، أتركها هذه المرة تضعني على السّرير، وأطلب إليها أن تغلق الباب.. تخرج أنت وزوجتك، وأنت عاجز كعادتك عن التّصرف.

كم ردّدت على مسامعي أنك ستجلب لي القمر والنّجوم...

أضحك وأبكي بمرارة على هذه النكتة، أحس بغصّة تخنقني، تتآمر عليّ كل ذكرياتي معك، أشقى بفرح كان لي يومًا، أنظر إلى حبّات الدّواء بالقرب منّي... كم قرصًا فيها؟ أكثر من عشرين... لماذا لا أبتلعها كلّها وأنهي شقائي؟ أمسك العلبة بأصابع مرتجفة، تتساقط عبراتي العاجزة وأنا أبحث عن الخلاص.. أفتح العلبة، تسترخي عضلاتي، أستعدّ للرّاحة... فجأة أسمع صوت الأذان... رعشة تتملك الروح الثكلى..

اللّه أكبر... أكبر من دموعي وعذاباتي...

اللّه أكبر.... أكبر من عجزي وقنوطي..

اللّه أكبر... أكبر من زنزانة الألم الّتي حبست نفسي فيها..

أرمي أقراص الدّواء، أستغفر اللّه على لحظة ضعفي، ويسقط عذابي دموعًا.. أصلي الفجر.. أبكي بدموع تغسل قلبي المكلوم..

أسمع طرقات المطر على نافذتي، أفتح الشّباك، أرى عصفورًا صغيرًا يتحدى المطر والريح ويفرد جناحيه ويحلق عاليًا، أرى نفسي قد تحررت من كرسيي وعجزي وطرت معه... أمل غامض يتسرّب إلى نفسي... أتذكر رحمة اللّه، وأبكي لأنني استسلمت للموت...

أريد أن أحيا أكثر من أي وقت مضى...

أنام لأول مرة منذ أن بُترت ساقاي وأنا في انتظار الصّباح.

أصحو... أراك واقفًا عند سريري تنظر إليّ بألم، أنت لا تستطيع، وأنا لا أستطيع أن أتحمل أكثر... تسألني عيناك عن أحوالي.. فأقول لك: "أنت تعرف يا عبد اللّه مكانتك عندي".

تجيب بحزن: "وأنت تعرفين أيضًامكانتك عندي".

لا أدري لماذا بدت لي جملتك هزلية في هذه اللحظة، وأحسست بالرّغبة بالضّحك.

أرد كأنّني لم أسمع: "لقد تركت سنتي الأخيرة في المدرسة لأتزوّجك، كنت أرى طموحي في عينيك، كان طموحي الوحيد حينذاك أن أتزوّجك وأسعدك، وأعيش معك الحياة الّتي طالما كنت أتمنّاها، ولكنني لم أجد معك غير الموت. إنّني أريد العودة إلى الدّراسة".

ترد بذهول متلعثم: "ولكن أنت لا تستطيعين! أنت.....!"

أواصل: "أعرف أنّني قد فقدت ساقيّ، ولكنني لم أمت بعد... أعرف أنك تعتبرني قد مت، وأنّك قد أصبحت تتعامل معي على هذا الأساس.... مجرد جثّة مشوّهة تقرف من رؤيتها".

تقول وأنت تخفض عينيك حتى لا أرى دموعك: "لماذا تقولين هذا الكلام؟ إنك تعذّبينني".

أخاطبك: "إنك حتّى لا تستطيع النّظر إليّ وأنت تكلمني... انظر إليّ.. انظر إلى آثار

البتر في جسدي، إنك لا تستطيع... وحتى لو استطعت فإن الشيء الوحيد الّذي تستطيع أن تعطيني إياه هو دموعك وشفقتك.. لقد بتر الأطباء ساقيّ، لكنّك بترت إنسانيّتي، بترت علاقتنا... بترت كل شيء جميل جمعنا في يوم من الأيّام".

تسقط دموعك هذه المرة، وتنظر إليّ بعينين كسيرتين: "لكن ما حصل كان أكبر منّي... ماذا بيدي أن أفعل بعد كل ماحصل؟"

أرد: "إن كنت عاجزًا، فأنا رغم أنّني مبتورة السّاقين فإنني لست عاجزة، رغم أن موتي قد يكون فيه راحة لك، لكنّي قرّرت العودة إلى الحياة، سأعود إلى الدّراسة بالانتساب، سأدرس التّجويد؛ لأحقق حلمي في إعطاء دروس التّجويد".

تتلعثم: "ولكن....".

أقول بقوة لا أدري من أين جاءتني: "إذا كانت عودتي إلى الحياة لا تعجبك فطلّقني، فلم يعد يربطنا سوى الجراح، لقد تعبت من شفقتك ناحيتي... متى كانت آخر مرة بتّ عندي أو حتّى تكلّمت معي؟ أنا الألم الوحيد في حياتك، فلماذا لا تطلقني وتصبح رجلًا سعيدًا تنعم بحياتك مع زوجتك الجديدة دون زوجة معاقة كئيبة".

تهرب كالعادة من المواجهة: "لن أطلقك أنت حرة إن كانت عودتك إلى الدّراسة ستريحك فافعلي ما تريدين".

أحسّ بطاقة غريبة تتملّكني... أتّصل بأمّي وأخبرها برغبتي في العودة إلى الدّراسة... تثور "هل جننت؟ إن من بمثل حالتك لا...".

أنهي الحوار، أحسّ أنهم قد بتروا ساقيّ مرة أخرى، لا أستسلم لعجزي.. أتذكر صديقتي القديمة الّتي لم أكلمها منذ تزوّجت، أتّصل بها، أخبرها برغبتي... تتحمّس وتعدني أنها ستساعدني في الدّراسة... تقوم بالإجراءات، تشتري لي الكتب، تأخذني معها لدروس التّجويد والشّريعة...

لأول مرة أحسّ بالحياة وأنا أقرأ.. كل كتاب يأخذني إلى عالم جديد من البعث والحياة، أقدم الامتحانات، أنجح في الشّهادة الثّانوية، أتفوّق في دروس الشّريعة... أبدأ بإعطاء دروس الشّريعة في بيتي... أسجّل للجامعة...

صرت أرى نظرات الإعجاب في عيون من حولي بدل الشّفقة...

لأول مرة أحس بذاتي، لم أشعر بهذه السّعادة حتّى قبل أن يبتروا ساقيّ، كنت أسير مثل كل النّاس في مدينتي، ولكنني اليوم أحلق عاليًا..

أفتح الشّباك، المطر النّازل يغسل المدينة، ويكركر في المزاريب، أرى العصفور الصّغير مازال يتحدّى المطر والعاصفة... يفرد جناحيه ويطير... أحس بساقيّ تعودان لي، أجري، أركض، أقفز... ينبت لي جناحان... لم أعد محتاجة إلى ساقيّ، أرميهما أفرد جناحي وأحلق في الفضاء الفسيح.

زوجها الّذي هرب

آرثر موريسون*

لا يزال تصرف سيمونز المشين نحو زوجته موضوع استغراب شديد بين الجيران. كانت النساء الأخريات يعتبرنه زوجًا "مثاليًا" وكانت السيدة سيمونز، ولا ريب، زوجة ذات ضمير حساس. وكل امرأة في ذلك الحي تشهد بأنها تعبت وشقيت في سبيل ذلك الرجل أكثر بكثير من أن يكون الحق لأي زوج من الأزواج أن يطالب به. والآن هذا جزاؤها منه. لعله جن فجأة؟

كانت السيدة سيمونز قبل أن تتزوج من صاحبنا سيمونز، أرملة السيد فورد، وكان هذا الأخير حمّالا على ظهر باخرة غير تابعة لخط بحري منتظم. ولكن هذه الباخرة وجميع من على ظهرها غرقت في البحر - ودخل في روع الأرملة أنّ هذا قضاء عادل حل به نتيجة تمرد منه دام سنين طويلة إلى أن انتهى به إثمه إلى مزاولة العمل على متون البحار، بل مزاولته كحمال! وذلك تدهور مريع لبراد ميكانيكي قدير، وقد بقيت عاقرا اثنتي عشرة سنة مع السيد فورد، وبقيت عاقرا كذلك مع سيمونز بعد زواجها منه.

أما سيمونز فالكل يؤكد أنه كان محظوظًا بهذه الزوجة القديرة، كان يمتهن النجارة وكانت معرفته فيها لا بأس بها، ولكنه لم يكن من الرجال المقبلين على الحياة. ما كان أحد ليستطيع أن يتكهن ما الّذي سيحل بتومي سيمونز لو لم تكن هناك امرأة اسمها السيدة سيمونز تعتني به. وهو رجل هادئ وديع، ذو وجه صبياني فيه شعر هش مبعثر على العارضين والشاربين. لم تكن له أية عادات لازمة. غير أنَّ السيدة سيمونز زرعت في نفسه فضائل شتى غريبة. فهو يذهب صباح كل أحد إلى الكنيسة بوقار، وقبعة عالية تعمر رأسه، ويضع بنسًا واحدًا في الطبق تعطيه إياه لهذا الغرض من كسبه الأسبوعي، وبعد رجوعه وبإشراف السيدة سيمونز ينزع أحسن ثيابه وينظفها بفرشاة بكل اهتمام ومشقة. وفي أيام السبت يبدأ بعد الظهر بتنظيف السكاكين والشوكات والأحذية والقدور والشبابيك بصبر جميل وضمير مرتاح. وفي أيام الثلاثاء يأخذ الثياب للكي، وفي ليالي السبت يرافق السيدة سيمونز إلى السوق ليحمل الرزم.

* كاتب إنكليزي (1916-).

أما فضائل السيدة سيمونز الشخصية فقد كانت أصيلة بسيطة ومتعددة. لقد كانت مدبرة ممتازة، وكل بنس من شلنات تومي الثمانية والثلاثين الأسبوعية كانت تفيد منه أعظم فائدة. ولم يكن تومي ليجرؤ على التخمين عن المقدار الّذي ادخرته منها. ومجرد النظر إلى نظافتها في شؤون البيت الزوجية يبعث على الذهول. لقد كانت تستقبل سيمونز عند الباب الخارجي كلما أتى إلى البيت، وهناك يستبدل حذاءه بنعل وهو يوازن نفسه بمشقة وألم من رجل إلى أخرى على البلاط البارد. كان هذا لأنَّها غسلت الدهليز والممر بمساعدة زوجة العائلة القاطنة في الطابق السفلي، ولأنَّ بساط الدرج كان بساطها. وبعد الشغل كانت تشرف على زوجها حتى نهاية عملية "تنظيف نفسه"بدقة وحذر، فتضع نفسها بين الجدران وبين الرشاش الّذي قد يتطاير عليها. وإذا حدث، رغم جهدها المبذول، أن بقيت بعض البقع ظاهرة فإنها تجهد نفسها في طبع تلك الحقيقة على ذاكرة سميونز، وتسرد له مطولا تفاصيل الأمور الّتي تثبت أنانيته الجحود. في البدء كانت ترافقه دوما مرافقة الخفير إلى حوانيت الملابس الجاهزة، فتنتخب له ما يروق لها ثم تدفع الثمن بنفسها -لأن الرجال وما أشبه بالحمقى وأصحاب الحوانيت يتلاعبون بهم كيفما شاؤوا- ولكن سرعان ما تخطت هذه العقبة حين خطر ببالها أن تصنع ثياب سيمونز بنفسها. وكان التصميم إحدى فضائلها.

فابتدأت بعد ظهر ذلك اليوم بخياطة بدلة من قماش صوفي مضرب صاخب اللون قَصَّته على طراز بدلة قديمة، وليس ذلك فحسب، بل كانت البدلة جاهزة يوم الأحد! فَغَرَ سيمونز فاه دهشة لهذا الإنجاز الباهر، أقحمته فيها ودفعته إلى الكنيسة قبل أن يسترجع رشده.... غير أنه وجد أنها لم تكن مريحة تماما. فالسروال ضيق تحت ركبتيه ولكنه يتهدل بارتخاء وراء عقبيه. وعندما جلس وجد أنه يجلس على متاهة من الطيات والدروز القاسية. وكانت ياقة سترته تشد كتفه بكتفه الأخرى، بينما انتفخ هيكلها بسخاء كالحقيبة أسفل خاصرته.

لقد اعتاد على المنغصات يتقبلها كأمر مسلَّمٍ به، ولكنَّ ذلك لم يكن ليجعله على وئام مع زملائه المستهترين في المشغل. إذ بينما تخيط السيدة سيمونز بدلات محكمة متتالية، تخاط كل منها بموجب سابقتها، كانت هفوات تصميمها تنمو وتتوطد حتى تصبح مبادئ، بل إنَّها تشتد بروزا وبشاعة. وغمزات سيمونز كلها ذهبت سدى. فقد أشار إليها من طرف خفي بألّا ترهق نفسها بالعمل وأنَّ الخياطة تلف العينين، وأنَّ هناك دكان خياط جديدة

في الطرف الآخر من الطريق، رخيص جدًا، حيث إنَّ... فأسكتته بحدة قائلة: "إي واللّه صح! إنك دائم التفكير بالآخرين، بينما رحت تجلس هناك وأنت تمثل الكذب بعينيه أمام زوجتك! وكأنَّني لا أستطيع أن أقرأك ككتاب مفتوح يا توماس سيمونز. كثيرًا ما تهتم بإجهادي بعد أن نلت كل ما تبتغيه. تبعثر النقود وتقذف بها كالقاذورات في الشارع على حفنة من الخياطين المختلسين، وأنا هنا أَكِدُّ وأشقى كالعبيد لكي أوفر الفلس الواحد، وهذا ما ألقاه منك جزاءً وشكورًا. لعلك تحسب أنك تستطيع أن تلتقط النقود من عرض الشارع؟ لا شك أنني كنت سأحظى باهتمام أكبر لو أني استلقيت على السرير طيلة اليوم، كما تفعل الأخريات". وهكذا تجنب توماس سيمونز الموضوع، فلم يعد يتذمر حتى عندما صممت أن تقص له شعره أيضًا...

وهكذا دام حظه الوادع لسنين عدة. ثم حل مساء ذهبي من أمسيات الصيف حين حملت السيدة سيمونز سلتها وذهبت لكي تتسوق وتركت سيمونز وحده في البيت. فغسل أواني الشاي ووضعها جانبا، ثم انصرف للتفكير في سروال جديد كان قد أنجز في ذلك اليوم وعلق وراء باب غرفة الجلوس. علق هناك بكامل شكله... بريء المقعد، قصير الساقين، طويل الخصر، بزخارف فاضحة لم يلبس مثلها قط من قبل. وإذ هو يرمقه استيقظ فيه شيطان الخطيئة الأصلية الصغير، وعربد في صدره.

لقد خجل منه بالطبع لأنه يعي الجميل الّذي هو مدين به لزوجته لصنعها ذلك السروال عينه، ناهيك عن النِّعم الأخرى الّتي تمن بها عليه. ومع ذلك فقد كان الشيطان الصغير هناك، وكانت اقتراحاته الدنيئة كثيرة جدًا، لا سيما بشأن ذلك السروال.

قال له الشيطان الصغير أخيرًا: "اقذف به في برميل القمامة! إنَّه خير مكان يليق به".

فأجفل سيمونز وهو في أشد ما يكون من الهول من ذاته الشريرة، وفكر برهة في غسل أواني الشاي مرة أخرى على سبيل تأديب النفس، ثم توجه نحو الغرفة الخلفية، ولكنه رأى من صحن الدرج أن الباب الخارجي مفتوح... لعل ابن القاطنين في الطابق الأسفل هو السبب في ذلك. غير أنَّ بقاء الباب الخارجي مفتوحا أمر لا تقبل به السيدة سيمونز. فنزل لإغلاقه كي لا تغضب عليه عند رجوعها. وبينما هو يغلق الباب ألقى نظرة على الشارع.

كان هناك رجل يتسكع على الرصيف ويختلس النظر إلى الباب باستطلاع. كان مدبوغ الوجه، ويداه غائرتين في جيبي سرواله الأزرق المترهل، وعلى مؤخرة رأسه قبعة من القبعات السائدة بين حمّالي الموانئ. خطا خطوة فجائية نحو الباب وقال: "السيدة (فورد) هل في البيت؟"

فحملق فيه سيمونز نحوا من خمس ثوان ثم قال: "ها؟"

ـ "كانت من قبل السيدة (فورد) - والآن السيدة سيمونز، أليس كذلك؟ "

قال الغريب هذا وهو يلقي نظرة مختلسة شريرة لم يهضمها سيمونز ولم يفهمها.

قال سيمونز: "لا، إنها ليست في البيت الآن."

ـ "ألست أنت زوجها؟"

ـ "بلى."

نزع الرجل غليونه من فمه وأظهر أسنانه في شبه ضحكة مغتصبة طويلة، ثم قال أخيرًا: صدقني يظهر أنك من النوع الّذي تحبه الرجال". ثم أظهر أسنانه في ضحكة خبيثة مرة أخرى. وعندما رأى أن سيمونز قد استعد لغلق الباب وضع قدمه على العتبة ويده على الباب، وقال: "لا تكن عجولًا يا صديقي. لقد أتيت إلى هنا لكي أتكلم معك قليلاً كلام رجل يخاطب رجلاً، ألا ترى ذلك؟"

فانزعج تومي سيمونز ولكن الباب لم يكن ليغلق. وهكذا أخذ يناقشه: "ماذا تريد؟ إني لا أعرفك" "إذن، إذا كنت تسمح لي، سأعرّف نفسي". قال هذا ولمس طاقيته بحركة تواضع ساخرة، وأردف: "أنا بوب فورد، قادم من ملكوت اللّه، إن صح هذا القول. غرقت ومت قبل خمس سنوات. وأتيت الآن لأرى زوجتي".

وفي أثناء هذه الكلمة كان فكّا تومي سيمونز ينفرجان أكثر فأكثر. وعند انتهائها غرس أصابعه في شعره وألقى نظره على الحصير، ثم نظر إلى كوة الضوء فوق الباب وأجال طرفه عبر الشارع، بعدها رمق زائره بنظرة ثابتة، ولكنه لم يجد ما يقوله له.

كرر الرجل: "أتيت لأرى زوجتي وبوسعنا أن نصفي المسألة الآن، رجلا لرجل".

أغلق سيمونز فمه ببطء واقتاد الزائر إلى الطابق العلوي آليًّا، وأصابعه ما تزال في

شعره، والشعور بحقيقة الوضع ينغرس شيئًا فشيئًا في دماغه. واستيقظ الشيطان الصغير فيه مرة أخرى. افرض أن هذا الرجل هو فورد؟ افرض أنه ادعى بزوجته؟ أتكون ضربة قاضية؟ هل ستزيحه من الطريق أم لا؟ فكر في السروال، في أواني الشاي، وفي أواني الغسيل والكي، في السكاكين، في القدور، في الشبابيك فكر فيها كمن اقترف خطيئة عن قصد.

وعلى صحن الدرج قبض (فورد) على ذراعه وسأله في همس مبحوح: "كم سيطول الوقت بها قبل أن ترجع؟"

وقبل أن يجيب سيمونز كرر السؤال عدة مرات في دماغه ثم قال: "نحو ساعة على الأغلب".

قال (فورد) وهو يجيل الطرف حوله: "آه، لقد قضيت هنا وقتا مريحا تنعمت به. هذه الكراسي وهذه الأشياء الأخرى كانت ملكها، أعني ملكي أنا، ولأقلها لك بصراحة، رجلاً لرجل" ثم جلس وتابع: "حسنًا ها أنا هنا مرة أخرى بوب فورد، الهالك الراحل، الّذي غرق في البحر! ولكن ها أنا لم أهلك، كما ترى؟ إني لم أهلك. ولكن لماذا؟ لأنَّ ملاحا ألمانيا التقطني، وتشبثنا بالصاري معًا، ثم بقيت لبضع سنين وأنا أهيم منذ ذلك الحين على وجهي، والآن" -ورمق سيمونز بثبات- "لقد رجعت لكي أرى زوجتي".

فقال سيمونز مشدوها: "إنها لا تحب التدخين هنا في البيت".

فأجاب (فورد): "كلا، إني أراهن على أنها لا تحب ذلك" ثم نزع غليونه من فمه وأخفضه بيده على قدر ما استطاع ثم أردف: "إني أعرف زوجتي حنة. كيف تجدها أنت؟ هل تجعلك تنظف الشبابيك؟"

فأقر سيمونز بذلك وقال بعدم ارتياح: "واللّه أنا -بالفعل أساعدها في بعض الأحيان، طبعًا".

- "آه، والسكاكين أيضًا، إني أراهن، والقدور البراقة. إني أعرف ذلك كله". ثم نهض وانحنى ليرى قفا سيمونز.

- "يا! أعتقد أنها تقص لك شعرك أنت أيضًا! تمامًا، هذا أيضًا مما يلذ لها أن تفعله!"

وأخذ يرمق سيمونز الخجل من نواح متعددة بتعال، ثم رفع إحدى ساقي السروال

المعلق وراء الباب وقال: "إني أراهن أنها هي الّتي خاطت لك هذا. ما من أحد غيرها يستطيع أن يصنعه على هذا الشكل. إنَّه أردأ حتى من هذا الّذي تلبسه الآن".

وابتدأ الشيطان الصغير يأخذ بزمام النقاش كما يشتهي. لو استرجع هذا الرجل زوجته، لعله يضطر إلى لبس السروال...

و أردف (فورد): "أي واللّه ما تغيرت ولا تحسنت!"

وابتدأ سيمونز يشعر بأن ذلك لم يعد من شأنه. من الواضح أنّ حنة كانت زوجة هذا الرجل الآخر، وعليه إن كان شريفًا أن يقر بالحقيقة. لقد صورها له الشيطان الصغير كقضية واجب لا بد منه.

ثم قال (فورد) فجأة طيب! الوقت قصير ولم نصل إلى نتيجة بعد. لن أكون شديدًا معك يا صاح، ولكن على أن أتمسك بحقوقي على أكمل وجه. وأنا إذ أراك شابًا تتفهم الأمور وتعيش مستقرًا هنا بطمأنينة في عش الزوجية" -وبدفقة من السخاء أضاف: "أنا سوف واللّه، نعم، سوف أوجز القضية ثم أهرب. تعال، سأحدد لك مبلغًا كرجل أمام رجل. والمبلغ مقطوع ونهائي، لا أكثر ولا أقل: خمسة دنانير تحل المشكلة".

لم يكن لدى سيمونز خمسة دنانير -ولا حتى خمسة بنسات- فقال: "معاذ اللّه أن أقف عائقا بين رجل وزوجته. لا واللّه أنا الّذي سأهرب".

فقال (فورد) بسرعة وهو يقبض على ذراع سيمونز "لا، لا تفعل ذلك. سأرخص المبلغ قليلاً ثلاثة دنانير - معقول أليس كذلك؟ ثلاثة دنانير ليست مكافأة كبيرة لكي أذهب عنك وأتركك إلى الأبد - إلى حيث تهب الرياح العاصفة، كما يقولون - ولن أرى زوجتي مرة أخرى أبدًا، خيرًا كان ذلك أم شرًا. ثلاثة دنانير وأخلي لك الجو. والمبلغ معقول، أليس كذلك؟"

فأجاب سيمونز بحرارة: "كلامك معقول ولا شك، بل أنه كلام رجل شريف - شريف للغاية. ولكنني لن أستغل طيبة قلبك على هذا النحو الحقير يا سيد فورد. إنها زوجتك وعيب علي أن أقف بينكما. إني أعتذر تريث. أنت هنا وخذ حقوقك كاملة. أنا الّذي سأخلي لك الطريق، وسأفعل!"... خطا خطوة نحو الباب.

فصاح (فورد) وهو يقف بين سيمونز والباب: "قف! لا تتسرع بالأمور: فكر بالخسارة الّتي ستتكبدها عندما ترى أنه لا بيت لديك تأوي إليه، ولا أحد يهتم بك، وغير ذلك من أمور الدنيا. إنه لشيء مريع ما رأيك بدينارين؟ سأنهيها ولن نتشاجر: دينارًا واحدًا - لقد كادت الساعة تنتهي - دينارًا واحدًا يكفي. أنا سوف -"

وبغتة تعالت قرعتان عاليتان على الباب الخارجي. قرعة مزدوجة في الحي الشرقي هي دائما لسكان الطوابق العليا.

فسأل بوب (فورد) واجفًا: "من ذلك؟"

فاندفع توماس سيمونز نحو الدرج وهو يجيب "سأرى من يكون".

سمعه بوب (فورد) وهو يفتح الباب الخارجي، تم تسلل نحو النافذة ورأى تمامًا تحته قمة قبعة نسائية تختفي، ثم تطرق إلى أذنيه من الداخل صوت نسائي لم يغب عن ذاكرته.

قال الصوت بحدة: "أين أنت ذاهب حاسر الرأس في هذه الساعة؟"

فأجاب سيمونز: "واللّه يا حنة -هناك- هناك شخص فوق يريد أن يراك." وعلى قدر ما استطاع بوب (فورد) أن يرى، رأى رجلًا يهرول راكضًا في الشارع في عتمة الغسق. يا للعجب! لقد كان توماس سيمونز!

وصل (فورد) إلى صحن الدرج في ثلاث خطوات واسعة. كانت زوجته ما تزال واقفة أمام الباب الخارجي تحملق في أثر سيمونز. فنكص إلى الغرفة الخلفية وفتح النافذة وتدلى من سقف بيت الغسيل إلى الفناء الخلفي وتسلق مستميتًا على السياج، واختفى في العتمة، ولم يره إنسان.

سر المعلم كورني

(فرانسيه ماماي) عازف مزمار عجوز، يقبل إليّ بين حين وآخر ليقضي السهرة عندي. وقد قص عليّ ذات مساء، حادثًا من أحداث القرى قد شهدته طاحونتي منذ نحو من عشرين سنة. ولقد أشجتني قصة هذا الرجل الطيب، وسأحاول أن أرويها لكم كما سمعتها.

تخيلوا لحظة، أيها القراء الأعزاء، أنكم جالسون، وأن المتحدث إليكم زمّار عجوز.

إن بلدنا، يا سيدي القاضي، لم يكن دائمًا كما هو اليوم بلدًا ميّتًا لا يرجح الألحان. لقد كان في الزمن الماضي سوقا رائجا للطحن، يحضّر إليه أهل العزب المترامية حولنا قمحَهم ليطحنوه... وكانت الطواحين الهوائية تكسو جميع هذه التلال المحيطة بالقرية، فإذا سرحت بصرك إلى يمين أو إلى يسار لم تكن ترى إلّا أجنحة دائرة مع ريح (المسترال) فوق أشجار الصنوبر، وأسرابًا من الحمير الصغيرة محملة بالأكياس تنساب في الطريق صاعدة هابطة، وكان يلذ لك أن تسمع طوال الأسبوع، فوق الربوة، فرقعة السياق وتمزيق الكتان وصياح أعوان الطحانين.. حتى إذا حل يوم الأحد، ذهبنا إلى الطواحين زرافات.

غير أنه خطر لبعض الفرنسيين من أهل (باريس) أن ينشئوا مطحنًا بخاريًا على طريق (تاراسكون). وكان مطحنًا جميلًا طريفًا. فأخذ الناس يرسلون إليه غلالهم، وتعطلت طواحين الهواء المسكينة. حاولت أن تجاهد بعض الوقت، ولكن البخار كان الأقوى، فاضطرت -واحسرتاه- إلى أن تقفل أبوابها واحدة بعد واحدة... إذ ذاك لم نعد نرى الحمير الصغيرة... وباعت الطحانات حليهنّ الذهبية... وراحت تهب ريح (المسترال)، ولكن أجنحة الطواحين ظلت ساكنة... ثم جاء يوم هدم فيه "المجلس المحلي"هذه الأطلال ودكها، وبذرت القرية مكانها كرمًا وزيتونًا.

إلا أن طاحونة ظلت قائمة في وسط هذا الانقلاب، وظلت تدور في استبسال فوق الأكمة، على الرقم من لحي أصحاب المطحن البخاري. كانت تلك طاحونة المعلم (كورني)، وهي هذه الّتي نحن آخذون الآن في قضاء سهرتنا بها.

كان المعلم (كورني) طحانًا عجوزًا، يعيش منذ ستين سنة في الدقيق متحمسًا لمهنته.

أجنه قيام طواحين البخار. فرأيناه أيامًا ثمانية يعدو خلال القرية، يجمع القوم من حوله، ويصيح فيهم بأعلى صوته أنهم يريدون أن يسموا (البروفانس) بدقيق مطحنهم البخاري. كان يقول:

لا تذهبوا هناك، فإن هؤلاء اللصوص، لصناعة الخبز، يستخدمون البخار، الّذي هو رجس من عمل الشيطان، بينما أنا أشتغل بالمسترال وريح الشمال، اللذين هما نسمة اللّه الكريم...

وكان يجد كثيرًا من هذا الكلام الجميل في مدح طواحين الهواء، ولكن أحدًا لم يستمع إليه.

هناك غضب الشيخ غضبة رجل، فحبس نفسه في طاحونته، وعاش وحيدًا كالوحش الضاري. لم يرض حتى بأن يبقى إلى جواره حفيدته (فيفت)، وتلك طفلة في الخامسة عشرة لم يكن لها منذ موت أبويها إلّا جدها هذا. فاضطرت المسكينة إلى أن تكسب عيشها أجيرة في العزب هنا وهناك، تعمل تارة في الحصاد، وتارة في تربية دودة القز، وتارة في عصر الزيتون. ومع ذلك فقط كان يبدو على جد هذه الصغيرة أنه يحبها حبًا جمًا. فكثيرًا ما كان يقطع المسافات الطوال، على قدميه تحت الشمس المحرقة، لكي يزورها في العزبة الّتي تشتغل فيها، حتى إذا صار إلى جنبها أنفق ساعات كاملة ينظر إليها ويبكي...

وظن أهل البلد أن الطحان الشيخ، حينما سرح (فيفت)، إنما فعل ذلك عن بخل؛ وما كان بالذي يشرفه أن تجوب حفيدته العزب، متعرضة لغلظة الخوليين، متعرضة لبؤس فتاة على مثل حالها. وكان أهل البلد يرون بعين السخط أيضًا أن يمضي رجل له صيت المعلم (كورني)، وعاش محترمًا نفسه إلى تلك السن، فيمشي الآن في الطرقات كأنه متشرد حقيقي، وحافي القدمين، مخرق القلنسوة، ممزق الثوب... والحق أننا كنا نخجل منه، نحن الشيوخ الآخرين إذا دخل الكنيسة يوم الأحد، وكان (كورني) يشعر بذلك فلم يجرؤ منذ أن بدأ مسلكه هذا الشائن على أن يتقدم إلى مقعدنا، وإنما كان لا يبرح آخر الكنيسة هناك عند جرن الماء المقدس، حيث يجلس مع المساكين.

لقد كان في حياة المعلم (كورني) شيء غامض... لم يكن أحد في القرية يحمل إليه

قمحًا منذ أمد بعيد، ومع ذلك فقط ظلت أجنحة طاحونته تدور بلا توقف كما كانت تدور من قبل.. وفي المساء كان القوم يلقون الطحان الشيخ في الطرقات سائقًا أمامه حماره المحمل بجوالق الدقيق الضخمة، فيهتف به الفلاحون:

ـ مساء الخير يا معلم (كورني)! أو يسير الطحن سيرًا حسنًا؟

فيجيبهم في جذل:

ـ دائما يا أولادي. الحمد لله، ليس العمل هو الّذي يعوزنا.

فإذا سألوه من أي فج عسى أن يأتيه كل هذا الشغل، وضع إصبعًا على شفتيه وأجاب في جد:

ـ لا تقولوا لأحد! إني أعمل للتصدير...

وما كان امرؤ يظفر منه بأكثر من ذلك.

وما كان ينبغي أن تحاول يومًا أن تزج بأنفك في طاحونته. فلم تكن لتدخلها حتى الصغيرة (فيفت)... .

وكنت إذا مررت بالطاحونة، رأيت الباب مغلقًا دائمًا، والأجنحة الغليظة دائرة والحمار العجوز يقضم عشب الفناء، وقطًّا مهزولًا يصطلي في الشمس على طرف النافذة وينظر إليك نظرة شر... وإنك لتحس في ذلك كله سرًّا من الأسرار.

و أطلق سر المعلم (كورني) ألسنة الناس بالكلام والحديث. فراح كل امرئ يفسره على طريقته، ولكن الّذي شاع بين أهل القرية هو أنه لم يزل في تلك الطاحونة من أكياس النقود ما يربو على أكياس الدقيق.

و على مر الأيام ظهر كل شيء؛ وإليك كيف كان ذلك:

ذهبت ذات مرة إلى الشيخ، ليوافق على تزويج ابني من "فيفت".

لم يتح لي الشيخ أن أتم كلامي، وإنما صاح بي في غير مراعاة للود أن أعود إلى مزماري، وأن أذهب إذا كنت عجلاً إلى تزويج ابني فابحث عن البنات في المطحن البخاري... انظر! لقد صعد بي دمي من سماع هذا الكلام الفارغ، غير أني كنت من

العقل بحين كظمت نفسي، فتركت هذا الشيخ المجنون لرحاه، ورجعت أعلن للأولاد عدم موافقتي... لم يستطع الحملان المسكينان أن يصدقا: واستعطفاني سائلين أن آذن لهما بأن يصعدا معا إلى الطاحونة ليكلما الجد... فإذا بي لا أقوى على أن أرفض سؤالهما، وهاهما حبيباي ذان قد انطلقا خفيفين!

وحينما بلغا الربوة كان المعلم كورني قد خرج منذ لحظة. وكان الباب مغلقا بدورتي المفتاح. غير أن الشيخ الطيب القلب كان قد نسي في ذهابه سلمه خارج الطاحونة، فسرعان ما خطر للولدين أن يدخلا من النافذة، ليستطلعا بعض الشيء ما كان في تلك الطاحونة العجيبة...

شيء غريب! كانت حجرة الرحى خاوية... ولا أثر لجولق ولا لحبة من القمح، ولا أدنى أثر للدقيق على الجدران أو على أنسجة العنكبوت... ولم تكن تبلغ شمَّكَ تلك الرائحة الطيبة الحارة، رائحة القمح المسحوق الّتي تتضوع في أرجاء الطواحين... وكان مجثم الطير يكسوه الغبار، والقط الأعجف راقدًا فوقه.

وكان على الغرفة السفلى نفس المظهر، مظهر الشيء البائس المهجور: سرير رديء، وبعض الخرق وقطعة من الخبز على إحدى درجات السلم، ثم في ركن من الأركان ثلاثة أو أربعة جوالق مشقوقة تنحدر منها قطع الجص وينساب منها تراب أبيض.

هنا كان سر المعلم (كورني)! فإنه هو هذا الجص الّذي كان يدور به في الطرقات عند المساء، لكي ينقذ شرف الطاحونة ويوحي إلى القوم بأنها ما زالت تصنع الدقيق... لك اللّه من طاحونة مسكينة! ولك اللّه يا (كورني) المسكين! فمنذ أمد بعيد قد انتزع أصحاب المطحن منها آخر عملائهما. ومضت الأجنحة تدور دائما، وأما الرحى فكانت تدور على الفارغ.

عاد الولدان دامعين يقصان عليَّ ما شهدا فتمزق قلبي وأنا أسمعهما... ومن غير أن أضيع دقيقة، هرعت إلى الجيران وأخبرتهم بالأمر في كلمتين، فاتفقنا على أنه ينبغي في الحال، أن نحمل إلى طاحونة (كورني) كل ما في البيوت من قمح... وما كان ينتهي كلامنا حتى أخذنا في تنفيذه، وها هي ذي القرية كلها تسير في الطريق، وها نحن نبلغ الربوة في موكب من الحمير المحملة بالقمح -قمح حقيقي في هذه المرة!

كانت الطاحونة مفتوحة على مصراعيها... وأمام الباب، كان المعلم(كورني)، قابعًا على كيس من أكياس الجص، يبكي، ورأسه في كفيه. فلقد لاحظ، حين عاد منذ قليل، أن امرأ نفذ إلى حرمه وهتك سره المحزن.

ـ يا لي من شقي! الآن لم يبق لي إلّا أن أموت.. لقد ثلب شرف الطاحونة.

وكان يشهق شهقات تمزق النفس، داعيًا طاحونته بشتى الأسماء، مناجيًا إياها كأنها شخص حقيقي.

وفي هذه اللحظة تبلغ الحمير الفناء، ونأخذ نحن في الصياح عاليًا كأننا في أيام عز الطحانين.

ـ هوي! طاحونة!... هوي! يا معلم (كورني)!

و ها هي الجوالق تتكدس أمام الباب، وهو هو ذات الحب الأصهب الجميل ينسكب على الأرض من كل جانب...

فتح المعلم (كورني) عينين واسعتين. وأخذ من القمح في راحة يده البالية، وجعل يقول وهو يضحك ويبكي معًا:

ـ إنه قمح!... يارب يا مولاي!... قمح حقيقي!... دعوني أنظر إليه.

ثم يلتفت إلينا قائلًا:

ـ آه! لقد كنت واثقًا من أنكم سوف ترجعون إليَّ... فإن أصحاب المطحن البخاري كلهم لصوص.

و أردنا أن نحمله في مظاهرة إلى القرية:

ـ لا لا يا أولادي؛ ينبغي قبل كل شيء أن أعطي طاحونتي لتأكل... أما ترون! إنها لم تضع شيئا بين أسنانها منذ أمد بعيد!

و استدر الدمع في أعيننا جميعًا مشهد هذا الشيخ، يضطرب إلى اليمين وإلى اليسار، فيبقر الأكياس ويراقب الرحى، بينما ينسحق الحب ويتطاير قتام القمح الدقيق إلى السقف.

ومن الإنصاف لنا أن نعلم أننا منذ ذلك اليوم، لم ندع الطحان الشيخ ساعة بلا عمل.

ثـم ذات صبـاح، مـات المعلـم (كورنـي)، فتوقفـت عـن الـدوران آخـر طاحونـة لنـا، وتوقفـت هـذه المـرة إلـى الأبـد... لأنـه مـات (كورنـي)، لـم يخلفـه أحـد. مـاذا تريـد يـا سـيدي!... فـإن لـكل شـيء نهايـة فـي هـذه الدنيـا، وينبغـي أن نؤمـن بـأن عصـر طواحيـن الهـواء قـد انقضـى، كمـا انقضى عصر مراكـب المـاء على نهـر (الـرون)، وعصـر (البرلمانـات)، والسـتر ذوات (الأزهـار) العريضـة.

عنزة السيد (سيجان)

إلى الأستاذ (بيير جرنجوار)، الشاعر الغنائي بـ(باريس).

ستظل دائمًا كما أنت يا صديقي البائس.

عجبًا! أتعرض عليك وظيفة مخبر لإحدى صحف (باريس) السيارة وتأنف من أن تقبلها؟ انظر إذن إلى نفسك أيها الولد الشقي! انظر إلى هذا الرداء المخرّق، وهذين النعلين الباليين، وهذا الوجه المهزول الّذي يشكو الطوى. فإن ذلك هو المصير الّذي قادك إليه كَلَفُك بالقوافي الحسان! وإن ذلك ما أجدته عليك عشر سنين من الولاء والخدمة الصادقة في صفحات السيد أبولو... أو ما تخجل في آخر الأمر.

اجعل من نفسك مخبرًا! اجعل من نفسك مخبرًا! فستكسب نقودًا جميلة، وتتناول طعامك على مائدة "بربيان"وتستطيع أن تظهر في المناسبات وفي قبعتك ريشة قشيبة...

كلا؟ لا تريد؟ أتصر على أن تبقى حرًّا كما تشاء إلى النهاية؟ أعر بعض سمعك إذن لقصة "عنزة السيد (سيجان)" لترى ماذا يجنيه المرء من الرغبة في حياة الحرية.

لم يكن للسيد (سيجان) في حياته حظ مع معيزه.

كان يفقدهن دائمًا بالطريقة نفسها، ذات صباح عتيد، تقطع العنزة الجبل، وتنطلق إلى الجبل، وهناك يأكلها الذئب. فلا رقة السيد، ولا هول الذئب، ولا شيء مطلقا أفلح في الإبقاء عليهن. لقد كن كما يبدو، معيزات مستقلات، راغبات بأي ثمن في الهواء الطلق والحرية.

وارتاع السيد سيجان الطيب القلب، الّذي لم يكن يفهم شيئا من خلق عجماواته. فكان يقول:

ـ لقد قضي الأمر، إن المعيز ضيقة بعشرتي؛ ولن أستطيع اقتناء ولا واحدة.

ولكنه لم يستيئس، وبعد أن فقد ست عنزات بالأسلوب نفسه، اشترى عنزة سابعة؛ غير أنه حرص في هذه المرة على اصطفائها حديثة السن لكي تحسن الإقامة لديه ولكي

يربطها بـه ألفـة أوثـق.

آه! (جرنجـوار)، مـا كان أجملهـا عنـزة السـيد (سـيجان) الصغيـرة! مـا كان أجملهـا بعينيهـا الحلوتيـن ولحيتهـا القصيـرة، وحوافرهـا السـود البراقـة، وقرنيهـا الملفوفيـن، وشـعرها الأبيـض الطويـل الّذي كان يتهـدل على جسـمها! لقد كادت تصيح في روقة جـدي (أزميرالـدا)، أتذكـره يـا (جرنجـوار)؟ ثـم كانـت وديعـة، ملقـة، تـدع للحالبيـن أن يحلبوهـا مـن غيـر أن تتحـرك ومـن غيـر أن تضـع قدمهـا فـي الطَّسْـتِ. فمـا كان أحبهـا إلـى النفـس...

وكان للسـيد (سـيجان) فـي ظاهـر داره حظيـرة يحوطهـا الشـجر. هنـاك وضـع النازلـة الجديـدة، وربطهـا إلـى وتـد فـي أجمـل بقعـة مـن المـرج مسـتوصيا بـأن يمـد لهـا الحبـل طويـلا. وراح يتفقدهـا بيـن حيـن وآخـر ليـرى إن كانـت حالهـا علـى مـا يـرام. ولقـد وجـدت العنـزة نفسـها سـعيدة راضيـة، ومضـت تقضـم العشـب فرحـة مغتبطـة حتـى خلـب ذلـك السـيد (سـيجان)، فقـال فـي نفسـه:

ـ أخيرًا ها هي ذي عنزة لن تسأم العيش عندي!

أخطأ (مسيو سيجان)، فقد سئمت العنزة.

ذات يوم حدثت نفسها، وهي تنظر إلى الجبل هذا الحديث:

لا بـد أن يكـون المقـام هنيئـا هنـاك فـي عـل! مـا أجملهـا مـن حيـاة! مـا ألـذ الوثـوب فـي الجحيـم مـن غيـر هـذا الرسـن البغيـض الّذي يسـلخ الرقبـة!... إنـه لخليـق بالحمـار والعجـل أن يسـوما فـي حظيـرة!... أمـا الأعنـز فينبغـي لهـن المرعـى العريـض.

ومنـذ هـذه اللحظـة بـدا لهـا عشـب الحظيـرة عديـم المـذاق. واسـتولى عليهـا السـأم فأنضاهـا، وكاد يغيـض لبنهـا. ولـو قـد رأيتهـا هـي تجـذب طيلـة اليـوم رسـنها، ورأسـها ميمـم صـوب الجبـل، ومنخارهـا مفتـوح قائلـة "مـي..." فـي حـزن لرثيـت لهـا، وأشـفقت عليهـا.

ولاحـظ السـيد (سـيجان) أن شـيئا قـد أصـاب عنزتـه، ولكنـه لـم يكـن يعرف مـا هذا الشـيء... حتـى إذا انتهـى مـن حلبهـا ذات صبـاح، التفتـت العنـزة وقالـت له فـي لهجتهـا العامية:

ـ اسمع يا (مسيو سيجان)، إن السأم ينضيني لديك، دعني أذهب إلى الجبل.

ـ آه ياربي!... وهي أيضا؟

كذلك صاح السيد (سيجان) مشدوها، ومن هول الصدمة سقط الإناء من بين يديه، ثم جلس الرجل في العشب إلى جانب عنزته يقول لها:

ـ كيف يا (بلانكيت)؟ أتريدين أن تهجريني؟

فأجابت (بلانكيت):

ـ نعم يا (مسيو سيجان)!

ـ أو ينقصك العشب هنا؟

ـ أوه كلا يا (مسيو سيجان).

ـ لعلك مشدودة إلى حبل قصير، أتريدين أن أمد لك الحبل؟

ـ وفر على نفسك هذا العناء يا (مسيو سيجان).

ـ إذن فما الّذي يلزمك؟ ماذا تريدين؟

ـ أريد أن أذهب إلى الجبل يا (مسيو سيجان).

ـ أفلا تعلمين أيتها الشقية أن الذئب هناك؟ فماذا أنت فاعلة إذا أتى.

ـ أقرعه بقرني يا (مسيو سيجان).

إن الذئب ليسخر من قرنيك. لقد نهش من معزي ذوات قرون لا يدانيها قرناك. أتعرفين المسكينة (رينود) الّتي كانت هناك السنة الماضية؟ عنزة رائعة من سيدات الماعز، قوية الشكيمة، شريرة كالتيس. لقد باتت تقارع الذئب الليل كله، وفي الصباح أكلها الذئب.

واأسفاه على (رينود) المسكينة! اللّه يرحمها! غير أنه لا بأس عليّ يا (مسيو سيجان)، دعني أذهب إلى الجبل.

قال السيد (سيجان): "يا رحمة اللّه!.. فما هذا الّذي كتبه القدر على أعنزي؟ هي ذي عنز أخرى سيأكلها الذئب مني. لا.. لا.. لأنقذنك على الرغم منك أيتها المتمردة! وخشية أن تقطعي رسنك سأحبسك في مربط الماشية، ولسوف تقيمين فيه أبدًا".

وهنا زج السيد (سيجان) بالعنزة في مربط حالك الظلمة؛ أغلق عليها بابه بدورتي المفتاح. بيد أنه من نكد الحظ نسي النافذة، فما كاد يدير ظهره حتى أفلتت العنزة.

أتضحك يا (جرنجوار)؟ أضحك! فإني موقن أنك من حزب المعيز ومن خصوم السيد (سيجان) الطيب. ولكنا سنرى إن كنت ستواصل الضحك عما قليل.

حينما بلغت العنزة البيضاء الجبل، طرب الجبل عن بكرة أبيه وانتشى. ما رأت شجرات الصنوبر العتيقة في حياتها شيئا أرق من ذلك فاستقبلتها هناك استقبال ملكة صغيرة. وانحنت أشجار الكستناء حتى أديم الأرض لكي تربت عليها بذوائب أغصانها. وتفتحت أزهار الرتم في طريقها، وفاحت بالأريج جهدها؛ لقد احتفى بها الجبل كله.

وإنك لتقدر يا (جرنجوار) كم أضحت عنزتنا سعيدة! لا رسن، ولا وتد، ولا شيء يعوقها عن الوثب كما تهوى أو عن السوم كما تشاء... فهناك كان الكلأ حقا! كلأ يغطي القرنين يا عزيزي!... ويا له من كلأ لذيذ، مهفهف، شتيت الألوان.. فما أبعد ما كان الفرق بينه وبين عشب الحظيرة! وناهيك بالأزهار!... زرقاء عريضة، وحمراء قانية طويلة الكؤوس، بل قل غابة بأكملها من الزهر الطافح بأصناف الرحيق العاتية!...

ومضت العنزة البيضاء نصف سكرى تتمرغ في ذلك النبت، سيقانها في الهواء، محاذية تلك المنحدرات، مختلطة بالأوراق الساقطة والكستناء. ثم تنهض فجأة في قفزة واحدة فتقوم على أربع. انظر، ها هي ذي قد انطلقت ورأسها ممدود إلى الأمام خلال الأحراش والأدغال، تارة تتسنم ذروة، وتارة تهبط إلى قاع، فكنت تراها في عل وفي أسفل وفي كل مكان حتى ليخيل إليك أن في الجبل عشرات عنزات للسيد (سيجان).

ذلك أنها لم تكن خائفة من شيء، تلك (البلانكيت).

و جعلت تقفز سيولًا كانت تلطخها وهي تعبرها بالغبار البليل والزبد، ثم تروح تتمطط والماء يقطر منها على صخرة ملساء تجفف فوقها جسمها في الشمس... وبينما هي تتقدم على شفا نجد وبين أسنانها زهرة من أزهار القصاص، أبصرت تحتها في حضيض السهل بين السيد (سيجان) ومن خلفه الحظيرة فأضحكها ذلك حتى استدر الضحك من عينيها الدموع. قالت:

ـ ما أصغر هذا! كيف صبرت على المكث فيه؟

يا للصغيرة المسكينة! لقد ظنت وهي واقفة تشرف على الدنيا من حالق أنها كبيرة حجم الدنيا على الأقل...

جملة القول، لقد طاب يوم عنزة السيد (سيجان). ونحو منتصف النهار، إذ كانت تعدو ذات اليمين وذات اليسار، التقت بقطيع من الوعل كان يقضم كرمًا بريًّا ملء أسنانه. فأثارت عداءاتنا الصغيرة ذات الثوب الأبيض مشاعر القوم. ولقد أفسح لها الجميع أجمل مكان من الكرم، وأظهر أولئك السادة أدبًا جمًّا... بل ويبدو -وهذا ينبغي أن يظلّ سرًّا بيننا يا (جرنجوار)- أن وعلاً شابًّا أسود الجلد أسعده الحظ بأن يقع من قلب (بلانكيت) موقعًا حسنًا، فهاما بين الغابة ساعة أو ساعتين، وإن أردت أن تعرف ماذا قال كل لصاحبه فاذهب وسل الينابيع اللاغية الّتي تنساب تحت الخضرة لا يلمحها أحد.

وفجأة برد الهواء، واكتسى الجبل لونًا بنفسجيًّا: لقد كان المساء... قالت العنزة الصغيرة:

ـ منذ الآن!

ووقفت مشدوهة.

وفي أسفل الجبل، أمست الحقول يغمرها الضباب. وتوارت حظيرة السيد (سيجان) في هذا الضباب ولم يعد يرى الناظر من الدار إلّا سقفها ينبعث منه شيء من الدخان. وأصاخت إلى أجراس قطيع كان الرعاة عائدين به، فاستولى الحزن على نفسها... ومسها بجناحيه طائر هابط إلى وكره فارتعشت... ثم انطلق عواء في الجبل:

ـ هووو!هووو!

فتذكرت الذئب ولم تكن الطائشة قد فكرت فيه من يومها كله... وفي تلك اللحظة هتف بوق هناك في الوادي بعيدًا. أنه (المسيو سيجان) لقد كان هذا الرجل الطيب يحاول محاولة أخيرة.

وعوى الذئب: هووو! هووو!

وصاح البوق: ارجعي! ارجعي! وودت (بلانكيت) أن ترجع، لكنها إذ تذكرت الوتد والرسن وسياج الحظيرة، رأت أنها الآن لن تستطيع أن تعيش ذلك العيش، وأن من الأفضل لها أن تمكث حيث هي.

وانقطع صوت البوق.

وسمعت العنزة وراءها حفيفًا من الأوراق، فالتفتت، وإذا هي ترى في الظلام أذنين

قصيرتيـن، مسـتقيمتين منتصبتيـن، ومقلتيـن براقتيـن... لقـد كان الذئـب.

جسيمًا، ضخمًا، ساكنًا، كان مقيمًا هنـاك ينظـر إلى العنـزة الصغيـرة البيضـاء ويتذوقها في شـهية قبـل أن يفترسـها. لـم يتعجـل الذئـب، لأنـه كان واثقًا مـن أنـه لابـد آكلها، وإنمـا -حيـن التفتـت- أخـذ يضحـك في شـر:

ـ ها..ها! يا عنزة السيد (سيجان) الصغيرة.

ومر بلسانه الأحمر الغليظ على شفتيها اللمياوين.

أحسـت (بلانكيـت) أنهـا هالكـة... وتذكـرت في لحظـة قصـة المرحومـة (رينـود) الّتي قارعـت الذئـب طيلـة الليـل لكـي يلتهمهـا الذئـب فـي الصبـاح، ففضلـت الاستسـلام فـي الحـال، ثـم عدلـت عـن رأيهـا، ووقفـت موقـف الدفـاع، حانيـة رأسـها، شـاهرة قرنيهـا، كمـا يجـدر بعنـزة السـيد (سيجان) أن تفعـل. لا ترجـو مـن ذلـك أن تقتـل الذئـب -فـإن المعـزة لا تقتـل الذئـب- بـل لكـي تـرى هـل تسـتطيع أن تصمـد صمـود (رينـود)؟

إذ ذاك تقدم الوحش، وبدأ القرنان الصغيران يرقصان.

آه! يـا للعنيـزة الباسـلة، مـا كان أروع إقدامهـا علـى القتـال! لقـد اضطـرت الذئـب أكثـر مـن عشـر مـرات، ولا أكذبـك يـا (جرنجـوار)، إلـى التقهقـر حتـى يسـتعيد أنفاسـه. وفـي كل هدنـة كانـت الشـرهة تقتطـف فـي عجلـة عـودًا مـن عشـبها الحبيـب. ثـم تعـود إلـى القتـال مملـوءة الفـم... واتصـل ذلـك سـواد الليـل. وبيـن حيـن وآخـر كانـت عنـزة السـيد (سيجان) تنظـر إلـى النجـوم ترقـص فـي السـماء الصافيـة فتقـول فـي نفسـها:

ـ أوه! لا بد أن أصمد حتى الفجر...

وراحـت تنطفـئ النجـوم... نجمـا بعـد نجـم. فضاعفـت (بلانكيـت) مـن ضربـات قرنيهـا، وضاعـف الذئـب مـن ضربـات أسـنانه... وبـدا فـي الأفـق ضـوء شـاحب... وارتفـع مـن أحـد المـزارع صيـاح ديـك أبـح.

ـ أخيرا!

قالتهـا العنـزة المسـكينة الّتي لـم تكـن تنتظـر إلّا الفجـر لكـي تمـوت، وتمـددت علـى الأرض فـي فرائهـا الأبيـض الّـذي تلطـخ كلـه بالـدم.

هناك انقض الذئب على العنزة الصغيرة والتهمها.

ـ وداعًا يا (جرنجوار)!

ليست القصة الّتي سمعتها حكاية من إنشائي. فلو قد جئت يوما إلى (البروفانس) لحدثك فلاحونا، أحيانًا كثيرة، في لغتهم الدارجة الجميلة، حديث عنزة السيد (سيجان) "التي قضت الليل كله تقرع الذئب ثم أكلها الذئب في الصباح".

أفاهم أنت عني يا (جرنجوار): "ثم أكلها الذئب في الصباح".

أسطورة الرجل ذي المخ الذهبي

ألفونسو دوديه *

إلى السيدة الّتي تطلب قصصًا مرحة.

كأنـي بضميـري قـد أنبنـي وأنـا أقـرأ رسـالتك يـا سـيدتي، لقـد لَحَيْـتُ نفسـي علـى لـون أقاصيصي هـذا الضـارب إلـى السـواد أكثـر ممـا ينبغـي، وقطعـت علـى نفسـي عهـدًا أن أقـدم لـك اليـوم شـيئًا بهيجًـا بجنـون.

و لمـاذا ينبغـي أن أحـزن بعـد هـذا كلـه؟ إنـي أقيـم بعيـدًا جـدًّا مـن ضبـاب (باريـس) وقتامتهـا، فـوق تلـة مشـرقة بالنـور.

و ليـس حـول بيتـي إلّا الشـمس والموسـيقا؛ فـإن عنـدي جوقـات مـن شـتى أنـواع الطيـر؛ عنـدي فـي الصبـح عصافيـر؛ وفـي الظهـر جنـادب؛ وبعـد ذلـك الرعـاة الذيـن يعزفـون علـى المزمـار، الحـق أن هـذا الربـع لا يلائـم الأفـكار السـوداء؛ والأحـرى بـي أن أبعـث للسـيدات بقصائـد ورديـة اللـون وسـلال مـلأى بالقصـص الأنيقـة.

بـل كلا! فمـا زلـت شـديد القـرب مـن (باريـس). وإنهـا لترسـل إلـي كل يـوم، حتـى وأنـا بيـن شـجرات صنوبـري، رشاشًـا مـن حمـأة أحزانهـا، وهأنـذا وأنـا أكتـب الآن هـذه السـطور أقـف علـى الميتـة اليابسـة الّتـي ماتهـا (شـارل بابـارا) المسـكين؛ وإن طاحونتـي مـن هـذا النبـأ لفـي حـزن وحـداد، وداعًـا أيّتهـا العصافيـر والجنـادب! لـن يميـل قلبـي إلـى شـيء مـرح... ولذلـك يـا سـيدتي بـدلا مـن القصـة الجميلـة العابثـة الّتـي عاهـدت نفسـي علـى أن أكتبهـا لـك، لـن تصيبـي اليـوم أيضًـا إلّا أسـطورة حزينـة.

كان فـي قديـم الزمـان رجـل لـه مـخ مـن الذهـب، نعـم يـا سـيدتي! مـخ كامـل مـن الذهـب! وحينمـا جـاء إلـى الدنيـا ظـن الأطبـاء أن هـذا الطفـل لـن يعيـش، لأنـه كان ثقيـل الـرأس ضخـم الجمجمـة. ولكنـه عـاش ونمـا فـي الشـمس، كمـا تترعـرع تحـت شـجرة جميلة مـن شـجر الزيتون، إلّا أن رأسـه الغليـظ كان يجـرره دائمًـا، فـكان يثيـر إشـفاق الناظـر إليـه أن يـراه يصطـدم وهـو يمشـي بجميـع قطـع الأثـاث... وكثيـرًا مـا كان يسـقط علـى الأرض. وذات يـوم تدحـرج مـن أعلـى

* كاتب فرنسي (1840-1897).

درج، ونطح بجبهته إحدى درجات السلم المرمرية حيث رنت جمجمته كأنها سبيكة، وظن القوم أنه مات؛ ولكنهم إذ أنهضوه لم يجدوا سوى جرح خفيف، تصحبه قطرتان أو ثلاث قطرات صغيرة من الذهب خاثرة في شعره الأشقر، وهكذا عرف الوالدان أن للغلام مخًّا من الذهب.

وظل الخبر طي الكتمان؛ ولم يدر الصغير المسكين نفسه من الأمر شيئًا كان يسأل من حين إلى حين: لماذا لا يدعونه يجري أمام الباب مع غلمان الشارع كما كان يفعل من قبل، فكانت تجيبه أمه:

ـ لئلا يسرقوك، يا كنزي الجميل!

وهنا كان الطفل يخشى أن يختطفه أحد؛ وكان يعود فيستأنف اللعب وحده، دون أن يقول شيئًا، ويجرر نفسه في ثقل من غرفة إلى أخرى...

وعندما بلغ الثامنة عشرة، كشف له والداه -إذ ذاك فقط- سرَّ الهبة الجبارة الّتي خصه بها القدر، ولما كان قد ربياه وكفلاه حتى ذلك الوقت، فقد طالباه بشيء من ذهبه مقابل هذا. ولم يتردد الولد، بل انتزع في الحال من جمجمته -كيف..؟ بأي الوسائل..؟ لم تقل الأسطورة- كتلة من الذهب، قطعة غليظة في حجم الجوزة، ألقاها بفخر على ركبتي أمه... ثم وقد بهرته موارد الثراء الّتي كان يحملها في رأسه، هجر بيت أبيه ومضى يجوب الدنيا مبذرًا كنزه.

ومن أسلوبه المترف في الحياة، وإغراقه في بذخ الملوك، ونثره الذهب بلا حساب، كان يخيل للجميع أن مخّه زخر لا ينضب... ولكنه نضب مع ذلك، وكان الناظر إليه يومًا بعد يوم يستطيع أن يرى عينيه تنطفئان ووجنيته تغوران. وأخيرًا، غداةَ مجونٍ مجنونٍ، جلس الفتى البائس وحده بين فضلات الوليمة والثريات الّتي أخذ نورها يشحب، فأفزعه النقب الهائل الّذي قد أحدثه في سبيكته، يجب إذن أن يتوقف في الحال.

ومنذ ذلك الوقت بدأ حياة جديدة. راح ذو المخ الذهبي يعيش في عزلة، من عمل يديه، مرتابًا هيابًا كرجل بخيل، هاربًا من كل إغراء، محاولًا أن ينسى هو هذا الثراء الّذي لم يعد بعد ذلك أن يمسه.... ولكن من نكد الحظ كان صديق له قد تبعه إلى معتزله، وكان هذا الصديق يعرف سره.

وذات ليلة، هبّ الرجل المسكين فزعًا وقد أيقظه ألم في رأسه، ألم هائل؛ فنهض موزع النفس، ورأى -في شعاعة من شعاع القمر- ذلك الصديق وقد لاذ بالفرار وهو يخفي شيئًا تحت منعطفه....

هو ذا جزء آخر من مخّه ينتزعونه منه!

و بعد أن نجا من هذا الحادث، أصبح الرجل ذو المخ الذهبي عاشقًا، وفي هذه المرة انتهى كل شيء... أحبّ من أعماق نفسه امرأة صغيرة، شقراء، أحبّته هي أيضًا، ولكنها كانت تؤثر القبعات المزينة، والريش الأبيض، والأهداب البنية القانية الرشيقة تهتز، فتضرب جنب حذاء رقيق.

وبين يدي هذه المخلوقة اللطيفة -الّتي كان نصفها طائرًا، ونصفها دمية- انهالت قطع الذهب الصغيرة، ويا لها من لذة! كانت في تلك الغادة جميع ألوان النزق، وكان هو لا يعرف مرة أن يقول لا، بل لقد كتم عنها حتى آخر الأمر -خشية أن يؤلمها- سر ثروته المحزن.

كانت تقول له: إننا إذن لغنيان؟

فكان الرجل المسكين يجيب: أوه! أجل... غنيان جدًا!

وكان يبتسم في ثقة للطائر الأزرق الّذي أضحى يأكل.. يأكل منه الجمجمة في براءة. على أن الخوف كان يأخذه أحيانًا فيهيج به أن يبخل ويقتر؛ إلّا أن المرأة الصغيرة إذ ذاك كانت تقبل عليه قائلة:

- زوجي الّذي أنت غني كل هذا الغنى! اشتر لي شيئًا ثمينًا غاليًا...

فكان يشتري شيئًا ثمينًا غاليًا.

واتصل ذلك مدى سنتين؛ ثم ذات صباح، ماتت المرأة الصغيرة، دون أن يدري أحد لماذا، كما يموت الطائر... وأوشك الكنز أن ينضب؛ وبالذي بقي له منه، شيع الأرمل عزيزته الراحلة أحسن تشييع. أجراس مع هبيب الريح، ومركبات ثقال مجللة بالسواد، وجياد مزدانة بالريش، ودموع من الفضة في المخمل... لم يبد له شيء من ذلك ممتازًا. وماذا يجديه ذهبه الآن؟ لقد أغدق منه على الجميع، دون مساومة... ولذا حين خرج من

المدافن، لم يكد يبقى له شيء من ذلك المخ العجيب، اللّهم إلّا جزئيات عالقة بعظام الجمجمة.

هناك رآه الناس يهيم في الشوارع شارد النفس، مادًّا يديه، مترنحًا، وفي المساء، حين تألقت الأسواق، وقف أمام واجهة متجر عريضة حافلة بخليط من الأقمشة والحلي يتلألأ بين الأنوار الموقدة، وظل هناك طويلًا يرنو إلى حذاء رقيق من الديباج الأزرق يعلو حافته إطار من زغب البجعة. لقد كان يقول لنفسه وهو يبتسم: إني أعرف امرأً يُدخل السرور عليه هذا الحذاء، وقد أمسى لا يذكر أن زوجته الصغيرة قد ماتت، دخل ليشتري الحذاء.

وداعا يا كورديرا

ليوبولدو آلاس *

كانوا ثلاثة - دائمًا نفس الثلاثة: (روزا) و(بنيين) و(كورديرا).

كان مرج (سومونتي) رقعة مثلثة من الخضرة المخملية انتشرت كسجادة عند سفح التلة، امتد ضلعها السفلي بعيدًا حتى التقى بخط السكة الحديدية الآتي من أفيرو إلى جيجون، ووقف عامود التلغراف كسارية العلم في زاوية الحقل، يمثل بمنظره لـ(روزا) و(بنيين) العالم البعيد: عالم مجهول غامض يجب أن يبقى مرهوبًا ومنسيًّا أبدًا.

فبعد أن قلب (بنيين) الأمر جديًا، وهو يرقب العامود الهادئ المسالم يومًا بعد يوم، توصل نهائيا إلى الاعتقاد بأنه ليس إلّا شجرة جافة، وإن الكؤوس الزجاجية المعلقة في أعلاه ما هي إلّا نوع من الفاكهة الغريبة. وبهذا اكتسب من الثقة ما يكفيه لكي يتسلق عليه حتى كاد يمس الأسلاك. إلّا أنه في تسلقه لم تدرك يده الكؤوس مطلقًا، لأنها ذكرته بشكلها ببعض الأواني، ولم يستطع أن ينفض عنه شعور الرهبة إلّا بعد أن كان ينزلق ويثبت رجليه ثانية على الأرض الخضراء بأمان.

غير أن (روزا)، وهي الأقل جرأة ولكنها أكثر عشقًا للمجهول، كانت تقنع بالجلوس تحت عمود التغلراف لساعات طويلة، تصغي إلى الريح وهي تجتذب من الأسلاك أغنية صافية ساحرة وتمزجها بتنهدات صادرة من قلب أشجار الصنوبر.

ففي بعض الأحيان كانت هذه الاهتزازات تسمع وكأنها موسيقا، وكانت لـ(روزا) أشبه بهمسات ترحل عبر الأسلاك من مجهول إلى مجهول، لم يكن لديها شيء من حب الاستطلاع لتعرف ماذا يقول الناس من طرفي الدنيا المتقابلين، الواحد منهم للآخر، لم يهمها ذلك بكثير أو قليل. إنما هي تصغي إلى الصوت لنغمته الجميلة وغموضه الغريب.

ولكن (كورديرا) وقد بلغت من العمر أنضجه، كانت واقعية أكثر من رفيقها. لقد انزوت عن العالم، وجعلت تتأمل عمود التلغراف من بعيد، وتفكر بأنه شيء عديم الحياة لا يصلح لشيء إلّا أن تحك نفسها به.

كانت (كورديرا) بقرة رأت من الدنيا كثيرًا، كانت تجثم في الحقل ساعات طويلة تقتل

وقتها بالتأمل، عوضًا من أن تقيت نفسها، وتتمتع بهدوء الحياة وزرقة السماء محاولة طيلة الوقت أن تحسن عقلها.

كانت دائمًا تشارك الوالدين اللذين عهد إليهما بحراستهما في أثناء ألعابهما، ولو استطاعت لضحكت لتلك الفكرة! (روزا) و(بنيين) مكلفان بالاعتناء بها -هي (كورديرا)! لحفظها داخل المرعى ومنعها من القفز فوق السياج والشرود بمحاذاة الخط الحديدي كأنها جد ميالة للقفز والشرود، وما الّذي يحذو بها إلى التدخل بشؤون الخط الحديدي؟

لقد كان من دواعي غبطتها أن ترعى بهدوء وتنتقي بعناية أشهى القضمات دون أن ترفع رأسها لتنظر حولها باستطلاع عديم الفائدة، وبعد ذلك تضطجع إما للتأمل أو لتتذوق نعمة عدم المشقة. غير أن راحتها الفكرية تنغصت كثيرًا عندما دشن الخط الحديدي وكاد يصيبها بالجنون من الهلع عندما رأت القطار وهو يجتاز مجعجعًا لأول مرة؛ قفزت فوق الحائط الحجري إلى الحقل المجاور، واشتركت مع بقية الماشية بحركاتها الجنونية... ودام فزعها لعدة أيام متتالية، يتضاءل قليلًا ثم يعود عليها بشدة كلما خرجت الآلة المتحركة من فم النفق.

رويدًا رويدًا أخذت تتحقق أن القطار عديم الأذى: خطر يمر دائمًا بسلام، مصيبة تتوعد ولكنها لا تنزل، وبذلك أخذت تقلل من حيطتها، وما عادت تدفع برأسها إلى الأسفل في موقف الدفاع عن نفسها. ثم أخذت تنظر إلى القطار من دون أن تجشم نفسها حتى مشقة النهوض، وفي النهاية فقدت نفورها منه بالمرة ولم تعد تنظر إليه إطلاقًا.

ولكن جدة القطار أحدثت في نفسي (روزا) و(بنيين) تأثيرات أشد وأعمق. فقد أخذا في البدء ينفعلان بفرح ممزوج برهبة غريبة جعلتهما يرقصان بوحشية ويطلقان صرخات عالية. ثم تحول هذا الشيء إلى أشبه بملهاة هادئة تتكرر عدة مرات في اليوم كلما راقبوا الحية الحديدية الهائلة وهي تنساب بسرعة بحملها من الناس الغرباء.

ولكن عمود التلغراف والسكة الحديدية وما كان ينجم عنهما من أحداث إنما كانت قصيرة الأمد سرعان ما تتلاشى في بحر تلك الوحدة الّتي تحيط بمرج (سومونتي) فلا يرى أحد من الأحياء ولا يسمع صوت من العالم الخارجي.

وفي الصباح تلو الصباح كان الطفلان والبقرة يترقبون مجيء الظهيرة، تحت أشعة

الشمس المحرقة وبين طنين الحشرات المتقاطرة، يرجعون إلى البيت. وفي الأمساء الطويلة الكئيبة ينظرون مجيء الليل مرة أخرى.

طالت الظلال وهدأت العصافير وبزغ نجم هناك في القسم المعتم من السماء، وانعكست في روحي الطفلين وداعة الطبيعة المستكينة، وفي أثناء جلوسهما قرب (كورديرا) كانا يلوذان بأذيال صمت حالم، لا يشوبه إلّا رنين ناعم من جرس البقرة بين الحين والحين. كشقي ثمرة خضراء، هكذا كان الطفلان يلازم كلاهما الآخر ولا يفارقه. كانا متحدين بحنان قائم على معرفتهما الضئيلة عما كانا غريزيا فيهما وعما جعلهما شخصين اثنين وامتد هذا الحنان إلى (كورديرا) البقرة الأم، وهي بدورها قابلت على قدر طاقتها حب الولدين اللذين كانا مكلفين بحراستها بحب مماثل على طريقتها التلقائية.

وكثيرًا ما كانت تعامل بخشونة كلما اشتركت معهما في ألعابهما الصبيانية، ولكنها في كل مرة تظهر صبرًا وتسامحًا عجيبين وعطفًا تبديه بكثير من التفكير والهدوء.

غير أن (أنطوان دي شينتا)، والد الطفلين لم يكن قد امتلك (سومونتي) إلّا منذ أمد قريب، فتمتعت (كورديرا) بامتياز هذا المرعى الخصيب بعد أن كانت تضطر إلى التجوال في الطرقات العامة للحصول على طعامها من الأعشاب الزهيدة الّتي تنبت على حواشيها.

ففي تلك الأيام العصيبة من الفقر والحرمان كانا (بنيين) و(روزا) يبحثان لها عن أحسن البقع الملائمة ويحميانها بوسائل شتى من سوء المعاملة الّتي تتعرض لها الحيوانات المضطرة إلى البحث عن قوتها في الأراضي العامة.

و في أيام الزريبة الهزيلة عندما كان العلف نادرًا واللفت مفقودًا، كانت البقرة مدينة للطفلين عن ألف لفتة صغيرة سهلت عليها الحياة وجعلتها أمرًا يطاق.

وفي تلك الفترة المليئة بالبطولة الواقعة بين بطولة عجولها وبين فطامها، عندما كان ينبعث ذلك السؤال الّذي لا مفر منه عن كمية الحليب الّذي يجب أن تحصل عليها عائلة ديشنيتا، ومدى ضرورته بصغارها كنت تجد (بنيين) و(روزا) يقفان بجانب (كورديرا). كثيرًا ما كانا يطلقان سراح العجل الصغير لينطلق بفرح جنوني متعثرًا بكل ما يصادفه في طريقه، بحثًا عن الطعام والحماية تحت جسم والداته الرحب، بينما كانت هذه تلتفت برأسها نحو الطفلين بنظرة ملؤها حنان وامتنان.

إن روابط كهذه لا يمكن أن تفصم وذكريات كهذه لا يمكن أن تمحى ولكن (أنطون دي شينتا) توصل إلى أنّ أحلامه الذهبية بتوسيع زريبته تدريجيا لن تتحقق. إنه باقتنائه تلك البقرة الوحيدة بألف اقتصاد وحرمان، لم يجد نفسه عاجزًا عن اقتناء بقرة أخرى فحسب، بل وجد نفسه في النهاية عاجزًا عن دفع الإيجار، لقد رأي في (كورديرا) ملكه الوحيد يعتمد عليه، ولكنه تحقق من أنها يجب أن تباع رغم اعتبارها إحدى أفراد العائلة، ورغم وصية زوجته وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة بأن (تلك البقرة عماد حياتهم في المستقبل)، فبينما كانت الأم مضطجعة على فراش الموت في غرفة فصلت عن الزريبة بحاجز حيك من سيقان السنابل الجافة، حولت أنظارها المجهدة نحو (كورديرا)، كأنها ترجوها بصمت أن تكون أمًّا ثانية للطفلين، وأن تمنحهما من الحنان الّذي لا يفهمه أبوهما، فقرر (أنطوان دي شينتا) كل ذلك ولم يقل للطفلين عن حاجته الملحة لبيع البقرة.

وفي صباح أحد الأيام، وكان يوم سبت، نهض باكرًا وانتهز فرصة نوم (روزا) و(بنيين)، وشرع بقلب مثقل يسوق (كورديرا) أمامه ميمّمًا وجهة شطر (جيجون).

ولما نهض الطفلان كانا في حيرة من أمر غياب والداهما المفاجئ، ولكنهما شعرا متيقنين بأن البقرة رافقته غير طائعة.

ولما أرجع والداهما الحيوان في المساء وهو مرهق مكسو بالغبار -ليعطيهما سببًا لغيابه- أحسا بوقوع الخطر.

لم تبع البقرة، إذ إنه بمنطق الحنان والمودة المصطنعين. كانا قد وضع السعر عاليًا لكي لا يستطيع أحد دفعه، فكان يتجهم لكل مشتر منتظرًا واثقًا من أنه سيصل المبلغ الّذي قرره بعناد. وكان يهدئ من اضطراب ضميره بقوله لنفسه أنه متأكد من رغبته في البيع. إنما الذنب ذنب الآخرين الذين لا يدفعون الثمن الّذي تستحقه (كورديرا) وهكذا قفل عائدًا إلى البيت يرافقه عدد من جيرانه المزراعين، الذين كانوا يسوقون مواشيهم أمامهم بمشقة تتوقف شدتها على قصر أو طول العشرة الّتي بين الحيوان وسيده.

إما (بنيين) و(روزا) فمن اليوم الّذي بدا يشكان فيه بأن هناك أمرًا مؤلمًا ينتظرهما لم يرتح لهما فكر. وسرعان ما تحققت أسوأ مخاوفهما عند ما ظهر صاحب البيت وهو يتوعدهم بإخلاء المكان.

ولذلك يجب أن تباع (كورديرا) ولربما بيعت بثمن فطور فقط.

وفي يوم السبت التالي رافق (بنيين) والده إلى سوق بلد مجاور حيث نظر الولد إلى القصابين المسلحين بأسلحة الذبح بفزع بالغ، وبيع الحيوان إلى أحد هؤلاء، وبعد أن وسمت البقرة بالحديد والنار أرجعت إلى زريبتها وجرسها يجلجل طول الطريق بحزن.

كان (أنطون) صامتًا وكانت عينا الولد حمراوين منتفختين. وعند سماع (روزا) خبر البيع رمت ذراعيها حول عنق (كورديرا) وأجهشت بالبكاء.

الأيام التالية أيامًا مملوءة بالحزن والأسى في مرج (سومونتي) بينما كانت (كورديرا) -وهي تجهل المصير الّذي ينتظرها- هادئة وديعة، كما حلا لها أن تبقى كذلك حتى اللحظة الّتي سيهوي عليها الساطور بضربته الوحشية.

ولكن (بنيين) و(روزا) لم يكن في وسعهما أن يفعلا شيئًا إلّا الاضطجاع على العشب في صمت متواصل، لا أمل لهما في أية تعزية في المستقبل، وكانا ينظران نظرة كراهية إلى أسلاك التغلراف والقطارات المارة الموصولة بذلك العالم البعيد كل البعد عن إدراكهما، العالم الّذي سوف يسلبهما رفيقتهما وصديقتهما الوحيدة.

وبعد بضعة أيام حصل الفراق، وأتى القصاب حاملًا النقود المتفق عليها. وسأله (أنطون) هل يرغب في شرب الشاي، وأرغمه على سماع فضائل البقرة الممتازة.

لم يستطع الأب أن يصدق أن (كورديرا) ستذهب إلى سيد آخر لن يعاملها معاملة حسنة، فأخذ يعدد ميزاتها البيتية ومقدرتها على در الحليب وصلابتها تحت النير، والآخر يبتسم وهو يفكر بالمصير الّذي ينتظرها.

وقف (بنيين) و(روزا) وأيديهما متشابكة ينظران إلى العدوّ من بعد، ويفكران بحزن بالماضي وذكرياته الملأى بـ(كورديرا). وقبل أن تساق نهائيًا بيد القصاب، ارتميا على عنقها وغطياه بالقبل. ثم تبعها الطفلان في الطريق الضيقة المنحدرة، وشكلا مع البقرة المتأففة وسائقها غير المبالي جماعة كئيبة وفي النهاية توقفا عن المسير وأخذا يرقبان البقرة وهي تختفي تدريجيًا في ظلال شجيرات العليق المتاخمة.

وهكذا اختفت (كورديرا) إلى الأبد.

انفجرت (روزا) بالبكاء وهي تصرخ: "وداعًا يا (كورديرا)، وداعًا يا (كورديرا)".

وكرر (بنييـن) وصوته يختنق بالعاطفة "وداعًا" ثم ضاع ندبه الحزين بين أصوات الليل الأخرى.

وفي صباح اليوم التالي الباكر ذهب (بنييـن) و(روزا) إلى مرج (سومونتي) فلم تكن وحشة في يوم من الأيام شديدة الوطأة عليهما كذلك اليوم، وبدا لهما كأنه صحراء قاحلة.

وفجأة ظهر دخان عند فم النفق، ثم أتى القطار، فشاهدا قطيعًا من الأبقار وقد حشد حشدًا مكتظًا في عربة تشبه الصندوق اخترقت جوانبه نوافذ ضيقة.

فهز الطفلان قبضتهما نحو القطار وهما أكثر إيقانًا من أي وقت مضى بنهم العالم وجشعه "إنهم يأخذونها إلى الذبح". "الوداع يا (كورديرا)". "الوداع يا (كورديرا)"

و ألقى (بنييـن) و(روزا) نظرة كراهية نحو القطار وعمود التلغراف، رمزي العالم القاسي الّذي سلبهما رفيقة سنوات عدة لمجرد إشباع شهواته الشرهة.

"وداعًا يا (كورديرا)".

"وداعًا يا (كورديرا)".

كلمات

كان السَّيّد (بلوشال) جامعًا للكلمات. لقد بدأ بفعل ذلك حين كان في السّادسة والخمسين من عمره، بعد قراءته لمجموعة مختارات من القصائد للمرّة الأولى. كان كتابًا صغيرًا ذا غلاف ورقيّ على غلافه زهرة بنفسجيّة، رغم أنّ الرّائحة الّتي تفوح من الكتاب كانت تتنافى مع هذه الصّورَة، فقد كان للكتاب رائحة كريهة نَتِنَة كالّتي تتسلَّل إلى الكتب بعد قضائها وقتًا طويلًا في قَبْوِ الكتب المستعملة.

كان من الممكن ألّا يشتري السَّيّد (بلوشال) المجموعة الشّعريّة. ورغم أنّه كان يتردّد بانتظام على متاجر الكتب إلّا أنّه نادرًا ما اشترى كتبًا. وعندما يفعل كانت كتبًا من نمط مختلف تمامًا. لقد كان يمتلك مكتبة صغيرة في منزله، تتألّف بشكل أساسيّ من الكتيّبات حول الاعتناء بالنّباتات المنزليّة مثلًا. لم يكن لديه أيّ نبتة، لكنّه يعدّ نفسه مطّلعًا كثيرًا على الموضوع، أو كتيّب عن القطط، لم يكن لديه قطّة؛ لأنّه يعاني حساسيّة من فِرائها. ولكنْ إنْ سأله أحدهم فسيتمكّن من تقديم نصائح كثيرة مفيدة، كما كان لديه كتيّب عن صيانة المجمّدات وإصلاحها، في الحقيقة لم يكن بحاجة إلى مجمّدة، لكن المعرفة كانت أمرًا يستحقّ العَناء.

لقد قرّر شراء المجموعة الشّعريّة من أجل زهرة الغلاف، فقد كان يعرف باعتباره خبير نباتات أنّ زهرة كهذه ليست موجودة، وكان هذا سرّ إغوائها له. أخذ الكتاب إلى المحاسب بشيء من الاضطراب، فقد بدا من غير اللّائق لرجل في عمره أن يظهر اهتمامًا بالشّعر الرّومانسيّ، ومن حسن حظّه أنّ البائعة لم تنظر إلى الغلاف، واكتفت بالنّظر إلى السّعر، وتناولت النّقود الّتي أعطاها لها.

كان يعرف القليل عن الحبِّ بالطَّبع، ولم يكن ذلك من واقع خبرته الشَّخصيّة، لكن هل كان ذلك ضروريًّا؟ يولد النّاس غالبًا بوعي كهذا، ولا يمكن للمرء أن يكون بغير هذا الشّكل، حين بدأ بقراءة الكتاب عاوده الإحساس بالتّوتر، رغم أنّه كان يقرؤه وحيدًا، حتّى أنّه احمرَّ خجلًا، وشعر بالرّاحة عندما وجد أنَّ المجموعة الشِّعريّة يمكن اعتبارها كتيِّبًا عن الحبِّ، وعندها أصبح كلّ شيء أكثر سهولة وبهجة.

أصابتـه الدّهشـة عندمـا وجـد أنّ الكلمـات فـي الكتـاب قـد فَتَنَتْـهُ أكثـر مـن الأحاسـيس النّاعمـة السّـامية، ثُـمَّ أدرك فجـأة أمـرًا كان قـد فاتـه الانتبـاه إليـه قبـلًا. الكلمـات الجديـدة موجـودة، لـم تكـن خاصّـة أو نـادرة بالضّـرورة، بـل كانـت كلمـات عاديّـة، يمكـن العثـور عليهـا فـي كتـب أخـرى أيضًـا، لكنّهـا لسـبب أو لآخـر لـم تَبْـدُ جميلـة فـي الكتيّبـات أو ربمـا لـم تلتقـط عينـاه جمالهـا.

كلما قرأ أكثر، كان الخوف يغمره أكثر من فقدان شيء ما.

كانـت الكلمـات الَّتـي يخلّفهـا وراءه عندمـا يقلّـب الصّفحـة تشـحب وتختفـي، وتظهـر أخـرى جديـدة لتحـلّ محلّهـا. لكـنّ هـذا لـم يكـن عـزاء كافيًـا لـه، كان عليـه الاحتفـاظ بالسّـابقة بطريقـة مـا، إذ ليـس مـن المعقـول أن يدعهـا تختفـي. كان بإمكانـه العـودة مـن أجلهـا طبعًـا، لكنّـه لـن يتمكّـن مـن إنهـاء الكتـاب أبـدًا. لا، عليـه أن يجـد حـلًّا أفضـل، فلمعـت فـي ذهنـه فكـرة ملهمـة.

اشـترى دفتـرًا ضخمًـا مسـطَّرًا ذا غـلاف جلـديّ، لا بـدّ أن يكـون دفتـرًا رائعًـا ليفـي بالغـرض، ويكـون مسـتودعًا للكلمـات الجميلـة، كيـف يمكنـه كتابتهـا فـي دفتـر عـاديّ؟ سـيكون ذلـك تدنيسًـا لهـا.

عـاد إلـى أوّل المجموعـة وهـو يحمـل الدّفتـر مفتوحًـا أمامـه، وكلّمـا صـادف كلمـة جميلـة دوّنهـا سـريعًا بقلـم الحبـر خاصّتـه، لـم يكـن مصنوعًـا مـن الذّهـب حقًّـا، لكـن مـن الصّعـب بلـوغ الكمـال.

كان خطّـه أنيقًـا، لـم يكـن مزخرفًـا بـل مدروسًـا وصارمًـا بعـض الشّـيء، كان جميـلًا بطريقتـه، وهـو مـا كان لازمًـا فحسـب لتدويـن الكلمـات الجميلـة، ليـس تظليلهـا بـل الانسـجام معهـا، كان يكتـب عـادة بخـطّ كبيـر، لكنّـه جعـل خطّـه أصغـر لهـذه المناسـبة احتياطًـا، فهـو لا يعـرف مقـدار الكلمـات الجميلـة الَّتـي سـيعثر عليهـا، لقـد كان الدّفتـر سـميكًا، لكـن عليـه أن يكـون حـذرًا.

لـم تُواتِـهِ الشّـجاعة لرؤيـة النّتيجـة حتّـى فـرغ مـن كتابـة كلّ الكلمـات الجميلـة فـي المجموعة، هـل سـتحتفظ بجمالهـا فـي دفتـره أم سـتفقده كمـا حـدث فـي الكتيّـب؟ تنفّـس الصّعـداء وهـو يحمـل الدّفتـر إلـى مسـافة قصيـرة، عندمـا تأمّـل عـن كثـب الصّفحـات الأربـع المملـوءة، لـم يكـن جمالهـا كاملًا فحسـب، بـل بـدا أنّـه تعاظـم أيضًـا، وكان هـذا غالبًـا بسـبب وجـود الكلمـات

الجميلة وحدها هناك، دونًا عن الأخرى الّتي لم تكن قبيحة تمامًا. لكنّها ليست مميَّزة بأيّ شكل. كان الدّفتر جمالًا مركَّزًا. تساءل بعد أن أنهى المجموعة: ما الّذي سيفعله تاليًا؟ لم يكن الدَّفتر قريبًا من الامتلاء، بل بدا كأنَّه بالكاد لُمِسَ. هل سيتركه هكذا؟ سيبدو الأمر كما لو أنَّه اقتطع جزءًا من الجمال فقط. لا، عليه المتابعة، فلابدّ أنّ هنالك كلمات جميلة، تستحقّ كلّها أن تكون في مكان واحد، لكن أين يتعيّن عليه البحث عنها؟

أوّل ما يتبادر إلى ذهنه طبعًا كان مجموعة أخرى من القصائد. لا يمكن أن يكون مخطئًا. لقد قال في نفسه: إنَّ الكلمات الجميلة تحظى بتعبيرات رائعة في القصائد، لكنّه إنْ واصل شراء هذا النّوع من الكتب، فسرعان ما سيفتضح أمره، يمكن لمجموعتين أو ثلاث أن تمرّ دون انتباه، لكن ثلاثمئة وخمسة وثلاثين -العدد الّذي رآه في فهرس المكتبة العامّة- سيثير السّخرية بلا شك. لا، عليه أنْ يفكّر بأمر آخر، ولمعت في ذهنه فكرة ملهمة ثانية.

من قال إن الكلمات الجميلة توجد في القصائد فقط؟ لا بدّ أنّها توجد في كتب أخرى، ولِمَ لا تكون في الكتيِّبات أيضًا؟ لقد صار خبيرًا بما يكفي لإدراك حقيقة رائعة؛ إنّ الكلمات الجميلة في كلّ مكان، وليست البراعة في اختيار الكتب بل في اكتشاف الكلمات، عليك أنْ تتمتّع بعين ثاقبة تلتقطها.

كان قد ارتاب في امتلاكه للمهارة، وكانت هنالك طريقة سهلة للتحقّق من الأمر. جذب أوّل كتيّب وقع في متناول يده وفتحه. في تلك اللّحظة كان قد أعماه وهج الكلمات الجميلة كما لو أنّ أحدهم ظلّلها بقلم مشعّ. لم يستطع مقاومة الرّغبة في فتح دفتره والبدء بتدوينها. كان التّفكير هو ما أوقفه، شيء جعله يشعر بالفخر بحقّ. لا يمكن للمرء أن يكون عفويًّا جدًّا، فإلى أين سيأخذه ذلك؟ سرعان ما استولى عليه التّشويش، لا بدّ أن يكون حازمًا ومنهجيًّا، وبعد التّفكير في الظّروف، عثر على الحلّ الّذي هبط عليه مثل الوحي.

نازعته قليلًا فكرة تمزيق الصّفحات الأربع الأولى من الدّفتر حتّى يتمكّن من البدء من جديد، لكنّه تخلّى عنها. لا يمكنه بدء مشروع مهمّ كهذا في دفتر ممسوخ؛ لذا سيتعيّن عليه شراء دفتر جديد، سيكون هذا ملائمًا، اختار أكبر دفتر وجده، لقد كان يتمتّع بميزة رائعة، ذلك أنّه حوى شريطًا مُنْزَلِقًا يتيح له تعيين الصّفحة حيث توقّف عن القراءة أو الكتابة.

كان القاموس الضّخم يتألّف من ستة عشر مجلَّدًا، وعندما فتح الأوّل صافح عينيه سِرْبٌ من الكلمات الجميلة المتألّقة، ولم يفزع من حجم ما ينتظره مستقبلًا؛ فقد كان -على أيّة حال- متأهِّبًا لذلك تمامًا، لم يَدُرْ بِخَلَدِهِ أنّه سيجد أيّ طريق مختصرة، فمهما كان الوقت الّذي سيحتاجه لكتابتها كلّها، فإنّه سيفعل ذلك على نحو متكافئ؛ لأنّ ما ينتظره مستقبلًا كان فرحًا وليس معاناة. حقًّا، ما الّذي سيكون أكثر بهجة من تدوين الجمال؟

عندما أنهى السَّيّد (بلوشال) عمله أخيرًا كان قد تجاوز السّادسة والخمسين بكثير، لكنّ ذلك لم يقلّل إحساسه بالرّضا والإنجاز.

في المقابل ما عدد الأشخاص الّذين يستطيعون القول إنّ حياتهم لم تكن عبثًا؛ لأنّهم التقطوا الجمال؟ ظلّ هنالك أمر واحد عليه القيام به، فقد كان هناك مساحة متبقّية تكفي لكلمتين أخريين فقط في أسفل الصّفحة الأخيرة من الدّفتر الممتلئ عن آخره، فرقّق خطّه للمرّة الأولى منذ أن بدأ الكتابة، ما زال صارمًا لكنّه كان ناعمًا وسخيًّا أيضًا، كما يفترض بالتّوقيع أن يكون. دخل الدّفتر وسحب الغلاف الخلفيّ وراءه، كما لو أنّه كان يرخي جفنًا ثقيلًا.

منزل للبيع

فوق الباب، باب خشبي واهي المفاصل، يدع رمل الحديقة الصغيرة يختلط بتربة الطريق على بسطة من الأرض. كانت لافتة معلقة منذ أمد بعيد، ساكنة في شمس الصيف، معذبة تمكو[1] في ريح الخريف، عليها: (منزل للبيع) ولعلها كانت تقول أيضًا: (منزل مهجور)، فقد كان الصمت يكتنف الدار.

ولكن امرأً كان يقيم هناك. فإن دخانًا خفيضًا مزرقًّا يصعد من آجر المدخنة الّذي يعلو الجدار قليلاً، كان ينمّ عن حياة خفية، متكتمة، حزينة كهذا الدخان الّذي ينبعث من نار الفقراء. ثم من خلال ألواح الباب المزعزعة، ما كنت تحس الإهمال والخواء، وهذا الجو الّذي يسبق ويعلن بيعًا أو رحيلًا، بل كنت ترى ممرات مستقيمة التخطيط وعُرُشًا مستديرة مشذّبة، ومساقي بجوار الحوض، وأدوات بستاني مسندة إلى البيت الصغير. لم يكن ذلك الربع سوى بيت من بيوت الفلاحين، يتوازن على هذه الأرض المنحدرة بسلم صغير قد نحى الطابق الأول جهة الظل والطابق الأرضي جهة الجنوب. ومن تلك الجهة كان يخيل إليك أنه معمل من معامل الإنبات، فقد رصت على درجات السلم نواقيس زجاجية، وأصص فارغة مقلوبة، منضودة على الرمل الأبيض الساخن، وأخرى قد نما فيها (الجيرانيوم) و(الفرفين)، بيد أن الحديقة كلها، فيما عدا شجرتين أو ثلاثا من شجر السرج الفارع، كانت تحت وهج الشمس. وكانت تمتد في النور الساطع مروحة من أشجار الفاكهة، قائمة على أسلاك حديدية، أو معروشة، وقد انتزعت بعض أوراقها، إعدادًا للثمرة ليس غير، كما اصطفت أيضًا أغراس من الشليك وأغراس من البازلاء تتسلق قضبانًا طويلة مثبتة في الأرض. وفي وسط هذا كله، وسط هذا النظام وهذا الهدوء، كان رجل عجوز ذو قبعة من الخوص يجوس خلال المسالك طول النهار، يروي في الساعات الرطيبة، ويقتطع، ويشذب الأغصان، ويسوي الأفاريز.

هذا الشيخ لم يكن يعرف أحدًا في البلد. لم يكن يطرقه زائر قط -اللّهم إلّا عربة الخباز الّتي كانت تقف بكل باب في شارع القرية الوحيد- وأحيانًا كان يرى اللافتة عابر

1) تمكو: تصفر، تصدر صفيرًا.

من الناس يلتمس قطعة من أراضي السفح هذه الغنية الخصبة الّتي تمنح بساتين جميلة، فيتوقف. يقرع أول الأمر، فإذا البيت أصم. ثم يقرع ثانيًا، فيدنو من أقصى الحديقة وقع (قبقاب) في بطء وتؤدة، ويوارب الشيخ بابه متجهم الوجه:

ـ ماذا تريد؟

ـ هل المنزل للبيع؟

فيجيب الرجل الطيب القلب في جهد:

ـ نعم... ولكنني أقول لك مقدمًا إنهم يطلبون عنه ثمنًا غاليًا جدًّا...

وكانت يده المتأهبة لإغلاق الباب تسده عليك. وكانت عيناه تطردانك، فما أشد ما كانتا تظهران من السخط، وكان يظل هناك قائمًا كالفارس على حراسة أحواضه وخضره وفنائه الصغير المفروش بالرمل. وإذ ذلك كان الناس يتابعون سبيلهم وهم يسائلون أنفسهم: من تراه يكون هذا المخبول الّذي عرضوا له؟ وأي جنون هذا الّذي يحمله على الإعلان عن بيع منزله بهذه الرغبة الملحة في الاحتفاظ به؟

وأخيرًا وضح لي هذا السر. ذات يوم، وأنا مار أمام البيت الصغير، سمعت أصواتًا ثائرة، صخبَ مناقشة حامية:

ـ يجب البيع يا أبتاه، يجب البيع... لقد وعدت بذلك...

ـ وصوت الشيخ متهدج مرتعش يقول:

ـ فإني يا أولادي لا أطلب أفضل من البيع... أما ترون؟ لقد وضعت اللافتة.

وهكذا علمت أن هؤلاء هم أبناؤه وكنائنه، تجار من صغار أصحاب الحوانيت في (باريس)، يحملونه على أن يتخلص من هذا الركن الحبيب لأي سبب! هذا ما كنت أجهله. أما المؤكد فهو أنهم بدؤوا يلمسون أن الأمر قد طال، وأن الشيخ يماطلهم، ومنذ ذلك الوقت، أقبلوا بانتظام، يوم الأحد حين تستريح الأرض ذاتها من كونها قد حرثت وبذرت طوال الأسبوع، كنت أسمع ذلك جليا. كان التجار الصغار يتحدثون، ويتجادلون فيما بينهم وهم يلعبون لعبة البرميل، وكانت كلمة النقود ترن رنينًا جافًا كهذه الأقراص الّتي يقذفونها. وفي المساء كان الجميع يرحلون، وكان الرجل الطيب القلب، بعد أن يرافقهم في الطريق

بضع خطوات يعود مسرعًا فيغلق من جديد بابه الغليظ سعيدًا مبتهجًا وقد ظفر بمهلة أمامه لمدة أسبوع. ويستعيد البيت سكونه، ويظل ساكنا ثمانية أيام، فما تسمع في الحديقة الصغيرة الّتي تلفحها الشمس إلّا صوت الرمل يسحقه وطءُ قدم ثقيلة أو تجرفه المجرفة.

على أنهم من أسبوع إلى أسبوع راحوا يضيقون الخناق على الشيخ. ولم يدخر التجار الصغار وسيلة من الوسائل، أحضروا الأحفاد لإغرائه: (أترى يا جدنا حين يباع البيت ستأتي لتسكن معنا. وكم سنكون سعيدين معًا!) ثم كانت أحاديثًا متفرقة يلقيها كل امرئ لنفسه في ركن من أركان البيت على حدة، ومشي خلال ممرات الحديقة لا يقف عند حد، ومسائل حسابية يجريها بصوت مرتفع. ومرة سمعت إحدى البنات تصيح:

ـ هذا الخص[1] لا يساوي مائة سو[2]... إنه خليق بأن يهدم.

وكان الشيخ يصغي دون أن يقول شيئًا. كانوا هم يتكلمون عنه كأنه قد مات، وعن داره كأنها قد هدمت بالفعل. فكان يتجنبهم ويمشي، أحدب الظهر، والدموع ملء عينيه، ملتمسًا كعادته غصنًا يشذّبه أو ثمرة يعني بها في أثناء مروره، وإنك لتحس أن حياته قد تغلغلت جذورها في هذا الركن الصغير من الأرض تغلغلًا لن يبعث فيه القدرة على اجتثاث نفسه منه. والحق أنه كان- مهما تفننوا في إغرائه- يرجئ دائمًا لحظة الرحيل. في الصيف حين تنضج هذه الثمار الّتي يوحي إليك مذاقها الحمضي بعض الشيء بأن السنة ما زالت في نضرتها وريعانها، ثمار الكرز، والبرقوق، والمشمش، كان يقول:

ـ لننتظر المحصول... سأبيع بعده مباشرة.

وبعد المحصول، بعد انقضاء موسم الكرز، يأتي موسم الخوخ، ثم العنب، وبعد العنب تأتي ثمار (النيفل) السمراء الجميلة الّتي يكاد المرء يجنيها تحت الجليد. وحينئذ يصل الشتاء فيسود الريف، وتخلو الحديقة. الآن لا مارة، ولا شراة، بل ولا التجار الصغار يوم الأحد، وإنما ثلاثة أشهر عريضة من الراحة لإعداد البذار، وتقليم الفاكهة، بينما تتأرجح على الطريق اللافتة الباطلة، وقد قلبها المطر والريح.

وعلى مر الأيام، فرغ صبر الأبناء، واقتنعوا بأن الشيخ كان يبذل كل ما في وسعه

1) الخصّ: بيت من قصب أو من أغصان الأشجار.
2) سو: قطعة بازل.

لإقصاء المشترين، فاتخذوا قرارًا حاسمًا. قدمت إحدى الكنات واستقرت بجانبه، وتلك امرأة صغيرة من نساء الدكاكين حالية منذ الصباح، بارعة في إظهار الحفاوة وتكلف الرقة والتلطف في المجاملة براعة الذين اعتادوا التجارة. وكأن الطريق قد أصبح ملكها. فقد كانت تفتح الباب على مصراعيه، تتحدث وتلغو، وتبتسم للمارة كأنما تقول لهم:

ـ ادخلوا... انظروا... إن المنزل للبيع!

ولم تعد للشيخ المسكين مهلة بعد ذلك. أحيانًا كان يحاول أن ينسى أنها هناك، فينصرف إلى تقليب حياضه وبذرها من جديد، كهؤلاء الناس الذين يوشكون على الموت ويحبون القيام بمشروعات ليخدعوا مخاوفهم. ولكن البائعة كانت تتبعه طيلة الوقت وتنغص عليه.

ـ دع! ما انتفاعك بهذا؟.. أو من أجل سواك تجشم نفسك كل هذا التعب؟

فما كان يجيبها، وإنما كان ينكب على عمله في عناد غريب. إن ترك حديقته لعين الإهمال، معناه فقدانها بعض الفقدان منذ ذلك الوقت، وبدء انفصاله عنها. ولهذا ما كنت تجد في الممرات عودًا واحدًا من العشب، ولا في شجيرات الورد غصنًا طفيليًّا.

وظل البيت معروضًا للبيع، ولكن الشراة لم يتقدموا. ذلك أن الحرب قد نشبت. وعبثًا ثابرت المرأة على فتح بابها، وإرسال النظرات المعسولة إلى الطريق، فلم يكن يمر غير النازحين عن الأرض ولم يكن يدخل إلّا الغبار. واشتد غيظ السيدة من يوم إلى يوم، ولا سيما وقد كانت أعمالها في (باريس) تستدعيها: كنت أسمعها توسع حماها لومًا وتأنيبًا، وتقسو في الهجوم عليه، وتخبط الأبواب، وأما الشيخ فكان يحني ظهره دون أن يقول شيئًا، ويتعزى إذ يبصر بازلاه الصغيرة تنمو، واللافتة معلقة في مكانها دائمًا: (منزل للبيع).

وفي هذا العام،عندما وصلت إلى الريف وجدت المنزل، وعرفته ولكن واحسرتاه لم تكن اللافتة هناك! كانت إعلانات ممزقة بالية لم تبرح عالقة بأوجه الجدران. لقد قضي الأمر، وباعوه!.. وفي مكان البوابة الرمادية الكبيرة أصبح بابًا أخضر حديث الطلاء، تعلوه عتبة مستديرة، وتنفتح فيه نافذة ذات قضبان تلوح من ورائها الحديقة. ولم تعد الحديقة ذلك البستان الّذي كنت أعهده هناك قديمًا، بل غدت خليطًا بورجوازيا من السلال، والخضرة، ومساقط الماء وصورة لهذا كله تنعكس على كرة معدنية تتأرجح أمام الدرج. وفي هذه الكرة، بدت الممرات صفوفًا من الأزهار الزاهية، وامتد شكلان في كثير من

المبالغة والتهويل: رجل سمين أحمر، غارق في عرق غزير، غائص في كرسي من كراسي النزهة الخاوية، وسيدة ضخمة لاهثة الأنفاس، تصبح وهي تطرح مسقاة بيدها:

ـ لقد دفعت ثمنًا للبلسمين أربعة عشر؟

وكانوا قد شيدوا طابقًا، وجددوا السياج، وفي هذا الركن الصغير المستطرف، الّذي مازالت تفوح منه رائحة الطلاء، كان (بيانو) يعزف ملء الريح مقطوعات صاخبة شائعة وألحانا جذلى مما تردده حلبات الرقص العامة. وهذه الأنغام الراقصة الّتي كانت تنطلق إلى الطريق نابضة حارة مختلطة بقتام يولية الكثيف، وعجيج تلك الأزهار الضخمة، والسيدات الضخْمات، هذا المرح الفياض الغامر، هذا المرح السوقي المبتذل، كان يقبض قلبي.. كنت أفكر في الشيخ المسكين الّذي كان يتمشى هنا راضيًا وادعًا سعيدًا، ثم أتمثله في (باريس)، وقبعة الخوص على رأسه، وحدبة البستاني العجوز في ظهره، هائمًا في أعماق دكان ما، ضيقًا بأمره، حييًا، مسحونًا بالدموع، بينما تتبوأ زوجة ابنه الظافرة خزانة جديدة، ترن فيها قطع ذهبية هي ثمن البيت الصغير.

ينبوع الشباب

ناثانيل هوثورن*

دعا رجل فريد في زمانه يدعى الدكتور (هايديغر) أربعة من أصدقائه المحترمين ليجتمعوا إليه في مكتبه؛ كان ثلاثة منهم رجالًا ذوي لحًى بيضاء، هم السيد (مدبورن)، والكولونيل (كيليغرو)، والسيد (غاسكون)، والرابعة سيدة مسنة ذاوية تدعى الأرملة (ويشرلي).

كانوا جميعهم مسنين ذوي مزاج سوداوي، تعساء في حياتهم، مصيبتهم الكبرى في الحياة أنهم لم يواروا في قبورهم منذ زمن طويل؛ كان السيد (مدبورن) إبان شبابه تاجرًا ناجِحًا، ولكنه أضاع كل ما يملكه في مضاربة جنونية حيث أصبح الآن لا يفضل المتسولين إلّا قليلًا. أما الكولونيل (كيليغرو) فقد أتلف أحسن سنيه وصحته وكل ما يعيش عليه في مطاردة ملذات الخطيئة، حتى سببت له سلسلة من الآلام كداء النقرس، وما إليه من أوجاع تعذب الجسد والروح معًا. ولكن السيد (غاسكون) كان سياسيًا فاشلًا مقضيًّا عليه، ورجلًا ذا شهرة سيئة، أو على الأقل كان ذلك حتى طمره الزمان من معرفة الجيل الحاضر، وجعله مغمورًا إضافة إلى أنه سيء السمعة.

أما الأرملة (ويشرلي) فقد أثر عنها أنها كانت ذات جمال فتان في شبابها، ولكنها لزمن طويل مضى عاشت في عزلة بسبب حكايات ملأى بالفضائح، مما جعل الطبقة النبيلة في البلدة تتحامل عليها. ومما هو جدير بالذكر أن كلًا من هؤلاء الثلاثة: (السيد مدبورن، والكولونيل كيليغرو، والسيد غاسكون) كان يتودد للأرملة (ويشرلي)، وأن كلًا منهم كان مرة على وشك أن يفتك بالآخر بسببها.

وقبل أن أتابع قصتي أود أن ألمح أن الدكتور (هايديغر) وضيوفه الأربعة قد قيل عنهم جميعًا أن عقولهم ليست على مستواها الطبيعي تمامًا، وهذا ليس نادرًا مع أناس مسنين مثقلين إما بمنغصات الحاضر أو بذكريات تعاسة ماضية.

قال الدكتور (هايديغر) وهو يشير إليهم بالجلوس: "إني أرغب يا أصدقائي القدامى أن

* كاتب أمريكي (1804-1864).

تساعدونني في تجربة من تلك التجارب الّتي امتع نفسي بها هنا في مكتبي".

إذا صدقت كل الروايات، فإن مكتب الدكتور (هايديغر) يجب أن يدعو إلى الاستغراب جدًّا. فهو غرفة معتمة على الطراز القديم، موشاة بأنسجة العنكبوت ومنثورة بأغبرة أثرية. وحول الجدران قامت عدة مكتبات من خشب البلوط، اكتظت رفوفها السفلى بصفوف من مجلدات ضخمة بأحرف سوداء. وفوق المكتبة الوسطى وقف تمثال نصفي من البرونز لأبي الطب أبقراط الذي -بموجب مصادر يوثق بها- كان من دأب الدكتور (هايديغر) أن يأخذ بمشورته في جميع القضايا الصعبة من تجاربه، وفي أظلم زاوية من الغرفة انتصبت خزانة عالية ضيقة من السنديان، بابها مفتوح نصف فتحة، يطل من خلالها هيكل عظمي، وبين المكتبتين علقت مرآة صفحتها الصقيلة مغبرة، وهي في إطار مذهب متسخ. ومن بين الحكايات العجيبة العديدة الّتي راجت حول هذه المرآة خرافة تقول: إن أرواح جميع المرضى الذين ماتوا على يد الدكتور سكنت في نطاقها، لتحملق في جهة كلما ألقى نظرة عليها، وفي الجهة المقابلة من الغرفة انتصبت صورة مزخرفة في الحجم الطبيعي لفتاة في ريعان الشباب في حلة من الحرير والأطلس والقماش المشجر، ذهب بهاؤها كما ذهب بهاء محياها.

قبل أكثر من نصف قرن كان الدكتور (هايديغر) على وشك الزواج من هذه الفتاة الشابة، ولكنها ماتت عشية زفافها. والآن بقي هناك شيء واحد مما يثير أشد الاستغراب، مجلد ضخم ثقيل مغلف بجلد أسود مكسو بشبكة فضية ضخمة، لم تكن هناك أية كتابة على ظهره، ولا أحد استطاع أن يتكهن بعنوان الكتاب.

هكذا كان مكتب الدكتور (هايديغر). وفي عصر ذلك اليوم الصيفي من قصتنا هذه، انتصبت مائدة صغيرة مستديرة، سوداء كالأبنوس، في منتصف الغرفة، عليها إناء زجاج صخري بديع الشكل والصنع، ودخلت أشعة الشمس من الشباك من فرجة ستار من الدمقس حائل اللون مزركش الحواشي، ونفذت مباشرة خلال هذا الإناء، فانعكس منه بهاء لطيف على محيا الأشخاص الخمسة الرمادية الجالسين حوله. وكانت هناك أربع كؤوس خالية، وُضعت أيضًا على المائدة.

كرر الدكتور (هايديغر) قائلًا: "يا أصدقائي المسنين هل لي أن اعتمد على مساعدتكم

في إنجاز تجربة في غاية الغرابة؟"

كان الدكتور (هايديغر) متقدمًا في العمر غريب الأطوار جدًّا، حتى أصبح نواة لألف حكاية عجيبة، وبعض هذه الأساطير، أقصها وكلي خجل، ترجع إلى طبيعتي الصدوقة، وإذا كان في القصة الحالية ما يزعزع إيمان القارئ، فحسبي أن أوصم بأنني مروج خرافات!

عندما سمع ضيوف الدكتور الأربعة عن التجربة المرتقبة، لم يتوقعوا شيئًا عجيبًا أكثر من قتل فأر بمضخة هوائية، أو فحص نسيج عنكبوت بالمجهر، أو عبث مشابه كان دومًا معتادًا أن يقدمه إلى أصدقائه المقربين، ولكن دون أن ينتظر منهم جوابًا هرول الدكتور في مشيته المقلقة عبر الغرفة، ثم رجع بذلك المجلد الثقيل الضخم المغلف بجلد أسود، الّذي أكدت التقارير الرائجة أنه كتاب سحر، وبعد أن فك المشابك الفضية فتح المجلد، وأخذ من بين ثنايا صفحاته ذات الأحرف السوداء وردة، أو ما كان من قبل يدعى وردة، أخذت أوراقها الخضراء ووريقاتها القرمزية لونًا بنيًا، وبدت الوردة قديمة وكأنها تتفتت بين يدي الدكتور.

قال الدكتور (هايديغر) وهو يتنهد: "هذه الوردة هذه الوردة الذابلة المتداعية أينعت قبل خمس وخمسين سنة، كانت قد أهديت لي من (سلفيا) الّتي ترون صورتها معلقة هناك، وكنت قد نويت أن أزين بها صدري يوم زواجنا، ولقد احتفظت بها لخمس وخمسين سنة بين أوراق هذا المجلد العتيق، والآن، هل تعتقدون أن هذه الوردة، بعد مرور نصف قرن عليها، من الممكن أن تينع مرة أخرى؟"

فأجاب الدكتور (هايديغر): "انظروا!"

وكشف الإناء ورمى الوردة المتيبسة في الماء الّذي يحتويه، طفت الوردة من البداية على وجه السائل، وبدت كأنها تمتص شيئًا من رطوبته، ولكن لم تمض برهة حتى بدا عليها تغيير عجيب؛ لقد تحركت الوريقات الجافة المضغوطة، وبدأت تتخذ لونًا قرمزيًّا يغمق بالتدريج، كأنما الوردة تنتعش من سبات أشبه بالموت، الساق الرشيق وعروق الأوراق أصبحت خضراء. وهناك بدت وردة نصف القرن يانعة... ولكنها لم تكن في كمال التفتح.

فقال أصدقاء الدكتور بعدم اكتراث: حقًا، إن هذا لخداع لطيف جدًّا. "وذلك لأنهم سبق أن شاهدوا أعاجيب أعظم من هذه في حفلات الحواة، ولكنهم أردفوا قائلين: "ولكن

بحقك أخبرنا كيف أنجزت هذا؟"

فسألهم الدكتور (هايديغر): "ألم تسمعوا مطلقًا بينبوع الشباب الّذي بحث عنه (بونس دي ليون) المغامر الأسباني لقرنين أو ثلاثة قرون خلت؟"

فقالت الأرملة (ويشرلي): ولكن هل وجده (بونس دي ليون)؟

قال الدكتور: كلا لأنه لم يبحث عنه مطلقًا في المكان الحقيقي، وإذا كنت على صواب فإني أعتقد أن ينبوع الشباب يقع في القسم الجنوبي من شبه جزيرة فلوريدا، ليس بعيدًا من بحيرة (ماكاكو)، يكتنف منبعه ظلال بضع أشجار هائلة من المنغوليا، وهذه الأشجار رغم أن عمرها قرون لا تحصى فإنها قد احتفظت بنضارة البنفسج؛ وذلك بما لهذا الماء العجيب من مزايا، والماء الّذي ترونه في الإناء أمامكم أرسله إلى أحد أصدقائي الذين يعلمون شغفي بأمور كهذه".

فقال الكولونيل (كيليغرو) الّذي لم يصدق كلمة واحدة من حكاية الدكتور: "إحم! ولكن ما هو تأثير هذا السائل على الجسم البشري؟"

فأجاب الدكتور: "ستحكمون على هذا بأنفسكم، وإني أرحب بجميعكم يا أصدقائي المبجلين لتنهلوا من هذا السائل قدرًا كافيًا يعيد إليكم ريعان الشباب، غير أنني، نظرًا لما تجشمته من مشاق عديدة حتى بلغت هذا العمر، لست على عجل في رجوعي إلى الشباب ثانية، ولذا أستميحكم عذرًا، فإنني سأرقب سير عملية التجربة فقط".

وبينما كان الدكتور (هايديغر) يتكلم كان يملأ الكؤوس الأربعة بماء ينبوع الشباب، ويبدو أن الماء كان مليئًا بغاز فوار، إذ كانت فقاقيع صغيرة تصعد باستمرار من أعماق الكؤوس، وتنفجر برشاش فضي على سطحة، ونتيجة للرائحة الطيبة الّتي فاحت لم يشك الأشخاص المسنون في أن له خواصَّ مريحة تنعش القلب، ورغم أنهم كانوا في منتهى الشك من ناحية قوته على إرجاع الشباب، فقد تشوقوا إلى عَبِّه مرة واحدة. ولكن الدكتور (هايديغر) رجاهم أن ينتظروا لحظة.

وقال: "يا أصدقائي المحترمين، إنه لمن المستحسن قبل أن تشربوا -ولكم خبرة حياة كاملة ترشدكم- أن تأخذوا ببضع قواعد عامة تقودكم في السير مرة ثانية عبر مخاطر الشباب؛ ففكروا في الخطيئة والعار اللذين سيلحقان بكم وقد حزتم على الامتيازات الفريدة الّتي

ستكتسبونها، إذا لم تصبحوا نماذج للفضيلة والحكمة لجميع شباب العصر".

لم يَفِهْ أصدقاء الدكتور الأربعة بأي جواب- اللّهم- سوى ضحكة مرتعشة ضعيفة، لقد كانت الفكرة سخيفة جدًا، إنهم سيشطون مرة أخرى وهم يعرفون ما أقرب خطوات الندامة أثر خطوات الزلل.

قال الدكتور وهو ينحني: "اشربوا إذن، وكم يسرني أنني وفِّقت بانتقاء الأشخاص لتجربتي هذه".

وبأيد مشلولة رفع الأربعة الكؤوس إلى شفاههم. فإذا كان الشراب يمتلك تلك المزايا الّتي أسبغها الدكتور (هايديغر)، لم تكن هناك مخلوقات أربعة بحاجة إليه أكثر منهم، كان مظهرهم يدل كأنهم لم يعرفوا الشباب مطلقًا، كأنهم نتاج مجتمع خَرِفٍ، أناس شيّب أبدًا، تعيسون دائمًا، عاجزون، جفّت عصارة الحياة في عروقهم، يجلسون الآن منحنين حول مائدة الدكتور دون حياة كافية في أرواحهم أو أجسامهم تنتعش حتى بفكرة رجوعهم إلى الشباب، كرعوا الماء، وأرجعوا كؤوسهم إلى المائدة.

لقد بانَ تَحسُّنٌ فوري لا شكّ فيه على سيماء الجماعة، مصحوبًا بتوهج فجائي كالذي تحدثه أشعة الشمس؛ تألقت وجوههم مرة واحدة، وسرى في وجناتهم احمرار الصحة والعافية، عوضًا عن ذلك اللون الرمادي الّذي كان يظهرهم كالأموات، ونظر كل منهم في وجه صاحبه، وتخيل أن هناك قوة سحرية قد بدأت فعلًا في صقل الأخاديد العميقة الّتي حفرها الزمان من أمد بعيد على جباههم، فأخذت الأرملة (ويشرلي) في إعادة وضع قبعتها من جديد؛ لأنها كادت تشعر أنها امرأة ثانية....

وأخذوا يهتفون بلهفة: "زدنا من هذا الماء العجيب! نحن أصغر الآن، ولكننا مازلنا هَرِمينَ! أسرعْ وزدنا!"

فقال الدكتور (هايديغر) وهو جالس يرقب التجربة ببرود فلسفي: "صبرًا.. صبرًا، لقد طال الزمان بكم حتى هرمتم، فمن الإنصاف أن تقنعوا بأن ترجعوا إلى الشباب في نصف ساعة فقط! ولكن الماء تحت تصرفكم".

فملأ كؤوسهم مرة أخرى بشراب الشباب، وقد بقي منه في الإناء ما يكفي لإرجاع نصف شيبة المدينة إلى عمر أحفادهم، اختطف ضيوف الدكتور الأربعة كؤوسهم من على

المائدة، وعبوا محتوياتها عبة واحدة، والفقاقيع تتلألأ على حوافها، أكان ذلك وهجًا؟ لقد بدا والغَبَّة ماتزال تجري في حلوقهم أنها فعلت تغييرًا في كامل أبدانهم؛ غدت عيونهم صافية براقة، وأخذ ظل قاتم في الاسوداد بين خصل شعرهم الفضي، وبدا حول المائدة ثلاثة رجال في منتصف العمر، وسيدة لم تكد تتجاوز عنفوان شبابها.

وصاح الكونوليل (كيليغرو): "يا أرملتي العزيزة، إنك لفاتنة!" وبينما كانت عيناه مثبتتين على وجهها، كانت ظلال الشيخوخة تهرب منه كما تهرب الظلمة من احمرار الفجر.

وكانت الأرملة الجميلة تعرف من قديم أن إطراء الكولونيل لم يكن دائمًا يقاس بالحقيقة؛ ولهذا نهضت وركضت إلى المرآة وهي لا تزال ترتعب لئلا يلتقي نظرها بوجه دميم، وفي هذه الأثناء تصرف الرجال الثلاثة تصرفًا برهن على أن ماء ينبوع الشباب فيه بعض الخواص العجيبة، وما خلا الابتهاج الّذي ملأ نفوسهم هناك دوار بسيط سببه زوال وقر السنين الفجائي. وبدا السيد (غاسكون) أن عقله انصرف إلى موضوعات سياسية، لكن أبالماضي كانت تتعلق أم بالحاضر، أم بالمستقبل؟ لم يستطع أن يعرف بسهولة؛ لأن الأفكار والعبارات هي نفسها دائمًا خلال هذه السنين الخمسين، فأخذ يجمجم بملء فيه جملًا عن البطولة، والمجد الوطني، وآخر راح يتفوَّه بأشياء خطيرة بهمس ماكر ملؤه الشك والحذر، حتى كاد ضميره لا يستطيع معرفة ما في سره، ثم انقلب ليتكلم بنبرات موزونة ونغمة مليئة بالاحترام، كأنما كانت هناك أذن ملكية تصغي إلى تقلبات أحواله الحسنة، وفي هذه الأثناء كان الكونوليل (كيليغرو) يثرثر، مغنيًا بمرح. وفي الناحية الأخرى من المائدة كان السيد (مدبورن) منهمكًا في حساب الدولارات والسنتات، وخلط فيها خلطًا غريبًا مشروعًا لتزويد جزائر الهند الشرقية بالثلج، وذلك بسرج عدد من الحيتان إلى كتل الجليد القطبية...

أما الأرملة (ويشرلي) فإنها وقفت أمام المرآة منحنية تتكلف الابتسام لصورتها، وتحييها كصديقة أحبتها أكثر من أي شخص آخر في الدنيا، واقتربت بوجهها من صفحة المرآة؛ لترى ما إذا كانت الأخاديد وغضون ما حول عينيها قد تلاشت بالفعل. وتفحصت إذا كان الثلج قد ذاب كله عن شعرها كي تستطيع أن تلقي بقبعتها المحترمة جانبًا. وأخيرًا التفتت برشاقة، وراحت تمشي نحو المائدة وهتفت: "بحقك يا عزيزي الدكتور، مُنَّ عليَّ بكأس أخرى".

فأجاب الدكتور المضياف: "بكل تأكيد يا سيدتي العزيزة، بكل تأكيد! انظري لقد ملأت الكؤوس سلفًا".

وأيم الحق لقد انتصبت هناك الكؤوس الأربعة مترعة من هذا الماء العجيب، ورشاشه الّذي كان يتطاير عند فورانه يشبه بريق الماس. وكان قد اقترب غروب الشمس، وأمست الغرفة معتمة أكثر من أي وقت مضى، ولكن بهاءً رقيقًا أشبه بضوء القمر شع من داخل الإناء، واستقر على الضيوف الأربعة، وعلى قوام الدكتور المحترم، وقد جلس على كرسي عالي الظهر متقن الصنع والحفر، جليل الهيئة أشيب الرأس، يليق شكله بالرجل الّذي لم يستطع أحد أن يناقش سطوته سوى هذه الجماعة المحظوظة. وبينما هم يكرعون ثالث جرعة من ماء ينبوع الشباب كاد يرهبهم تعبير محياه الغامض، ولكن في اللحظة التالية انبثقت في عروقهم طفرة لذيذة من الحياة الجديدة، لقد أصبحوا الآن في أوج شبابهم السعيد، أما الشيخوخة، وبطانتها التعسة من هموم وأحزان وأمراض، فقد تذكروها كحلم مزعج، استيقظوا منه بفرح، وأضفى بريق الروح المشع الّذي فقدوه باكرًا، والذي من دونه تغدو مشاهدة الحياة المتتابعة مجرد معرض صور باهتة، أضفى بسحره على جميع مشاريعهم المقبلة، لقد شعروا وكأنهم خلقوا من جديد في عالم جديد.

وراحوا يهتفون بنشوة: "نحن شباب! نحن شباب!"

والشباب كالشيخوخة يمحو جميع خصائص الكهولة المنطبعة بقوة، ويستوعبها بتفاهم مشترك مع الشيخوخة، لقد أضحوا الآن حلقة من الشباب اليافعين المرحين، وكادوا يجنون بخصب سنيهم النشطة، ولكن أكثر ما أحدثه مرحهم من تأثير فريد هو أنهم أخذوا يهزؤون من عجزهم وعاهاتهم الّتي كانوا ضحاياها لأمد قريب؛ ضجوا من الضحك على لباسهم ذي الطراز القديم، وعلى معاطفهم الواسعة الجوانب وصداريهم المهدلة، وعلى قبعة الفتاة وفستانها، وراح أحدهم يعرج ماشيًا في الغرفة كجد هرم مصاب بالنقرس، ووضع آخر نظارات على أنفه، وتظاهر بإمعان النظر في الأحرف السوداء على صفحات الكتاب، وجلس ثالث على كرسي ذي مساند وحاول جاهدًا تقليد الدكتور (هايديغر) بجلسته المبجلة، ثم راحوا يزعقون بحبور، ويقفزون حول الغرفة. ومشت الأرملة - هذا إذا صح لنا تسمية فتاة غضة كهذه أرملة- بخفة ورشاقة إلى كرسي الدكتور ووجهها الوردي ينم عن مرح ماكر.

دخل الثلاثة في عراك شديد، وفيما هم يتأرجحون في صراعهم انقلبت المائدة، وسقط الإناء، وتحطم إلى ألف شظية، وانساب ماء الشباب الثمين يترقرق على أرض الغرفة، وقد أصاب جناحي فراشة طعنت في السن في أواخر الصيف، وكانت قد حطت هناك لكي تموت، فطارت الحشرة ترفرف بخفة في أجواء الغرفة واستقرت على رأس الدكتور (هايديغر) الأشيب.

وهتف الدكتور: يا سادة يا سادة! وأنت يا سيدتي! يجب أن أحتج، وايم الحق على هذا الشغب، فتوقفوا دون حراك وهم يرتعدون، وخيل إليهم أن الزمان الأشيب كان يناديهم ليرجعوا من شبابهم المشرق إلى وادي السنين السحيق القرير المظلم، ورمقوا الدكتور الجالس على كرسيه المنقوش، وهو ممسك بالوردة ذات الخمسين من العمر الّتي أنقذها من بين شظايا الإناء المحطم، وبإشارة من يده أخذ المشاغبون كل منهم مقعده باستعداد زائد؛ لأن جهدهم العنيف أنهكهم رغمًا عن فتوتهم الّتي كانوا عليها.

وصاح الدكتور (هايديغر) وهو ممسك بالوردة على ضوء شمس الغروب الّتي حجبتها الغيوم: يا لوردة (سلفيا) المسكينة! يظهر أنها أخذت تذبل ثانية.

وهكذا كان، أخذت الوردة تذوي وتتقلص وهم يرمقونها إلى أن جفت وغدت قابلة للتفتيت مثلما كانت عندما ألقى بها الدكتور في الإناء. ثم نفض عنها القطرات القليلة من الندى الّتي تعلقت بوريقاتها وأردف: "إني أعشقها هكذا، كأنها نضرة غضة".

وضغط بالوردة الذابلة على شفتيه الذابلتين، وبينما هو يتكلم رفرفت الفراشة على رأس الدكتور الأشيب وسقطت على الأرض.

ارتجف الضيوف ثانية، وسرت فيهم شيئًا فشيئًا قشعريرة غريبة لم يعرفوا كنهها أمن الروح أم الجسد؟ ورمق كل منهم الآخر، وتخيل أن كل لحظة هاربة اختطفت منهم فتنة، وتركت موضعها أخدودًا عميقًا لم يكن له وجود من قبل. أكان هذا وهمًا؟ أم أن تغيرات حياة برمتها ازدحمت في فسحة وجيزة كهذه، وأنهم الآن أربعة أشخاص مسنين جالسين مع صديقهم القديم الدكتور (هايديغر)؟

هتفوا بنغمة حزينة: "هل شِخْنا ثانية بسرعة كهذه؟"

حقًّا لقد غدوا هكذا، أجل لقد شاخوا ثانية. أما الأرملة، بدافع مشحون بالقشعريرة

أظهرها أنها مازالت امرأة، فغطت وجهها بيدها المعروقتين، وتمنت لو أن غطاء التابوت فوقه؛ لأنه لن يعود جميلًا أبدًا.

قال الدكتور (هايديغر): نعم يا أصدقائي، إنكم شيوخ مرة ثانية، وها هو ماء الشباب مهروق بسخاء على الأرض، ولن أحزن عليه، وحتى لو انبجس ينبوعه أمام عتبة بيتي، فإنني لن أنحني لأغمس شفتي فيه، لا، حتى ولو دام هذيانه المحموم سنوات بدلًا من لحظات. هذا هو الدرس الّذي علمتموني إياه!

ولكن أصدقاء الدكتور الأربعة لم يعلموا أنفسهم درسًا كهذا، وصمموا على أن يذهبوا في القريب العاجل إلى فلوريدا صباحًا، وظهرًا، ومساءً، لعلهم يشربون من ماء ينبوع الشباب!!!